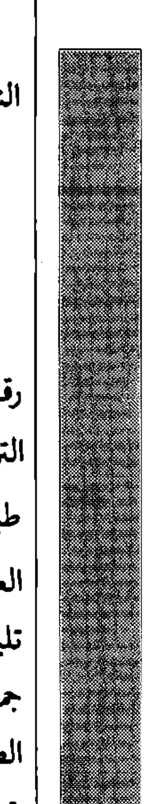
عبد الوهاب مطاوع

شركاء في الحياة






شركاء في الحياة



الناشــر : **الــدار المصريــة اللبنانيــة**

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ٨٧٣٩ / ٩٣

الترقيم الدولى : 5 - 106 - 270 - 977

طبـع : **عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م

تصميم الغلاف والرسوم الداخلية : سيد عبد الفتاح



عبد الوهاب مطاوع

شركاء فى الحياة

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

صدق الله العظيم



للناشر كلمة ...

منذ وجدت الحياة الإنسانية ، وجدت معها مشاكلها ومتاعبها . . فقد نشب النزاع بين أول أخوين من البشر ظهرا على وجه الأرض . . وقصة هابيل وقابيل معروفة للجميع .

وكلما تواترت العلاقات الاجتماعية بين بنى الإنسان ، كلما توترت هذه العلاقات، وتعددت أسباب توترها . . فالحياة بطبيعتها لايمكن تصورها خالية من الهموم . . ومن الهموم ما يعصف بسعادة الإنسان ، ويقلق مضجعه فيصعب عليه النوم أو الراحة ، ويمتلىء قلبه وجوانحه بالعذابات والمشاعر الجارحة .

والإنسان بطبعه يحب أن يعيش حياته سعيداً بعيداً عن كل أنواع الهموم والمشاكل والمتاعب أياً كانت صورها . . يحب الفرح وراحة البال ، وينعم بالرضا عن نفسه والرضا عن علاقاته بالآخرين ، ويتمنى دائماً أن تمر حياته سلسة هانئة خالية من كل أسباب الكدر ، وكل الأسباب الأخرى التى تؤدى إلى تعكير صفو هذه الحياة . .

ولكن هيهات أن يحقق أى إنسان يعيش على ظهر الأرض هذا الأمل البسيط . . فكل إنسان محاط بالمشاكل أينما وجد . . ولكن الله سبحانه وتعالى ـ وهو اللطيف الكريم ـ قد ينعم على بعض العباد بالقدرة على تحمل المتاعب والصبر على البلايا . . فيهون عليهم ويخفف عنهم ، بل وقد يجعل النار برداً وسلاماً ، وهو على كل شىء قدير . .

ومع ذلك فالإنسان دائماً يسعى إلى المقربين إليه ليبثهم شكاواه ويستلهمهم النصيحة . . لعله يجد لديهم حلاً يريحه أو خلاصاً يخلصه مما يعانيه . .

وكلما وثق الإنسان فيمن يلجأ إليه ، كلما كان ذلك سبيلاً إلى الراحة والخلاص . . فيتقبل النصيحة بكل رضا واقتناع . . فيهون الأمر ويزول الغم وتختفى الأحزان . .

ونادرون هم من وهبهم الله القدرة على حل مشاكل الناس وارشادهم إلى نور الهداية والراحة ، وتخفيف همومهم وما تنوء به كواهلهم من أثقال .

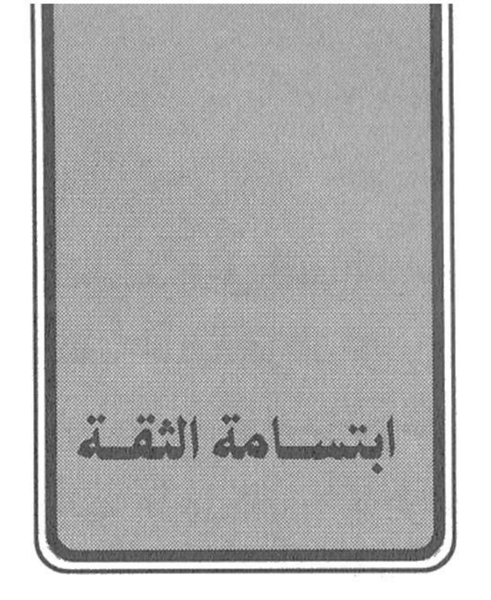
والأستاذ عبد الوهاب مطاوع غنى عن التعريف فى هذا المجال ، ويشهد على ذلك بابه الأسبوعى «بريد الجمعة» فى جريدة الأهرام . . حيث جعل هذا الباب منتجعاً للنفوس التى أضنتها متاعب الحياة . . وملجأ لكل من ينشد اللطف والتخفيف والرحمة إذا ألمت به الهموم أو حاقت به الملمات .

وقد حاز الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ثقة قرائه بشكل لم يسبق له مثيل فى الكتابة الصحفية عن المشاكل الإنسانية والاجتماعية ، سواء فى الصحف المصرية أو صحف العالم العربى بأسره . . وذلك بما تميز به من قدرة فائقة على عرض جوانب «المشكلة» بأسلوب سهل وعميق فى الوقت نفسه ، وعرض «الحل» الذى يقترحه بأسلوب أكثر سهولة وعمقاً . . مستعيناً على هذا الحل بكل الوسائل والأساليب . . ويؤيد حلوله بما يناسبها من آيات القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الفلاسفة والحكماء والشعراء ، بالإضاف إلى التحليل فى ضوء أحدث النظريات فى علم النفس وعلم الاجتماع .

والتوفيق فضل من الله عظيم . .

« الناشر »

أول ديسمبر ١٩٩٣





لك يا سيدى قصتى لعلى أساعد بها أى أم تتعرض لمثل ظروف أمى أو أى طالب يواجه ما واجهته من مشاكل الحياة .

فأنا شاب مصرى نشأت فى أسرة غنية ، وتفتحت للحياة فوجدت نفسى وإخوتى الصغار نتعلم فى المدارس الأجنبية ، ونقيم فى شقة فاخرة على نيل القاهرة الجميل ولنا شقة أخرى فى الإسكندرية . . ونستمتع بكل أطايب الحياة . . ثم تعرضت أسرتى لعدة هزات مالية مدمرة لم أع تفاصيلها وقتها وأنا طفل صغير وإنما أدركت منها فقط أننا فقدنا خلال سنوات قليلة كل شىء . . وحاول أبى إنقاذ ما يمكن إنقاذه ووقف التدهور فلم يستطع . . فمرض من جراء ذلك ومات بعد فترة قصيرة . . ووجدت أمى الشابة وقتها نفسها مسئولة عن « كومة » من الأطفال الصغار بلا عائل ولا سند إلا الله سبحانه وتعالى .

فبدأت تواجه مصيرها بعد انصراف الأقارب والأصدقاء عنها وعنا ، فقررت أن تترك شقة النيل بالرغم من أن إيجارها لم يكن يزيد على عشرين جنيهاً وقتها . ولو احتفظت بها لما قل ثمنها الآن عن ربع مليون جنيه ،

وانتقلت بأسرتها إلى شقة صغيرة فى أحد أحياء الجيزة إيجارها خمسة جنيهات . . وأصبح هدف حياتها هو أن تربى صغارها وتضمن لهم الاستمرار فى التعليم ، وبدأت ببيع ما لديها من مصوغات ذهبية وأجهزة منزلية شيئاً فشيئاً حتى أتت عليها كلها . فأجرت إحدى غرف الشقة الضيقة لتستعين بما يدره عليها إيجارها من جنيهات قليلة على نفقاتنا . ثم بدأت تتعلم الخياطة وتقوم بحياكة الملابس لبعض السيدات من الجيران الطيبين . وكانت قد أخرجتنا من المدارس الأجنبية منذ بداية المحنة فواصلنا التعليم فى المدارس الحكومية . وجعلت الدنيا من حولنا تماماً . ومرت بنا أيام مريرة كثيرة كان هم أمى الأول فيها هو كيف تدبر لنا طعام الغد ومن أين . . لكنها لم تيأس أبداً ولم تفقد إيمانها بربها ولم تستسلم للأحزان . وأعتقد أننا قد ساعدناها أيضاً على ذلك فقد تقبلنا أقدارنا بغير سخط وعشنا أياماً كثيرة لم نكن نجد ما نأكله فيها سوى الخبز فقط ، وفى بعض الأحيان لم نكن نجد سوى الخبز الذى أصابه العفن فتقوم أمى بقليه فى الزيت وتقدمه لنا فنأكله بشهية كأنه دجاج محمر ونحمد الله على ذلك .

وفى غمار هذه الأيام العصيبة علمتنا أمى شيئين مازلت أعمل بهما حتى الآن . . فقد كانت تجمعنا حولها ونحن أطفال صغار ثم تقول لنا : قولوا ورائى « حلال » فنردد وراءها الكلمة كما نفعل مع مدرس الفصل أكثر من مرة فتقول : أرأيتم كيف تفتح هذه الكلمة فم الإنسان وهو ينطق بها إلى آخر مدى ، كذلك يفعل « الحلال » ببيت الإنسان حين

يدخله . . فيفتحه ولو كان رزقاً قليلاً . ثم تقول لنا : قولوا ورائى «حرام» فنردد الكلمة وراءها . فتقول : أرأيتم كيف أن نطق هذه الكلمة يحتاج ممن ينطقها إلى أن يغلق فمه لكى ينطق بها كذلك يفعل « الحرام » ببيت من يدخله فيغلقه ، أما الشيء الآخر الذى علمته لنا فهو ألا نستدين من أحد أبداً مهما كانت ظروفنا ، وأن نكيف حياتنا بما بين أيدينا مهما كان شحيحاً وقليلاً .

ومضت الأيام بنا والتحقت بالجامعة ـ وأصبحت أتردد على كليتى كل يوم . . وأذهب إليها فى كثير من الأحيان ماشياً على قدمى لأنى لا أجد قرش المواصلات وكانت تذكرة الأتوبيس أيامها لا تتكلف غيره . ورغم ذلك فقد خفف التحاقى بالجامعة بعض عناء حياتى الصعبة ، فقد تقدمت بطلب لإعفائى من الرسوم الإضافية التى كانت كما أذكر حوالى ثلاثة جنيهات ، فتم إعفائى منها وتقررت لى إعانة سنوية من الإدارة الاجتماعية بالجامعة . . وكانت مبلغاً قدره تسعة جنيهات كل سنة وليس كل شهر .

ورغم أنه لم يكن يكفينى إلا أنه كان بالنسبة لى ثروة هبطت على من السماء بالإضافة إلى الإعانة الشهرية التى تحصل عليها أمى من الشئون الاجتماعية وهى ثلاثة جنيهات لكنى لم أكن أستطيع أن أشترى الكتب الجامعية ، فكنت أذهب إلى مكتبة الجامعة فى بداية العام الدراسى كل يوم وأقوم بنسخ هذه الكتب وتلخيص بعضها بخط يدى ، كما كنت أعتذر عن قبول دعوة من زملائى إلى تناول الشاى على حسابهم فى بوفيه

الكلية . . لعدم ثقتى فى أنى سأستطيع أن أرد لأحدهم الدعوة فى يوم من الأيام .

ومن حين إلى آخر كانت حياتنا تتخفف من بعض جفافها بشىء قليل من اليسر فقد كنت أعمل أحياناً بقسم الحفلات بأحد الفنادق الكبرى كعامل موسمى يستدعى حين تكون هناك أفراح بالفندق . . ولم تكن تقام كثيراً بالفنادق كما هو الحال الآن ، وكان يوم عملى فى إحدى هذه الحفلات عيداً فى أسرتنا المكافحة فأذهب إلى الفندق فى الموعد المطلوب . . وأخلع القميص والبنطلون فى غرفة العمال ، وأرتدى ملابس الخدمة المملوكة للفندق ، وكانت على أيامى قفطان أزرق وحزاماً من القماش الأبيض وعمامة بيضاء كاللاسة ثم أعمل بحماس فى خدمة المدعوين وتوزيع الشربات حتى ساعة متأخرة . . وأعود لبيتى فى النهاية ومعى جنيه أو جنيهان على الأكثر وأنام قرير العين راضياً .

وفى أحد هذه الأفراح . . شاهدت زميلاً لى بالكلية وعرفت أن الفرح لشقيقه الأكبر . . ورآنى فى ملابس الخدمة وأنا أحمل الصينية وأدور على المدعوين بأكواب الشربات فلم أخجل من وضعى لأنى أعمل عملاً شريفاً . . لكنه هو الذى خجل منى للأسف ورفض أن يرد على تحيتى له . . وتجاهلنى متقززاً طوال الحفل . ومع ذلك فقد مضت الحياة وكان لا بد لها أن تمضى . . وفى هذه الأثناء تزوج شقيقى الأكبر وانفصل عنا وتركنا بلا سؤال ، وأنهيت دراستى الجامعية بلا رسوب فى أى سنة من سنواتها وعملت بمؤسسة صغيرة فى مصر ، ثم انتقلت منها إلى مؤسسة



كبيرة وبدأت أول نسمة رطبة تتسلل إلى صحراء حياتنا الجرداء . وبدأنا نستغنى بمرتبى عن إيجار الغرفة المفروشة فى شقتنا ، وأحسسنا لأول مرة منذ سنوات طويلة أن لنا شقة مستقلة . وواصل إخوتى تعليمهم فى المدارس والجامعات . . إلى أن جاءنى أحد زملائى فى العمل ذات يوم وأبلغنى بوجود فرصة عمل لى بإحدى الدول بغير سعى منى ولا تخطيط . وذهبت معه وقابلنا المسئول عن التعاقد ، ووقعت العقد معه خلال دقائق . . وسافرت إلى عملى الجديد بعد شهر ، وفارقت أمى وإخوتى لأول مرة . . وعملت بمؤسسة كبيرة يعمل بها مائتا موظف وعامل كان ترتيبى بحكم الأقدمية فى الصف الأخير منهم ، وأقبلت على عملى بحماس وإخلاص . . وكان عملى المتعلق بالشئون المالية يتطلب الأمانة التامة ، فتعرضت فيه لإغراءات كبيرة ومواقف كثيرة لا داعى لسردها لكن يكفى أن أقول لك : إنها كانت تحثنى حثاً على خيانة الأمانة والاستفادة بمال كثير يتعذر على أحد كشفه ، فلم أستجب والحمد لله لأى إغراء ولا لأى محاولة لأنى كنت محصناً بكلمات أمى القديمة عن الحرام الذى يغلق الأفواه والبيوت والحلال الذى يفتحها وأردت أن يكون كل ما أرسله لأمى من نقودى مالاً حلالاً كما أطعمتنى هى من مال حلال وأنا صغير .

ومضى عام وأنا فى هذا العمل ثم فوجئت بصاحبه يستدعيني فجأة لمقابلته ، فذهبت إليه وأنا أتساءل عن سبب الاستدعاء . وكنت قد لاحظت أنه لا يأتى إلى هذه المؤسسة إلا مرة واحدة كل شهر ولا يطول

وجوده بها عن دقائق فى كل مرة ، ثم قابلته فذهلت حين وجدته على علم بكل تفاصيل عملى من أصغرها شأناً إلى أكبرها وعلى علم أيضاً بكل ما تعرضت له . وطال اجتماعه بى ثلاث ساعات ثم أصدر بعده عدة قرارات بترقيتى إلى منصب الرجل الثالث بالمؤسسة ومنحى سلطات لا حد لها وتفوق فى بعضها سلطات المدير العام فيما يتعلق بالنواحى المالية، وبمضاعفة أجرى ومنحى بعض الامتيازات الأخرى . . وشكرت الله كثيراً وواصلت عملى بنفس الحماس والإخلاص . .

وبعد عامين من ذلك تخرج أخى الأصغر . فى كليته ، فتحدثت مع صاحب العمل بشأن إلحاقه بإحدى شركاته فاستجاب لطلبى على الفور . وأسرعت باستدعائه وتسلم العمل فى إحدى الشركات وتحسنت أحوال أسرتى كثيراً والحمد لله ، وعدت إلى مصر فاشتريت شقة واسعة وأثثتها بأثاث لائق ونقلت أسرتى إليها . واستقرت الأحوال بنا فاتفقت مع شقيقى على أن نقوم بأداء العمرة معاً ونصحب إليها أمنا المكافحة الصابرة . . ورتبنا كل شىء ودخلنا مع أمى إلى الكعبة المشرفة ونحن بملابس الإحرام فتعمدت أن أرقبها خفية لأرى تأثير هذه اللحظة عليها فإذا بها تبتسم وهى تنظر للكعبة التى تراها لأول مرة ابتسامة فيها خشوع لله وشكر له . . فيها أيضاً ثقة واطمئنان عجيبان كأنها كانت واثقة تماماً من أن هذه الزيارة سوف تتم . . وتعرف الموعد الذى ستتم فيه على وجه التحديد . . ! وجاش صدرى بانفعالات عديدة فانهمرت دموعى التى تجمدت فى عينى منذ سنوات الدراسة لأول مرة ولم أستطع كبحها فكانت

مزيجاً من دموع الفرح والخشوع والشكر لله رب العالمين . واحتفلنا بأمى فى هذه البقعة الطاهرة وقبلنا يديها وأحسسنا كأن الله قد توج كفاحها بهذا المشهد المؤثر . . وانتهت قصتنا عند هذا الحد يا سيدى ولى بعد ذلك رجاء عندك هو أن تطرح هذا الاقتراح وتدعو المختصين لتيسير تنفيذه على الراغبين . إن مبلغ الجنيهات التسعة التى كنت أتقاضاها كل سنة وأنا طالب بالجامعة لم تكن تكفينى وهناك طلبة كثيرون يواجهون ظروفى السابقة فلماذا لا يكون هناك نظام يتيح لكل قادر يرغب فى ذلك . أن يختار عن طريق الكلية طالباً أو أكثر ويكتب باسمه شيكاً أو شيكات بمبلغ سنوى أو شهرى ويتركه للكلية فتصرفه للطالب المحتاج ويصبح هذا الشخص القادر مسئولاً عن هذا الطالب طوال دراسته وتبلغه الكلية بنتائجه الدراسية كل سنة إلى أن يتخرج . إن ذلك لو حدث فسوف يخفف متاعب كثيرة يواجهها بعض الطلبة ويحفظ لهم كرامتهم . . ويسعد كثيرين من القادرين العاملين فى مصر وفى خارجها . . ويضاعف لهم من أرزاقهم بما يزكون به عن أموالهم عن هذا الطريق الشريف . . فلماذا لا نبحث هذه الفكرة وننفذها عن هذا الطريق الشريف . . ولماذا لاننفذها عن طريق الجامعات مباشرة ، هذا ما أردت أن أقوله لك وأشكرك على حسن الاستماع والسلام عليكم ورحمة الله .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

مما يخفف على المكافحين من أمثالك بعض عناء الطريق هو أننا نؤمن مع الكاتب الإنجليزى الثائر «توماس بين» أنه كلما ازداد عنفوان الكفاح

. . ازداد مجد النصر وأن ما نحصل عليه بثمن رخيص فإننا ننظر إليه عادة دون اهتمام كبير . أما ما نحصل عليه بالثمن الغالى فهو وحده الذى يستحق الاحتفال والتكريم .

ولا شك أن هذا كان إحساسك وأنت ترقب أمك العظيمة وهى تبتسم ابتسامة الثقة والنصر والشكر وأنتم جميعاً فى رحاب الكعبة المشرفة بعد رحلة العناء الطويلة . ولا شك أيضاً أن رضاءك عن نفسك وعما حققت فى حياتك كان وما زال مضاعفاً لأنك لم تحصل على شىء منه بثمن رخيص ، وإنما بالكفاح والحرمان والصبر على المكاره والتزام القيم إلى أن أذن الله لكم جميعاً بكشف الغمة وهيأ لكم طريق الخلاص منها . . فى لحظة كلحظة التنوير التى أمر فيها عبده ونبيه أيوب عليه السلام أن يضرب الأرض بِرِجْلِهِ ففعل فنبع له نبعان شرب من أحدهما واغتسل من الآخر فذهب بلاؤه بأمر ربه جزاءً لصبره واحتسابه قائلاً له : «أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » .

وهكذا يقول ربك حين يشاء للصابرين على البلاء والمكافحين بشرف وصبر وتعفف عن الدنايا والآثام لإسعاد أنفسهم ومن يعولون ولإعلاء القيم السامية فى الحياة . وهكذا تصحح الحياة تدريجياً بعض أخطائها . . وتيسر لها النفوس الشريفة طريق التصحيح .

ومن شرف النفس أن تأبى ما أبته أمكم لكم من أن تطعموا من حرام ، ومن شرفها أيضاً أن يرقى الإنسان إلى فهم حقيقة الحلال والحرام بمثل هذا التصوير الرمزى العجيب الذى صورته لكم أمكم فى

طفولتكم . وهو بالمناسبة ابتكار جديد يستحق أن يسجل لها فى دراسات العلاقة بين الكلمات ومدلولاتها ورنينها الصوتى . . وسبحان من يودع قلوب الأمهات الطيبات مثل هذه الحكمة الفطرية التى تختزل أحياناً فى كلمات موحية مختصرة ما قد يحتاج أحياناً إلى إسهاب طويل لشرحه والتدليل عليه .

ولعل تجربتك فى العمل وفى الحياة قد أكدت لك بعد نظرها . . وصدق القيم الدينية والخلقية التى تنفر من الحرام وإن كان مغرياً وترغب فى الحلال وإن كان شحيحاً وهو ما تؤكده كل يوم تجارب الحياة المتكررة ومع ذلك فلا يتعلم البعض الدرس إلا بعد فوات الأوان . . وبعد أن تتوالى كوارث الحياة عليهم ويسقط اعتبارهم ، ويكتشفوا ـ غالباً ـ انهم قد حققوا لأنفسهم كل شىء فى الحياة إلا راحة القلب والضمير وسلام النفس واحترام الآخرين والاستمتاع الحقيقى بما كسبوا وأحرزوا .

ونبع الحرام متاح للجميع دائماً يا صديقى ويستطيع أن يرده كل من يريد . . لكن ليس من حق من يقبله ويرتوى منه أن يتساءل بعد عن أسباب افتقاده للستر والطمأنينة ولكل شىء جميل وصادق فى حياته وحياة أسرته . . حتى ولو مد الله له فى حبال الصبر وطال نجاحه ونما ثراؤه . ففى الحديث الشريف « **إذا غضب الله على عبد رزقه من حرام وإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه** » ! والبعض يعميهم بالفعل ما يرون أحياناً من اطراد النجاح والثراء رغم المنابع الحرام لهم وينسون أن عظم العقاب من عظم الجريمة !

وما جرى معك فى عملك تأكيد جديد لكل ذلك . . وإعلان متكرر لما يؤمن به الصادقون من أنه قد يسبق المنحرفون فى بعض مراحل السباق، لكن نهاية الشوط غالباً للأمناء والصالحين من أمثالك . فاهنأ بما حظيت وحققت يا صديقى ولعل زميلك الذى خجل منك ذات يوم وأنت بملابس الخدمة فى فرح شقيقه . . يتذكرك الآن ويعرف كم كان مخطئاً حين تقزز منك وأنت تكافح بشرف لإعالة نفسك وأسرتك ، ولعل شقيقك الأكبر أيضاً يكون قد عاد إلى نفسه وتعلم بالدرس الغالى أنه لا يربح فى النهاية إلا ذوو النخوة والمروءة ومن لا يتخلون عن واجباتهم الأسرية .

أما اقتراحك النبيل بإيجاد نظام يكفل للراغبين التكفل بنفقات بعض الطلبة غير القادرين فهو اقتراح جدير بالدراسة والتنفيذ ، وإن كانت هناك جمعيات ولجان عديدة للزكاة تقوم بشىء من ذلك بطرق مختلفة . كما أن بعض الفضلاء يوجهون مساهماتهم لبنك ناصر الذى يقدم بعض القروض للطلبة خلال مرحلة الدراسة . . ومع كل ذلك فإن ما تقترحه هو شكل آخر لهذه المساعدة يمكن تنفيذه مع الإدارات الاجتماعية بالكليات والمعاهد المختلفة وشكراً لك على رغبتك الصادقة . . وعلى رسالتك التى أتاحت لنا استراحة قصيرة من الهموم استمتعنا خلالها بمتابعة قصتك الجميلة النبيلة هذه . والسلام .



أريد أن أروى لك قصتى وأن أشرك فيها معى أصدقاءك المهمومين وأبدأ بأن أقول لك إنى فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرى نشأت فى أسرة مصرية عادية لا تملك إلا الستر والرضا بأقدارها ، وقد أنهيت دراستى منذ ثلاث سنوات ولم يكن بين أفراد أسرتى من يستطيع أن يزكينى للعمل فى شركة كبرى أو صغرى فبدأت أقرأ إعلانات الوظائف فى الصحف اليومية وأتقدم للمسابقات بلا جدوى . . إلى أن نجحت بعد عام من الانتظار فى الحصول على وظيفة بمرتب بسيط بعقد مؤقت فى إحدى الشركات ، وسعدت بالوظيفة وأقبلت على العمل بحماس ، ويوماً بعد يوم بدأت روابط الزمالة تجمع بينى وبين زميل يكبرنى بثلاث سنوات كان موضع احترام الزملاء واهتمام الزميلات لوسامته وأمانته وجديته وتدينه. أما أ نا فقد أعجبنى فيه إلى جانب ذلك أن وسامته هى وسامة الرجولة التى تنطق بها ملامحه وشخصيته القوية وليست وسامة الميوعة ، فانطويت له على احترام عميق ولم تتجاوز أحلامى تجاهه هذه الحدود بعد أن لاحظت تهافت زميلتين عليه وقارنت

بين مؤهلاتهما ومؤهلاتى فأدركت أنى لا أصمد لأى مقارنة معهما ، فقد كانت إحداهما من أسرة كبيرة وتأتى إلى العمل فى سيارتها وترتدى ملابس فاخرة، وكانت الأخرى من أسرة ثرية ويشى حديثها بالثراء والفخامة ، وكنت أنا فتاة بسيطة لا تَعِدُه بمجد ولا بأثاث فاخر ولو تزوجنى لوجد نفسه مسئولاً تقريباً عن كل شىء ما عدا القليل الذى تسمح به ظروفى .

ومضت على زمالتنا عشرة شهور وهو لا يبدى ميلاً لأى من الزميلتين حتى يئست منه إحداهما وخطبت لغيره . . وظلت الأخرى على اهتمامها به .

وذات يوم نظمت شركتنا رحلة لقضاء يوم على شاطىء بحيرة التمساح فى الإسماعيلية . . ولم أفكر فى الاشتراك فيها لعزوفى عن الضجيج وميلى للهدوء ففوجئت به يسألنى عن سبب عدم اشتراكى فى الرحلة . . ودهشت قليلاً وأجبته بأنى لم أفكر فى ذلك فقال لى بثبات وهو يركز عينه علىّ بأنه لن يشترك فيها إلا إذا اشتركت أنا !

ولا أنكر أنى سعدت بذلك وأبلغته أنى سأفعل ، فابتسم فى هدوء . وذهبت إلى الرحلة واستمتعت بيوم جميل ساده التفاهم الصامت بينى وبين زميلى الوسيم .

ولم أستطع أن أقاوم بعدها نفسى التى بدأت تستسلم للآمال . . وبدأ يحدثنى عن نفسه فعرفت أن أباه تاجر مستور يملك محلاً تجارياً فى أحد أحياء القاهرة وأن أمه ربة بيت خريجة أحد المعاهد المتوسطة وأن له

اختين إحداهما كيميائية ومخطوبة لمهندس شاب والأخرى ما زالت طالبة بالجامعة ، وأن أسرته يسودها جو من المودة والتفاهم حيث يشترك الجميع فى مناقشة أمور العائلة بحرية وفسرت بذلك قوة شخصيته وبأنه اعتاد الاعتماد على نفسه منذ الصغر ويعمل فى الأجازات الصيفية بتشجيع من أبيه وأمه .

وحدثته عن أسرتى فعرف أن أبى مدير إدارة بإحدى المصالح الحكومية لا يملك سوى مرتبه وأنه كافح بهذا المرتب ليوفر لنا بصعوبة مطالب الحياة الأساسية وأن لى شقيقين على وشك إنهاء دراستيهما الجامعية . . وأن أمى ربة بيت متعلمة تكرس حياتها لتدبير شئون بيتها بالحيلة والحرمان أحياناً .

وتعاهدنا على الارتباط وصارحنى بأنه لن يستطيع أن يتقدم لخطبتى قبل أن تخطب شقيقته الأخرى بعد شهور خاصة وأن هناك من ينتظر تخرجها ليتقدم لها وقبلت الانتظار لكنى أبلغته أنى سأحيط أمى علماً بكل شيء لأنى لم أعتد أن أخفى عنها شيئاً وشجعنى على ذلك . . وأبلغنى أنه لن يطلب منى الخروج معه وسيكتفى خلال شهور الانتظار باللقاء اليومى بينى وبينه أمام الزملاء إلى أن يتقدم لخطبتى حتى لا يفعل شيئاً يضطر للتخفى به عن أحد أو يسىء إلى سمعتى . . وشكرته على ذلك وأصبح يعتبر نفسه مسئولاً عنى فى العمل وأعتبره أنا كذلك .

وجاءت أجازة الصيف فأبلغنى سعيدًا أن شقيقته الصغرى قد نجحت وأن أحد أقاربه سيطلب يدها قريباً .

وبعد أسابيع أخرى جاءنى مستبشراً ليبلغنى أنه قد تمت قراءة فاتحتها . . وأنه يجد أن من واجبه الآن أن يتعرف بأبى أولاً ثم يعود مع أسرته ليطلب أبوه يدى من أبى وأحسست بوخزة فى صدرى فسرتها بأنها من شدة الفرح . .

وبعد أيام جاء لزيارة أبى وتعرف به وارتاح له أبى كثيراً وتسرب خبر زيارته لأسرتى إلى الزملاء فى الشركة فهنأونا جميعاً ما عدا الزميلة إياها فقد تحرشت بى وتجاوزت عن إساءتها لى صابرة ورفضت أن أكتب شكوى ضدها . . فإذا بها تطلب نقلها من الإدارة وتأتى لى بعد يومين معتذرة ومتمنية لى حظاً سعيداً فشكرتها وتمنيت لها نفس الشىء .

وبعد أيام تكررت آلام الصدر فاستعنت عليها بالمسكنات بلا جدوى ثم شكوت لأمى منها فتحسست موضع الآلام فى صدرى واسترابت فيها وصحبتنى على الفور إلى عيادة طبيبة تقع فى نفس العمارة ففحصتنى باهتمام وكتبت لى بعض الأدوية وألحت على أمى فى ضرورة عرضى بدون إبطاء على طبيب كبير متخصص حددته لها بالاسم فتوجهنا إليه . وطلب الطبيب الكبير أشعات وفحوصاً عديدة وأدرك بفطنته أننا غير قادرين على تكاليفها فأمر بإجرائها فى المعهد المختص بعلاج هذه الحالات تحت إشرافه وعدت للعمل بعد يومين فسألنى زميلى عن سر غيابى فصارحته به فاكتأب وحاول أن يشد من أزرى لكننى كنت قد استسلمت لمشيئة ربى وبدأت أتردد على المعهد فى مواعيد منتظمة وأتلقى علاجاً منهكاً، وبعد أيام لم أعد قادرة على العمل وقدمت

استقالتى لأنى موظفة بعقد وليس من حقى الحصول على أجازة . . وقبلها رئيسى أسفاً وهو يؤكد لشقيقى أنه يرحب بعودتى للعمل فى أى وقت بعد شفائى إن شاء الله . وقام بزيارتى مع زملائى وزميلاتى وأصبحت أقضى كل وقتى فى البيت لا أغادره إلا إلى المعهد أو إلى عيادة الطبيب وأمضى وقتاً طويلاً فى الفراش واستبدل أبى معاشه الذى كان يدخره لزواجى ليوفر لى مطالب العلاج الضرورية . ومن حين لآخر يتصل بى فتاى تليفونياً ويطمئن على صحتى ويسألنى أو يسأل شقيقى عن تطورات الحالة وما يقوله الطبيب ويتمنى لى الشفاء العاجل .

ثم اشتدت الآلام وساءت حالتى كثيراً فأدخلنى الطبيب الكبير المعهد وخضعت لعلاج مكثف وانقطعت عنى أخبار فتاى فلم تعد أمى تهمس لى بأنه قد سأل عنى تليفونياً . . وبدأ الجميع يتجنبون الإشارة إليه ففهمت الحقيقة القاسية ، ولم أستطع رغم آلامى أن ألومه عليها ، فقد تخيلت معارضة أهله له فى الارتباط بفتاة مثلى . . وأدركت أنه غير قادر على إغضاب أهله . . أو الاستمرار فى إحياء أمل موهوم فى قلبى وطالت إقامتى فى المعهد . . ثم قرر الطبيب أن العلاج لم يحقق النتيجة التى رجاها وأنه لم يعد هناك مفر من الجراحة التى حاول بكل جهده أن تكون الخيار الأخير مراعاة لظروفى كفتاة فى سن الزواج ، وطالبنى بأن أكون شجاعة فى تحمل الموقف لأن شجاعتى ستساعدنى على قهر المرض ، ثم سألنى أمام أبى وأمى عن رأيى فى إجراء الجراحة مع ما ستحمله لى من مكروه تكرهه أى فتاة فى مثل سنى وهو استئصال الثديين . . ففكرت فى

الأمر قليلاً ولم يكن هذا المصير بعيداً عن توقعى منذ البداية ثم قلت له : إنى راضية بقضائى وبما أراده الله لى وأتقبل مشيئته بلا اعتراض وأوافق على إجراء الجراحة ولم أبك فى البداية . . لكنى رأيت دموع أبى تتساقط كالمطر. وأمى تسنده ليجلس على المقعد قبل أن يتهاوى وتحاول أن تخفف عنه .

وكانت المرة الأولى التى أراه يبكى فيها وهزنى مرآه منهاراً وهو الرجل الصابر على أنواء الحياة . فانسابت دموعى ساخنة وغادرنا الطبيب وهو يردد أن « هذا » ليس ما اتفقنا عليه وما يريده منى .

وبدأ الإعداد للجراحة ولا أريد إيلامك بالتفاصيل الكثيرة قبل الجراحة وبعدها فالمهم هو أن عناية الله قد رافقتنى وخففت عنى الكثير ونجحت الجراحة بفضل الله ومهارة الأستاذ الكبير الذى أجراها لى وقد قال لى بعدها « يا بنتى لقد أجريت هذه الجراحة لكثيرات غيرك ولم أتردد فى إجرائها لأحد كما ترددت معك لأنى كنت أحس أنى أكاد أقضى بها على آمالك فى الزواج . . لكن لا تنسِ أبداً أن ربنا كبير وفوق كل شىء» . . فقلت له باسمة وشاكرة ودامعة : ونعم بالله يا سيدى . . ونعم بالله والشكر لك فربت على كتفى وانصرف .

وانتهت فترة ما بعد الجراحة فى المعهد وعدت إلى بيتى بعد شهور طويلة ورحلة أطول من الآلام انتهت معها إلى الأبد أحلامى الجميلة فى العش الصغير الذى يجمعنى مع من أحببت . . وقوبلت عند عودتى

للبيت بمظاهرة فرح من الجيران الطيبين وأسرة البواب وكل الأهل والأصدقاء .

وبدأت الصديقات يتوافدن على زيارتى كل يوم ، واكتشفت أنى «غالية» عند كثيرين فالجميع يبتسمون فى وجهى كلما رأونى فى الشرفة أو فى النافذة . . والأطفال يشيرون إلى من الشارع وهم يلعبون سعداء . وأمى تحيطنى بحنانها . . وأبى كذلك وشقيقاى كفا تماماً عن مشاكستى كما كانا يفعلان أحياناً ونسيا اسمى فلم يعودا يناديانى سـوى «ييا جميل» و « يا قمر » و « يا أمير » ياللى طول عمرك مستحملنا وعمرك ما زعلتنا ولا زعلت حد! وأنا مندهشة وسعيدة فى نفس الوقت بكل هذه المشاعر.

وفى أصيل كل يوم أجلس فى الشرفة أسمع الموسيقى . . وأقرأ فى كتاب وأتفرج على ما يجرى فى الشارع . . وأسرح إذا رأيت شاباً وفتاة وأتمنى لهما السعادة وألا تحول بينهما الحوائل « وأتذكره » فأرتاح أحياناً حين أستعيد صورته فى خيالى . . وألومه قليلاً فى أحيان أخرى . . ثم أنظر إلى فستانى المتهدل فوق صدرى الخاوى فيتبخر لومى له فى الحال . . وأفكر قليلاً فى طريقة لمعالجة فساتينى بحيث تخفى قليلاً تهدلها فى منطقة الصدر ثم أجد نفسى أقرر ألا أغير شيئاً وأن أرضى بحياتى كما هى وأشكر ربى أن نجانى مما هو أكبر من ذلك .

وبعد شهر من عودتى للبيت كنت جالسة فى الشرفة حين دق جرس الباب فنهضت لأفتحه . . وفتحته وأنا أتوقع زيارة من إحدى صديقاتى

. . فإذا بى أتوقف مذهولة وأنا « أراه » واقفاً أمامى ومعه رجل كبير السن تشع الطيبة من وجهه وسيدة محترمة المظهر وفتاتان فى سن الشباب والجميع ينظرون إلى باسمين . . وأنا عاجزة عن الكلام حتى قال الرجل الكبير : أنت فلانة ؟ هل تسمحين لنا بالدخول ؟

فتراجعت مرتبكة ودعوتهم للدخول ورحبت بهم وجاء أبى وأمى وأدركا الموقف على الفور فتقدم أبى من الرجل الكبير يرحب به بانفعال شديد وتقدمت أمى ترحب بالسيدة المحترمة وبالفتاتين وبالشاب بحرارة أشد ودخل الجميع الصالون .

وبقيت أنا فى الصالة ذاهلة وبعد قليل جاءت إلى أمى فى انفعال تطلب منى أن أصلح من شأنى بسرعة وأدخل فأشرت لها إلى صدرى متسائلة فقالت لى إنه يعرف كل شىء وأسرته كذلك ويعرف بالجراحة وما تم، وأسرعت للمطبخ تعد شراباً للضيوف فنظرت لوجهى فى مرآة الصالة ورتبت شعرى سريعاً ودخلت إلى الصالون فأبلغنى أبى والفرحة تتقافز فى وجهه أن « الوالد الكريم » قد خطبنى لابنه فلان ، فتولانى الخجل وحاولت أن أتكلم فلم أنطق سوى بكلمة « لكن » فقاطعنى والده فى رفق وهو يقول : « لا تقولى شيئاً فنحن نعرف كل شىء والصحة والمرض من عند الله وأنا رجل مؤمن بالله وأب لفتاتين فى مثل سنك وما حدث لك قد يحدث لأى منهما . . فلا تتحدثى فى هذا الموضوع وثقى فى الله دائماً . ولم أدر بنفسى إلا وأمه تجذبنى إليها لتقبلنى وتهنئنى وشقيقتاه كذلك . . أما « هو » فقد ظل مطأطأ الرأس محرجاً حتى أمرته

أمه أن يبارك لخطيبته ويجلس بجوارها فجلس إلى جوارى ومد يده يصافحنى وهو يقول لى بصوت خافت : أرجو أن تسامحينى على تأخرى فى الحضور ، فلم أتمالك دمعة تسللت من عينى وأنا أجيبه هامسة المهم أنك قد جئت وهذا يسعدنى ، وقرأ أبى الفاتحة مع أبيه وأمضت الأسرة معنا جلسة طويلة أحسست بعدها أن شهور المعاناة الطويلة قد تبخرت كلها فى الهواء وتمت الخطبة بعد هذه الجلسة السعيدة بأسبوعين وأنا الآن أستعد لعقد قرانى ولزفافى على من أحب ومن اختارنى رغم كل تلك الظروف بعد ثلاثة شهور . فما رأيك يا سيدى فى قصتى وهل تستحق أن يقرأها أصدقاؤك المهمومون وأن يجدوا فيها بعض ما يبث الأمل فى نفوسهم؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة الجميلة أقول :

كلاكما يستحق الآخر عن جدارة ويحق له أن يفخر به ويسعد معه فأنت تستحقينه بروحك الوادعة الراضية بكل ما تحمله إليها الأقدار ولا بد أن تنعكس هذه الروح الطيبة الآسرة على صاحبتها جمالاً وصفاء ونقاء وحسن معاشرة لرفيق حياتها ولكل البشر من حولها .

وهو يستحق بنفس الدرجة برجولته وشهامته وأمانته ووفائه وترفعه فوق الصغائر فكأنما قد خلق كل منكما للآخر ، وظل يبحث عنه إلى أن اهتدى له وسكن إليه تماماً كما فى الأسطورة الإغريقية القديمة التى زعمت أن البشر فى بدء الخليقة كانوا كائناً واحداً يضم الذكر والأنثى معاً

ثم غضبت عليه الآلهة فقسمته نصفين رجلاً وامرأة وحكمت على كل منهما بأن يبحث عن نصفه الصحيح إلى أن يجده ويلتحم به فيعود إنساناً سعيداً كاملاً كما كان ، وقضت على التعساء من البشر بأن يخطئوا الطريق إلى أنصافهم الصحيحة ويلتحموا بالأنصاف الخاطئة التى لم تخلق إلا لهم فيشقوا بها .

ولا شك أن كليكما قد اهتدى إلى نصفه الصحيح وسوف يسعد به ومعه حتى النهاية بإذن الله .

وجنة الأرض يا آنستى هى راحة النفس والضمير واطمئنان القلب .. وهى واحة عزيزة المنال لا يدخلها إلا من تطهر قلبه من الأحقاد والسخط والدنايا وكراهية الآخرين والحياة ، ومن شهوة الرغبة فى إيذاء الغير و إيلامهم والانتقام منهم واغتصاب حقوقهم .. ولا يقترب منها إلا من يؤمن بخيرية الحياة ويرعى حدود ربه ويتقبل كل أنواء الحياة ويتعلق دائماً بالأمل فى رحمة الله ويدعو ربه دائماً أن يكون ما قد ناله مما يكره مقدمة لما يحب ويرجو ، وأن تكون أحزان الحياة عابرة وسرورها مقيماً وان يعوضه ربه عما أصابه من ضر خيراً أعم وفضلاً أبقى .

ولا شك أنك قد ملكت أحد مفاتيح هذه الواحة الآمنة حين تقبلت بشجاعة وبنفس صابرة راضية كل ما جرت به المقادير وأعفيت الجميع من اللوم على ما نالك من آلام واستمسكت بالثقة فى الله والأمل فى رحمته فلم تلبث أن تكشفت لك نتائجه الخيرة بعد حين .

إن رسالتك هذه ليست جديرة فقط بأن يقرأها الأصدقاء ويستمتعوا بمعانيها السامية بل وبأن يتفكروا فيها طويلاً وأن يتذكروها كلما ضاقت حولهم حلقات الهموم وتصوروا ضيقاً ويأساً أنه لا مخرج لهم من سجن الأحزان .

فشكراً لك عليها . . ولتكن سعادتكَ حقيقية ودائمة كما كانت جروحك أيضاً حقيقية وغائرة وليكلل الله رحلتك فى الحياة بالسعادة والأمان والسلام حتى النهاية إن شاء الله .



لست أستطيع للأسف أن أتذكر تفاصيل كثيرة عن طفولتى . . فكل ما بقى منها هو أنى كنت الأخت الصغرى لشقيقين يكبراننى بسنوات قليلة وأن والدى كان يعمل بوظيفة صغيرة بالسكة الحديد وكنا نعيش فى أحد الأحياء الشعبية حياة صعبة ، إذ أنه إلى جانب ضآلة مرتب أبى فقد كان مبتلى بشرب الخمر ولا يعود للبيت إلا ونحن نيام فنصحوا كل ليلة على صوت الشجار بينه وبين أمى ويختتمه غالباً بضربها أمامنا وأحياناً بضربنا نحن أيضاً معها ، والتنكيد علينا قبل أن نعود للنوم ثم نصحوا فى الصباح فلا نجده .

وبطبيعة الأطفال ننسى الأسى سريعاً فقد كنا ننسى ما حدث خلال الليل ونشارك أطفال الجيران البسطاء لعبهم ولهوهم . ومضت الأيام هكذا إلى أن جاءت ليلة انتظرنا عودة أبى فلم يعد فسهرنا طويلاً ننتظر عودته كأنما تعذر علينا النوم بدون جرعة النكد الليلية ، ثم غلبنا الإجهاد ونمنا . . وصحونا فوجدنا أمى ترتدى ملابسها وتستعد للخروج للبحث عن أبى ، وغابت عنا طوال النهار ثم عادت وحيدة مجهدة فى المساء .

وظلت أياماً عديدة تخرج فى الصباح للبحث عن أبى والسؤال عنه فى عمله وفى كل الأماكن التى يتردد عليها ثم تعود منهوكة القوى يائسة . ولست أذكر كم من الزمن ظلت أمى تبحث عن أبى ولا كم كان عمرى وقتها لكن فترة البحث لم تكن على أية حال طويلة ، فلقد وجدت أمى نفسها مسئولة عن إطعامنا فيئست سريعاً وخرجت تبحث عن قوتنا الضرورى . وانتهى بها المطاف إلى العمل فى تنظيف شقق الأجانب بحى الزمالك ، واستمرت فى هذا العمل سنوات وكنا نحن الأبناء الثلاثة تلاميذ بالمدرسة الابتدائية بالحى الشعبى ، وكان شقيقى الأكبر دائم الشجار والهروب من المدرسة وكثير المشاكل مع الجيران بينما كان أخى الأصغر منه هادئاً وميالاً للصمت والشرود ومتخلفاً دراسياً ، وذات يوم عاد شقيقى الأكبر من المدرسة وحيداً بغير شقيقه فتصورنا أنه مشغول باللعب مع أطفال الجيران أو أنه اختفى لفترة لكى يستدر عطفنا واهتمامنا لكن غيابه طال . . ثم استمر . . ثم لم نره بعدها أبداً ولم نعرف ماذا صنعت به الدنيا بعد ذلك .

وكما خرجت أمى ذات صباح للبحث عن أبى خرجت مرة أخرى للبحث عن أخى وطافت بأقسام الشرطة والمستشفيات وعادت بنفس الخيبة والحسرة . ومرضت أمى حزناً على هذا الإبن الهادىء الذى لم نكن نحس بوجوده وهو بيننا ، ولم يعنها على مقاومة مرضها إلا اضطرارها للخروج مرة أخرى لكسب قوتها وقوت من بقى بين أيديها من أبنائها .

ثم سحبت مشاكل الحياة ذيول النسيان تدريجياً على ذكرى هذا الأخ

الطيب الذى لم أعد أعى جيداً ملامح وجهه كما سحبتها من قبل على ذكرى أبى . . وعلى ملامحه أيضاً ! ولا أعرف كم مضى من الزمن بعدها حين انتظرنا عودة أمى نفسها ذات مساء فلم تعد وإنما جاء إلينا أحد الجيران وأبلغنا بأن أمى لن تعود هذه الليلة . . لأنها ستبيت ليلتها فى قسم الشرطة . فقد هاجمت شرطة الآداب الشقة التى تعمل بها كخادمة وأخذتها مع من أخذت من الشقة .

وأصبحت أنا وشقيقى المشاكس وحيدين تماماً وتكفل الجيران الطيبون بإطعامنا لعدة أسابيع ثم اصطحبنا أحد الجيران إلى إحدى دور الرعاية ليودعنا فيها فرفضت الدار قبولنا وعاد بنا مرة أخرى . وعرفنا بعد ذلك أن أمى قد حكم عليها ظلماً وعدواناً بالسجن لمدة سنة . . وعشنا شهوراً بعدها لا أعرف كيف مضت ولا كيف كان قوتنا يأتينا . فقد ترك أخى المدرسة وأصبح يغيب طوال النهار ومعظم الليل فى رفقة صبية فاسدين ثم يعود أحياناً ومعه بعض النقود ، لكن الحال لم يستمر طويلاً وأودعته الشرطة إحدى دور الأحداث وبقيت أنا بمفردى لدى جارة طيبة وكنت تلميذة فى السنة الرابعة الابتدائية فعشت معها حتى نجح جارنا الذى اصطحبنا من قبل فى إدخالى دار الرعاية . وانتقلت لهذه الدار وداوم الجار الطيب على زيارتى والاطمئنان على لفترة ثم شغلته شواغل الحياة فانقطعت زياراته .

وواصلت تعليمى فى الدار حتى حصلت على الإعدادية ثم توقفت عن الدراسة وبدأت أساعد فى أعمال التفصيل والطهى بالدار حتى

قاربت الثامنة عشرة . . أين كان أخى المشاكس خلال هذه الفترة ؟ لا أعرف . . ماذا فعلت أمى بعد خروجها من السجن ولماذا لم تبحث عنى وتزرنى أو تحاول إخراجى لأعيش معها ؟ لا أعرف . . لقد تكيفت مع الحياة فى الدار ووجدت لى فيها أخوات وصديقات وحيدات مثلى فنشأت هادئة راضية أتقبل كل شىء بلا سخط ولا لوم لأحد فهذا هو قدرى ـ ولا بد أن أقبل به وأشكر ربى عليه . . وأعرف لكل إنسان ساعدنى حقه وأحمل له الحب والعرفان . فخفف ذلك عنى الكثير . . فعشت لا أكره أحداً وأحس بالوفاء لمن تعهدتنى بالتربية والرعاية من مشرفات الدار بل وأحس باطمئنان عجيب للحياة . . والمستقبل لا أعرف له تفسيراً حتى الآن وبثقة فى أن الله لن يتخلى عنى كأنى قد نشأت فى أحضان القصور وتحصنت للمستقبل بكل وسائل الأمان .

وكان الشائع هو أن تبقى الفتيات فى الدار حتى يعملن ويجدن لأنفسهن حياة خارجها . . أو حتى يتزوجن ، وكان بعض الأشخاص الذين يبحثون عن زوجات وراءهن قصة شقاء تجعلهن أكثر صبراً على مشاكل الحياة يتقدمون من حين لآخر لخطبة إحدى فتيات الدار ، فإذا بتاجر أرمل فى الأربعين من عمره وله ابن يدرس بالمرحلة الثانوية يتقدم لخطبتى بعد أن رآنى . فتزوجته وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى وسعدت به كثيراً ووجدت فيه زوجاً طيباً عطوفاً عوضنى بحبه وعطفه عما حرمتنى منه الحياة فى طفولتى وصباى . ولم أنجب منه فرجوته أن أستكمل تعليمى ورحب بذلك وشجعنى عليه . . وبدأت أدرس للحصول على

الثانوية العامة من منازلهم ، ووفقنى الله فى الحصول عليها بمجموع يعد معجزة بالنسبة لطلبة المنازل . وقبلتنى بمجموعى الكبير إحدى كليات الطب : فكدت أطير فرحاً وسعد زوجى بذلك سعادة كبرى ووفر لى كل ما احتجت إليه من مراجع وأدوات خلال دراستى ، وراح يشد من أزرى ويكافئنى على النجاح كل سنة وهو فخور بى ، ووفق الله ابنه الوحيد فى دراسته فتخرج فى كلية الهندسة وتزوج ، وتقدمت أنا فى دراستى حتى بلغت سنة الامتياز فإذا زوجى يمرض مرضاً أقعده فى الفراش ولم يطل به الرقاد ولبت روحه الخيرة نداء ربها وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى بعد أحد عشر عاماً من زواجى منه . وحزنت عليه كثيراً وافتقدت طيبته وعطفه ووجدت بعض سلواى فى ابنه وزوجته الشابة التى أصبحت أختاً وصديقة لى . وبميراثى عن زوجى الراحل افتتحت عيادة صغيرة لى فى حى شعبى وأصبحت أعمل فى المستشفى فى الصباح وفى العيادة فى المساء .

ومضت حياتى مطمئنة . . وكلما اقترب منى أحد الزملاء وفاتحنى برغبته فى الارتباط بى ووجدت من نفسى استعداداً لقبوله صارحته بكل ظروف حياتى السابقة بصراحة فيكون رد فعله هو تركى والاعتذار لى عن عدم استكمال المشوار بأى عذر واهٍ ، وتكررت القصة معى أكثر من مرة وكنتُ أعرف بالطبع السبب الحقيقى وراء فرار الجميع منى ، فصرفت نفسى عن فكرة الارتباط واكتفيت بذكرياتى الجميلة عن زوجى الراحل وبصداقة ابنه وزوجته لى وصداقة بعض زميلات الكلية . ثم سمعتهم

يتحدثون في المستشفى ذات يوم عن طبيب أخصائى حاصل على الدكتوراه من الخارج التحق بالعمل حديثاً ، ثم رأيته فى المستشفى بعد فترة فوجدتنى أعرفه فقد كان زميلاً لى بالكلية ويسبقنى فى الدراسة بأربع سنوات وكان دائماً يحاول أن « يتحدث » معى ثم توقف عن محاولاته حين عرف أنى متزوجة فتعجبت لهذه المصادفة الغريبة . وكان طبيعياً أن أرحب به وأن يبدو هو سعيداً بالالتقاء بى مرة أخرى فى عمل واحد بعد كل هذه السنوات، ثم . . لا أطيل عليك فلقد تقاربنا وفاتحنى برغبته فى الارتباط بى فبادرته بسرد كل ظروفى عليه بكل تفاصيلها المؤلمة . . فكان رد فعله المختلف هو أن ازداد تمسكاً بى واحتراماً لى . وحقاً يا سيدى فإذا جاء نصيب الإنسان من السعادة فإنه لا يحول دون وصوله إليه حائل . فلقد تزوجنا وعوضنى الله بزوجى سنوات الترمل والوحدة وذكريات الماضى البعيد وأنجبنا طفلاً عمره الآن خمس سنوات ، وحياتنا تمضى والحمد لله فى حب وسعادة وتفاهم ولقد قررت أن أكتب لك قصتى لتشد بها أزر أصدقائك المهمومين وأنا جالسة بين أسرتى الصغيرة فى مكان يطل على النيل خلال توقفنا ونحن فى الطريق لإحدى المدن الساحلية لقضاء أجازة الصيف. . فلقد وجدت نفسى أنظر إلى وجه زوجى الحبيب المبتهج بإحساس الأجازة بعد عناء العمل ووجه طفلى المحبوب المبتهج بالسفر والرحلة . . وصحبة أبويه ثم إلى منظر النهر الخلاب الذى يسبح فوقه ورد النيل وأحسست بسعادة لا توصف . . ولهج قلبى ولسانى بحمد الله وشكره وبالدعاء له أن يحفظ علىّ

سعادتى . . وأن يفرج كروب كل المهمومين كما فرج كربى وعوضنى عن حرمانى ووحدتى وشقائى . . وما أن استقر بنا المقام فى المدينة الساحلية حتى كتبت لك لأقول بقصتى للمهمومين ـ الذين تضيق بهم الحياة ـ إن فرج الله ليس ببعيد وإن دوام الحال من المحال . ولا بد أن يأتىَ يوم يفرج الله فيه كروب القانطين إن شاء الله .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

« إنما يتقبل الله من المتقين » فليتقبل منك إذن دعاءك لنفسك ولأسرتك ، ورغبتك النبيلة فى مواساة المهمومين بقصتك الفريدة هذه بالرغم مما تحمله من تفاصيل قد يتعمد آخرون نسيانها وكتمانها .

لكن هذا يا سيدتى هو الفارق بين من تسكن المرارة قلبه فتفسد عليه استمتاعه بالحياة حتى ولو أتته ثمارها ، وبين من يخلو قلبه منها وتصفو نفسه للحياة ولا يرى فى ظروفه التى فرضت عليه فى الماضى ما يعيبه أو يسىء إليه .

إنك تقولين : إنك كنت وأنت تواجهين الحياة وحيدة منقطعة الجذور تحسين اطمئناناً عجيباً للحياة والمستقبل كأنما قد نشأت فى أحضان القصور . ولا تجدين فى ظروفك السابقة ما يبرر لك هذا الاطمئنان الغريب ولا تعرفين سره . لكنى أجد سره فى خلو قلبك من الأحقاد والسخط وفى رضائك بكل ما حملته إليك المقادير . . وفى تطلعك الدائم إلى رحمة ربك وعدله ، وفى عرفانك بفضل كل من قدم إليك يداً ،

واستشعارك لقيمة أتفه الأشياء فى حياتك واعتبارها خطوة كبيرة للأمام قياساً على ماضيك التعس . وهذه هى القصور الحقيقية التى يجد الإنسان سعادته فيها إذا أراد أن يعفى نفسه من المعاناة والشرور واتهام الآخرين . إن هناك مثلاً تشيكياً يقول : إذا كانت المرارة فى القلب فليس يجدى السكر فى الفم ! ولقد أنعم الله عليك باستشعار مذاق السكر فى القلب والفم والعينين . . فنظرت حولك فوجدت كل شىء جميل ويدعو للسعادة والابتهاج ، كأنما تشاركين بذلك الشاعر الفيلسوف طاغور رأيه فى « أن الكائنات جميعاً إنما خلقها ابتهاج الله وسروره اللذان لا حد لهما » ، « وفى أن مهمة الحياة هى الإصلاح وتفادى الأخطاء وعلاج الشرور وعلينا أن نتقبل الحياة بنواقصها بنفس راضية حتى نصل إلى الخير » .

لهذا فوجه زوجك مبتهج وسعيد ووجه طفلك يدعو للابتهاج والسعادة ومنظر النيل بالقرب منك لوحة من لوحات الجمال . . حتى ورد النيل الذى يتأذى آخرون من رؤيته عندك رائع وجميل . لأن البهجة والجمال والسعادة إنما تنبع كلها من داخل الإنسان وليس من خارجه . . « وكن جميلاً ترى الوجود جميلاً » كما يقول الشاعر وكن كارها متسخطاً ترى كل ما حولك يبعث على الشكوى والضجر والسأم ، أما كلماتك عن زوجك الأول فإنما تعكس قيم الوفاء والأخلاق والدين . . وأقولها عامداً لأن كتمان الشكر لمن قدم لنا الفضل كفر كما جاء فى مضمون

الحديث الشريف المعروف ، ولأن « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » كما جاء فى الحديث أيضاً .

فإن كنت قد توقفت طويلاً عند شىء آخر فى قصتك . . فهو أمام هذه السهولة المؤلمة التى ينفرط بها عقد بعض الأسر فى قاع المجتمع فيختفى بعض أفرادها فى المجهول ويسقط البعض الآخر فى هاوية الضياع ويواجه البعض الثالث الدنيا كما يواجهها غيرهم من يتامى الحياة الذين لا يغنى وجود الآباء والأمهات حتى ـ لو وجدوا ـ عنهم شيئاً . وبالرغم من أنك قد واجهت كل هذه الظروف المؤلمة فلقد حمتك العناية الإلهية من غوائل الحياة وهيأت لك نجاحاً واستقراراً وسعادة وكان فضل الله عليك عظيماً فحق لك أن يلهج قلبك ولسانك بالشكر والدعاء وحق لنا أن نشكرك على أن رويت لنا قصتك ليجد فيها بعض المهمومين عزاءهم وسلواهم . . » فعسى أن تحمل لهم هذه الرسالة . . وعسى أن تقرأها صاحبة قصة « الأرض الخراب » لتعرف مرة أخرى أن ذكريات الطفولة المريرة ليست مبرراً لإيذاء الآخرين والحقد عليهم وأن تحاول أن تكفر جرائمها فى تخريب النفوس والبيوت واتهام الزوجات المحصنات بإصلاح ما أفسدت . . وإبراء ذمتها وضميرها مما فعلت بالاعتراف للأزواج الذين خدعتهم بما ظلمت به زوجاتهم . . لعل الله يغفر لها . . ويهيىء لها من أمرها رشدا وشكراً .





حصلت على الثانوية العامة ولم أعمل . . فتقدم لخطبتى شاب عن طريق أحد المعارف فوجدته لطيفاً رقيقاً لكنى لاحظت فى عينيه نظرة حزن وانكسار غريبة على شاب فى مثل سنه واستسلاماً واضحاً للأقدار فزادتنى هذه النظرة الحزينة تعلقاً به وقبلت الارتباط به . ثم فوجئت به يرفض أن تكون لنا فترة خطبة معقولة لكى يتعرف كل منا على الآخر ويزداد فهماً له ، ويصر على عقد القران والزواج بعد فترة قصيرة وترددت قليلاً فى الموافقة على ذلك لكنى كنت قد انجذبت إليه تماماً فتم الزواج بعد وقت قصير . ولفت نظرى خلال إجراءات الزواج كما لو كان كل من حوله يعرفون شيئاً ويخفونه عنى . . وكما لو كان هو مخدراً يمضى فى طريقه بلا مقاومة ولا ابتهاج فى نفس الوقت .

وتزوجنا وأكدت لى العشرة أنه إنسان طيب هادىء منطو على نفسه ومع الأيام عرفت الشىء الذى أحسست أن الجميع كانوا يعرفونه وهو أنه كان يحب إحدى قريباته حباً طاغياً منذ تفتحت مداركه للحياة وأن تعلقه بها كاد يودى به حين تزوجت غيره ، فأصيب بصدمة عصبية عنيفة ، وبعد بضعة شهور من زواجها ، أشار عليه الأهل بأن يتزوج

ليخرج مما هو فيه وهداهم البعض إلىَّ فجاء يخطبنى وتألمت كثيراً حين عرفت ذلك لكنى كتمت آلامى وقررت بينى وبين نفسى أن أجعله ينساها بحبى له وحرصى عليه وأملت أن ينشغل بمجىء الأبناء ومشاكل الحياة عنها ، وجاء الأبناء واحداً بعد الآخر وأنجبت ثلاثة بلغ أكبرهم الآن الخامسة وأصغرهم الثانية من عمره ، ومضت حياتنا بلا أزمات حادة .

ثم حدث تطور هام منذ بضعة شهور فقد مات فجأة زوج تلك السيدة التى تزوجنا نحن على إثر زواجها منه، لينساها ، بعد زواج قصير لم يدم بينهما سوى عدة سنوات وترك وراءه طفلين صغيرين ؛ وكانت كارثة عائلية التف خلالها الجميع حول الأرملة الشابة الحزينة ومن بينهم زوجى بالطبع ، الذى كان أكثرهم اهتماماً بها . ولاحظت شدة هذا الاهتمام والانشغال بها ، ولفت نظره إليه فنهرنى بشدة بدعوى أنها فى محنة، ومن الواجب أن يقف معها الجميع بكل مشاعرهم ، وتأججت نيران الغيرة فى داخلى وكتمتها وتحاملت على نفسى لكيلا تتصاعد الأزمة، ثم فوجئت به بعد شهور من وفاة زوجها يتقدم إليها عارضاً عليها الزواج فترفضه مرة ثانية !

وبقدر ما حزنت وفجعت فى زوجى الذى فعلت المستحيل لإسعاده وإرضائه بقدر ما سعدت بموقف هذه السيدة التى رفضت أن تهدم بيت زوجة لها أبناء صغار كأبنائها وحملت لها فى قلبى الامتنان والشكر ، ولم أعرف ماذا أفعل ولا كيف أتصرف ، وفى غمار حيرتى هذه انهار زوجى

فجأة وسقط صريعاً للمرض النفسى وتولانى الخوف الشديد وأنا أراه يذوى يوماً بعد يوم ، ولم أقف عاجزة فاصطحبته إلى كبار الأطباء النفسيين فقالوا لى : إنه تعرض لهزة نفسية عنيفة ولا يشفيه منها الدواء وإنما علاج أسبابها ، وعرفت من الأهل أن نفس هذه الهزة النفسية قد حدثت قبل ذلك حين تزوجت غيره منذ عدة سنوات ، واحترت يا سيدى ماذا أفعل لأحمى أطفالى الصغار من التشرد ولأنقذه من الاحتضار البطىء الذى يتسلل إليه أمامى . . وفكرت ثم عقدت العزم على شىء وصممت عليه . وذات مساء خرجت من بيتى إلى بيت تلك السيدة قريبة زوجى وجلست إليها وحدثتها حديث المرأة للمرأة ووجدتها سيدة عاقلة وجميلة ومحتشمة ومريحة فى الكلام والتعامل ، ثم استجمعت شجاعتى وطلبت منها أن تقبل رجائى الحار لها بأن تتزوج من زوجى ! فنظرت إلى مذهولة وفوجئت بأنى أعرف القصة كلها ، وبعد أن تغلبت على دهشتها اعتذرت بشدة عن عدم قبول طلبى فأعدت الرجاء وألححت عليها فيه فتمسكت بالرفض والاعتذار لأنها لا تريد أن تخرب عش أسرة صغيرة كان لها مثله منذ قليل ، ولا تريد لطفليها الصغيرين من ناحية أخرى زوج أم . ثم هدأت خواطرى تجاه زوجى وطمأنتنى إلى انه سيشفى سريعاً مما هو فيه وأحسست من حديثها أنها تحمل له حباً وإعزازاً لكنها لا تريد أن تكون دخيلة على حياتنا وحياة أطفالنا ، وعدت من عندها وقلبى يتعلق بالأمل فى شفائه بالتدريج لكنى يا سيدى لا ألمس أى تحسن فى حالته فهو مازال يذوى وينسحب إلى داخل نفسه ولم

أعد أستطيع أن أراه مستسلماً بهذا الشكل الرهيب لهذا فإنى أرجوك رجاء حاراً أن تكتب لها باسمى واسم أطفالى الثلاثة وتناشدها بأعز ما تملك وهما طفلاها الصغيران أن تقبل الزواج من زوجى المسكين وأن تؤكد لها أنى لا أعترض على ذلك وإنما أوافق عليه بكل مشاعرى وأقسم على ذلك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من زوجى ومن حياتى وحياة أطفالى وأرجو ألا تهمل رسالتى هذه فهل تفعل ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لا يا سيدتى لن أناشدها أن تغير من موقفها رغم تعاطفى معك وإشفاقى عليك مما أكرهتك عليه الظروف القاسية ، فإنى أؤيد تلك الأرملة الكريمة فى موقفها من رفض زوجك وأراه الموقف الصحيح فى هذه الأزمة العصيبة ، ذلك أن ما نحمله من مشاعر للآخرين لا يرتب لنا حقوقاً عليهم إلا إذا كانت هذه المشاعر متبادلة بيننا ، ومن الواضح أن هذه السيدة لم تستجب لمشاعر زوجك العاطفية قبل زواجها وأن حبه لها كان حباً من طرف واحد وإلا لما انصرفت عنه وتزوجت غيره ، ولست أتفق معك فى أنها تحمل له حباً بالمعنى العاطفى لهذه الكلمة وإنما هى فى أغلب الظن تقدر له مشاعره تجاهها وتقدر له سجاياه كإنسان وقريب ولا تبادله حباً بحب ، لهذا فإنى أضيف إلى أسبابها النبيلة لرفض الزواج منه تعففاً عن الإسهام فى تخريب عشك وتمزيق أطفالك الصغار هذا السبب الهام أيضاً .

ولقد أخطأ زوجك فى حقك منذ البداية حين أقام زواجه منك على أطلال حب فاشل لم يشف منه وأراد أن يلتمس فى الزواج منك العزاء والسلوى عنه لأن الزواج هروباً من حال عاطفية أو مشكلة من مشاكل الحياة قبل مواجهتها وحلها يضعف من فرص نجاحه واستمراره ويسقط أسباب الأزمة إلى القاع لتظل كامنة فيه إلى ان تواتيها فرصة ملائمة للارتداد والظهور فتطل برأسها مرة أخرى وتهدد استقرار الحياة وهذا ما حدث حين رحل عن الحياة زوج السيدة التى تمنى زواجها . وكان الأولى به أن يستعين بإرادته على الاقتناع بأنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ويتيح لنفسه فترة نقاهة كافية من أزمته العاطفية قبل أن يرتبط بك ، فالزواج ينبغى أن يطلب لذاته وليس هرباً من مشكلة أو فراراً من مواجهة النفس ومغالبتها ، وليس هناك عاطفة مهما بلغ عمقها لا يستطيع الإنسان بالإرادة وبالفهم الصحيح لحقائق الحياة وبالزمن أن يعين نفسه على الشفاء منها أو أن يردها على الأقل إلى حدودها الآمنة التى لا تعوق استمرار الحياة ولا تهدد اتزانه النفسى والعاطفى ، « ومن ترك شيئاً عاش بدونه » فى النهاية كما قال يوماً جمال الدين الأفغانى مشيراً إلى عزوفه عن الزواج وهناك دائماً يا سيدتى منافذ لتصريف الأحزان . . فى الإندماج فى الحياة الاجتماعية ومساعدة الآخرين ومساعدة النفس على مقاومتها بتجنب ما يذكرها به ، وبالإيمان بالله والثقة فى النفس وفى خيرية الحياة . . وفى استشعار الواجب الإنسانى للمرء تجاه أسرته ، وأيضاً فى التعويض النفسى وأفضل ما يمثله هذا التعويض لزوجك هو أطفاله

الثلاثة وأنت الزوجة المحبة الوفية التى قست عليها الحياة فأوقفتها موقف السائل والمناشد لسيدة أخرى أن تقبل الزواج من زوجها خوفاً عليه وعلى أطفالها مما هو أمر من مكابدة الغيرة .

هناك كل هذه المجالات التى يستطيع زوجك أن يجد فيها ما يعينه على الخروج من أزمته إلى جانب البدء فوراً بعلاج نفسى جاد ومنتظم ، وبشرط أن يستنفر إرادته لمقاومة هذا الانسحاب العصابى من الأزمة بدلاً من مواجهتها والقضاء عليها . لا بد أن يفعل ذلك لأن من لا يعين نفسه على مواجهة مشاكله لا يحق له أن ينتظر عون الآخرين ، ولأنه ليس من صالحه أن يرهن حياته وسعادة أسرته الصغيرة واستقرارها على الوقوف طوال العمر على باب قريبته منشداً مع الشاعر العربى :

فـلا أنا مـردود بمـا جئـت طـالبـا

ولا حبهـا فيمـا يبيـد . . يبيـد !

مع اعتذارى لك . . وأسفى من أجلك . . وأملى فى أن يستعيد زوجك نفسه فى أقرب وقت بإذن الله .



الخط الأحمر !



أثارت شجونى وأحزانى رسالة « نظرة حزن » التى تحكى فيها كاتبتها عن أرملة كان زوجها يحبها قبل أن تتزوج ، ثم أراد أن يتزوجها بعد رحيل زوجها فرفضت فاكتأب وانعزل عن الناس ، وساءت حالته النفسية حتى خشيتْ عليه زوجته من المرض النفسى ، فزارت تلك الأرملة لترجوها أن تترفق بزوجها وتقبل زواجه حتى لا يضيع نهائياً ويفقده أبناؤه، فرفضت السيدة الجميلة العاقلة المريحة مجرد التفكير فى أن تكون سبباً فى هدم عش أسرة صغيرة . وأصرت على موقفها تاركة للأيام علاج جروح ذلك الزوج النفسية . وما أن انتهيت من قراءة هذه الرسالة حتى وجدت نفسى أتأمل موقف هذه الأرملة المحتشمة الكريمة وأقارن بينها . . وبين موقف سيدة أخرى سأروى لك قصتى معها . . وأتعجب . . وأتألم ، فأنا سيدة تزوجت وأنا فى سن السادسة عشرة من رجل كان يريد الزواج من أختى التى تكبرنى بخمس سنوات ، وكان معروفاً بين الأهل منذ الصغر أنهما مخطوبان لبعضهما وينتظران الوقت المناسب للزواج ، ثم حدثت بعض المشاكل المتعلقة بالميراث بين أبى ووالد خطيب أختى فصرفا النظر عن هذا الزواج ووقعت القطيعة بينهما . .

وبعد فترة قصيرة خطبت شقيقتى لآخر وتزوجته ، وبعد عدة سنوات قام بعض الأقارب بإزالة الجفوة بين المتخاصمين . فعادت المياه إلى مجاريها بينهما . . وأراد الأهل أن يؤكدوا عودة الوفاق فعرضوا على أبى أن يتزوجنى ذلك الشاب الذى كان مفروضاً أن يتزوج أختى لولا أن حدثت تلك الخلافات . . وضغط الأهل على أبى فوافق . . وسألتنى أمى عن رأيى فيه ، وكنت فى السادسة عشرة من عمرى فلم أجد مانعاً من قبوله وخلال بضعة شهور تم الزواج وبدأت حياتى الزوجية معه .

ومضت سنوات العمر فأنجبت وسعدت ببعض أيام زواجى معه وشقيت بالكثير منها خاصة من ناحية أهله ، وتوفى أبى وعلاقته بزوجى فى الحضيض لأنه عذبنى كثيراً ، ثم مرضت أمى منذ فترة واشتد بها المرض فبدأت أتردد عليها كل يوم لأرعاها وأتولى خدمتها ـ ورأى زوجى أن نقيم معها فى بيت الأسرة لكى نستريح من التشتت المستمر بين بيتى وبيتها ، فانتقلنا للإقامة معها ، وبدأت الشقيقات والأشقاء المتزوجون الذين تفرقوا فى البلاد يأتون لزيارة أمهم المريضة والإقامة معها بعض الوقت، ومن بينهم بالطبع أختى التى كانت شبه مخطوبة لزوجى . . ولم أر فى البداية شيئاً غريباً فى ذلك فقد مضى أكثر من عشرين سنة على زواجى وما يقرب من ٢٥ سنة على زواج أختى ، وزوجها رجل مثالى فى كل شىء فهو على خلق ووسامة وحساسية ويراعى مشاعر زوجته ويحترمها، لكنى لم ألبث أن لاحظت بعد قليل توثق الروابط بين أختى وزوجى وكثرة الضحك والسهر والأحاديث اللذيذة الطويلة بينهما . .

ولاحظت أن زوجى دائم التعبير عن إعجابه ورضاه عن كل عمل تقوم به أختى مهما كان تافهاً . . وحتى إذا كان لا يرضى هو عنه حين أقوم أنا به . . مع العلم أنى أجمل منها وأكثر طيبة بشهادة الجميع !

كما بدأت ألاحظ أن شقيقتى دائمة الإشادة بزوجى وأهله أمامى وأمامه مع أنى أعرف تماماً أنها لو عاشرتهم لما تحملت المعيشة شهراً واحداً . . لكن البعيد حلو دائماً يا سيدى !

أما أم زوجى فهى لا تقصر هى الأخرى فى الإشادة بجمال شقيقتى وذكائها أمامى . . ولا تكف عن تذكير زوجى بحبه القديم لها . . وتفسر كل كلمة مدح منه فيها بحبه لها وشقيقتى سعيدة بكل ذلك ولا تحس بأى غضاضة فيه ، ولا تراعى مشاعر أختها التى تحبها وتضحى براحتها لرعاية أمها حتى لا تشغلها هى بهذا الواجب لأنها مقيمة فى مدينة أخرى ومشغولة بعملها .

والكارثة أننى لا أريد أن أتكلم فى هذا الأمر بوضوح حتى لا يزيد زوجى من عناده ويشرد أولاده ويعذبنى . . ولو كان الأمر بيدى لتركته راضية لها لكن ذلك مستحيل لآلاف الاعتبارات والموانع وهى تعرف ذلك جيداً . . لكن البعيد مرغوب دائماً يا سيدى . . وأنا أحترق فى كل لحظة ولا أعرف ماذا أفعل . . ولا أستطيع مكابدة هذا العذاب إلى النهاية فبماذا تنصحنى ؟


** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أسوأ ما يفعله الإنسان هو أن يرى شرر النار يقترب من أشيائه الثمينة سريعة الالتهاب ثم يكتفى بمكابدة القلق والخوف من الحريق الوشيك. وأظن أنك تفعلين شيئاً شبيهاً بذلك الآن يا سيدتى . . فأنت لا حيلة لك فعلاً فى الظروف غير الطبيعية التى قاربت بين شقيقتك وزوجك بعد كل تلك السنوات ، لكنك من ناحية أخرى تتخذين موقفاً سلبياً من الشرر المقترب ولا تفعلين شيئاً لإخماده فإذا كانت دوافعك لعدم الحديث بوضوح مع زوجك فى هذا الأمر خوفاً من تماديه فى العناد مفهومه ، فماذا يمنعك من الحديث فيه مع شقيقتك بصراحة وبغير حساسية؟ إنها شقيقتك فى النهاية وأنت تحملين لها مشاعر الحب والأخوة برغم كل شىء ، وهى امرأة وزوجة وتفهم مشاعر المرأة حين تواجه وضعاً شاذاً كهذا الوضع فإن كانت قد نسيت نفسها بعض الشىء فى أحاديثها « اللذيذة » الطويلة مع زوجك وفى السهر والضحك وتبادل الإشادة والمديح بينهما أمامك ، وإذا كانت قد استنامت إلى التلذذ بإعجابه وبمداعبة الأحلام والمشاعر القديمة فلا بد من تنبيهها إلى أنها قد اجتازت الخط الأحمر الذى لا يجوز لزوجة وأم أن تعبره فى علاقتها برجل غريب عنها مهما كانت صلتها العائلية به ، وخاصة إذا كان هذا «الرجل» بالذات هو نفس الشاب القديم الذى كان مقدراً لها أن تتزوجه ثم شاءت الأقدار له أن يتزوج شقيقتها ، ذلك أن هناك خيطاً رفيعاً بين الألفة العائلية المحمودة بينها وبين أى إنسان من أفراد الأسرة وبين

الإفراط فى «الحميمية» مع أحدهم إلى الحد الذى يثير غيرة زوجته وشكوكها ويفسد عليها سلامها وأمانها . . بل إن التحفظ والاعتدال فى تلك الحميمية إذا كانا مطلوبين من الزوجة مع كل الغرباء . . فهما أكثر ضرورة مع من كانت تربطها به علاقة قديمة قبل الزواج سداً لأبواب المتاعب وتجنباً للشكوك والظنون ورعاية للحرمات .

وأنت يا سيدتى من حقك على شقيقتك بهذا التحفظ والاعتدال . . حتى ولو كنت مغالية فى شكوكك . . وحتى لو أدى الأمر إلى جفوة مؤقتة بينكما تستطيعين بحكمتك وبمشاعرك الأخوية الصادقة أن تعالجيها فيما بعد ولأن تتهمك بسوء الظن بها وبالإغراق فى الوهم والشك . . أفضل كثيراً من أن تعجز عن الدفاع عن موقفها إذا تفاقمت الأمور، وظللت ترقبين سريان النار تحت الرماد إلى أن يندلع لهيبها عالياً ، ويتعذر تدارك الأمور بعد انفلاتها . . صارحيها يا سيدتى بكل ذلك ، وترقبى ما سوف تفعل بعدها ولا تتيحى لها فرص استعراض مهاراتها . . وذكائها ومزاياها أمام زوجك ، وحاولى لفت أنظاره بهدوء إلى مزاياك ومهاراتك ومؤهلاتك العديدة ، وازدادى اقتراباً منه لتشعريه بوجودك وبحرصك عليه فإن تمادت فى غيها بعد تحذيرك لها فلا بأس بأن توسعى قليلاً دائرة الضغط عليها للرجوع عما تفعل بإشراك بعض شقيقاتك معك فى عتابها ولومها . . وإن كنت أستبعد أن تحتاجى إلى ذلك إذا كانت مشاعرك العائلية ما زالت سوية . . وإذا كانت الدنيا ما زالت حقاً بخير كما نتمنى ونأمل إن شاء الله . .



أكتب إليك طالباً النصيحة . . وأن يقرأ الآخرون قصتى ويعتبروا بما فيها ويتحابوا ولا يتباغضوا فتتفرق بهم السبل . .

فلقد نشأت لأب من كبار تجار المنسوجات فى مدينة ساحلية وكنت الإبن الأول له بعد شقيقة تكبرنى والأخ الأكبر لشقيقين يصغراننى فى السن ، وقد تزوجت شقيقتى الكبرى من تاجر كبير يمارس نفس تجارة أبى . . أما الشقيقان فلم يكملا تعليمهما وفضلا التجارة على التعليم العالى وعملا مع أبيهما فى تجارته الكبيرة فى حين شققت أنا طريقى إلى الجامعة ونفرت من التجارة التى لم أكن مؤهلاً لها وأكملت دراستى فى كلية الهندسة بتفوق وحصلت على البكالوريوس وفرح أبى بذلك فرحة طاغية فكانت هديته لى عقب تخرجى هى مكتب فى وسط المدينة لأبدأ فيه عملى الهندسى الحر . . وشقة واسعة مؤثثة بكل الكماليات لتكون جاهزة لمن يجمعنى القدر بها فى المستقبل وسيارة جميلة ، وسعدت بكل ذلك وشكرت أبى عليه كثيراً . . واعتبرت نفسى من المحظوظين الذين أنعم الله عليهم بالكثير ، وبدأت حياتى العملية بحماس فاستعنت ببعض زملاء دفعتى ، وبدأنا نعمل معاً بالحب والتعاون والرغبة المشتركة

فى تحقيق النجاح وبدأنا ننفذ عمليات صغيرة وفقنا الله فيها كلها وأنعم على بحب زملائى والعملاء ثم دخلنا فى عملية أكبر فتعاونت فيها مع مكتب لمهندس كبير لحاجتنا إلى خبرته و إمكاناته . وترددت خلال ذلك على مكتبه كثيراً فتعلقت أنظارى فيه بسكرتيرته ولاحظت عليها لباقتها وحسن مظهرها وأدبها وحسن معاملتها للآخرين فوجدتنى أتعلق بها من النظرة الأولى وسبحان من أودع القلوب أسرارها ، ولأنى أومن بأن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين فقد فاتحت زميلى المهندس الكبير مباشرة برغبتى فى الارتباط بسكرتيرته وسألته عن رأيه فيها فشهد لها بحسن الأخلاق . وأكد لى أنها غير مرتبطة بأحد لأنها تعول شقيقتين تتعلمان فى المدارس وأنها تعمل عنده منذ أربع سنوات كانت خلالها مثالاً للأدب والالتزام الخلقى ، وسعدت بهذه الشهادة ولم يفسد على سعادتى تحذير زميل لى من أن أبى ربما لا يوافق على زواجى منها لأنها من أسرة بسيطة ، طمأنته إلى أن أبى الغائب الآن فى الحج رجل يعرف ربه ولا تهمه مثلى سوى الأخلاق والتدين » . . أما الغنى والفقر فمن أعراض الدنيا الزائلة وانصرفت سعيداً إلى أمى وصارحتها بالقصة ففاجأتنى بأنها تعرف والد هذه الفتاة لأنه كان يعمل فى تجارة أبى منذ سنوات طويلة قبل أن يلتحق بالعمل فى إحدى شركات الغزل وأنه توفى تاركاً ثلاث فتيات كبراهن فتاتى التى ما زالت تذكرها وهى طفلة صغيرة . . ثم توفيت الأم بعده بسنوات فتحملت خالتهن مسئولية الفتيات الثلاث إلى أن حصلت فتاتى على دبلوم التجارة وعملت وبدأت تتحمل مسئوليتها فى تعليم شقيقتيها ورعايتهما .

ووجدت أمى راضية عن اختيارى رغم الفارق الاجتماعى والمادى لما أحسسته من تعلقى بها ولأن أباها كان كما قالت لى رجلاً طيباً وصالحاً وشجعتنى على التقدم للفتاة وسؤالها عن رأيها فى الارتباط بى لكى تزورها معى . . وسألت فتاتى فوافقت مرحبة ، وتوجهت مع أمى لزيارتها ولم يبق أمامى إلا عودة أبى من الحج لكى تكتمل سعادتى . . وعاد أبى وفى اليوم التالى لعودته مباشرة لاحظت عليه أنه يعاملنى بجفاء لم أعتده منه من قبل ، كما لاحظت همساً كثيراً يدور بين أمى وأشقائى وينقطع بمجرد ظهورى ، ثم صارحتنى أمى بأن أبى قد هاج هياجاً شديداً حين علم بالأمر ولامها واعتبر مجرد التفكير فى زواجى من ابنة عامل سابق عنده عارا ينبغى محوه وطالبها بإعادتى إلى رشدى وإلا أنزل بى أشد العقاب ! واسودت الدنيا فى وجهى . وركبت سيارتى وانطلقت أهيم على وجهى بلا هدف ، وبعد فترة وجدت نفسى واقفاً تحت العمارة التى يقع بها مكتب زميلى الكبير أترقب نزول فتاتى لأراها عن بعد . . ونزلت ورأيتها وانصرفت وتكرر هذا المشهد الصامت بعد ذلك كل يوم لمدة شهرين وأنا أغالب نفسى حتى لا ألوم أبى أن حرمنى مما أحل الله وشرعه، وذات يوم كنت فى موقفى الصامت هذا ففوجئت بها تودع زملاءها وتتجه إلى سيارتى وتخاطبنى قائلة : أما زلت واقفاً فى مكانك منذ شهرين ؟ فحاولت الاعتذار لها عن عدم الرجوع لزيارتها بعد عودة أبى من الحج بأنه عاد مريضاً فوجدتها تقول لى ببساطة : لا داعى للاعتذار عن تصرف غيرك . . فلقد كنت واثقة من رفضهم لى فكن

واقعياً . . ولا تحزن فازددت ارتباطاً بها ونشأت بيننا قصة حب طاهر نظيف وعشنا أجمل أيامنا ونحن نأمل فى الله أن يهيىء لنا الظروف التى تجمع بيننا دون أن نغضب أبى . واستمر الحال على ذلك حتى قرر زميلى المهندس الكبير إغلاق مكتبه والسفر للخارج . . فرجوتها أن تأتى للعمل معى وألححت عليها حتى قبلت . . والتحقت بمكتبنا الصغير وانتظم العمل لوجودى الدائم بالمكتب بقرب فتاتى ، ثم خرجت ذات مرة للمرور على موقع نقوم بعمل فيه فخطر لأمى أن تمر بمكتبى لزيارتى خلال مرورها فى السوق فرأت فتاتى فيه وسألت عن سبب وجودها وعرفت أنها تعمل معى فطلبت منها أن تتحدث معها فى غرفة مكتبى وانصرفت أمى . وعدت إلى المكتب فلم أجد فتاتى فيه وسألت عنها فقيل لى إنها جمعت أشياءها من المكتب وودعتهم وانصرفت . واستفسرت من أمى عما حدث فلم تقل لى إلا أنه كان حديثاً عادياً لكن الفتاة انفعلت وقالت إنها ستتركنى ليستريح الجميع .

وذهبت إلى بيت فتاتى فرفضت مقابلتى بالرغم من إلحاحى وتأكدت من أن كل شىء قد انتهى فعدت إلى شرودى واكتئابى واستقر الامتعاض فى وجهى وأهملت كل شىء حتى مظهرى . ومضى عام طويل حاولت خلاله نسيانها وخطبت ثلاث تنطبق عليهن المواصفات العائلية المطلوبة فلم تطل خطبتى لأى منهن عن شهر ثم فسختها ثم دخلت فى أحد الأيام محلاً تجارياً واشتريت بعض الأشياء وتوجهت إلى « الكيس » لدفع ثمنها فوجدت نفسى فجأة أمام فتاتى القديمة تجلس وراء الخزينة



وتسمرت أمامها ورفضت أن أتحرك من مكانى إلا وهى معى . ولم تجد بداً من الاستجابة وهى مترددة بين الإحساس بالحرج والفرح لإصرارى عليها . واستأذنت وخرجت معى إلى أحد المحلات العامة وعرفت منها أن أمى قد أكدت لها أن وجودها فى حياتى سيثير على غضب أبى وأنه سيحرمنى من كل ما أنا فيه من نعيم . . وأنى لا أستطيع احتمال الحياة بغير هذه الإمكانات التى اعتدت عليها ، فآثرت أن تتركنى حتى لا تجنى على . وعلمت منها أيضاً أنها قد خطبت خلال هذا العام لأحد أقاربها لكنها لم تستطع الاستمرار لأنها لم تنسنى . واتفقنا على ألا نفترق بعد ذلك أبداً وأعلنتها أنى سأبذل كل ما أملك من جهد لإقناع أبى . . فإن لم يوافق فسوف أتزوجها ولى العذر فيما أفعل بعدما عانيته خلال الفترة الماضية . وحذرتنى من غضب أبى على فلم أغير رأيى . . فطالبتنى إذا اضطررنا للزواج بغير موافقته بأن أعيد إليه كل ما أعطاه لى عند تخرجى لأبدأ من جديد حتى لا أكون قد خالفت إرادته واستعنت على ذلك بما منحنى من إمكانات . . فرفضت هذه الفكرة وأنا أؤكد لها أنى فى النهاية ابنه ولن يسعده أن يعيدنى إلى نقطة البداية من جديد ، وتوجهت لأبى وحدثته مباشرة فى موضوعى لأول مرة فسخر منى بقسوة واتهمنى بالجنون وسألنى ثائراً : أتريد أن تجلب لى العار وتثير طمع العاملين عندى فى أن يتزوج شقيقاك من بناتهم ؟ وطالبنى بنزع هذه الفكرة نهائياً من رأسى وإلا أدخلنى مستشفى الأمراض العقلية !

وسلمت أمرى لله وبدأت أستعد للزواج من فتاتى رغم رفض أبى ،

وحددنا موعد الزفاف وأخبرت أهلى به وأنا لا أنتظر حضور أحد منهم ، واقترب يوم الزفاف ولم يتغير موقف أبى .

وخرجت من المكتب إلى أحد المواقع التى نعمل فيها أنتظر حضور أحد منهم إشفاقاً من إغضاب أبى . واقترب يوم الزواج واشتريت بدلة الفرح ولم يغير أبى موقفه . ثم خرجت من مكتبى قبل يوم الزفاف بثلاثة أيام إلى موقع نعمل فيه وأنا بالقميص والبنطلون كعادتى فى العمل وعدت منه إلى المكتب فما كدت أركن سيارتى حتى وجدت أحد العاملين مع أبى يقول لى : إن أبى سيسافر الآن إلى القاهرة لعمل هام وسيارته معطلة لهذا فهو يريد السيارة ليسافر بها فأعطيته مفاتيحها وصعدت للمكتب فرأيت على مدخله منظراً غريباً . . فقد وجدت بابه مغلقاً وأمامه تتناثر أوراق ورسوم هندسية وأوراق ممزقة كثيرة أمسكت ببعضها فإذا بها أوراق مكتبى . فحاولت فتح الباب بمفتاحى فلم ينفتح ودفعت الباب أنادى على العاملين معى فجاءنى صوت غريب من الداخل يطالبنى بالانصراف لأن المكتب لم يعد ملكى وأنا ممنوع من دخوله . وكدت أسقط على الأرض وتحاملت على نفسى وركبت سيارة أجرة إلى شقتى التى سأتزوج بها بعد ثلاثة أيام فوجدت على بابها قفلاً كبيراً ومفتاحى لا يفتح وحارساً مقيماً داخلها يطالبنى بالانصراف فى هدوء . وهرولت منها إلى بيت فتاتى . وعرفت أن أبى وشقيقى وزوج شقيقتى قد ذهبوا إلى المكتب وطردوا العاملين به وألقوا أوراقه خارجه ومزقوا بعضها . . ثم خرجوا من المكتب إلى الشقة وغيروا قفل الباب

وحرمونى حتى من الحصول على ملابسى وبدلة الفرح . . وأمضيت ليلتى فى فندق صغير . . وبت ليلتى راقداً فوق السرير بالقميص والبنطلون لا يغمض لى جفن وأنا محموم من الألم والقهر وأهذى وأسأل نفسى إلى هذا الحد يا أبى . . وإلى هذا الحد يا شقيقىّ الحبيبين . . وتمزقون أوراق العمل وبها حقوق أناس ومصالحهم . . وأين الكلمة الطيبة يا شقيقى التى تخفف من غضب أبى بدلاً من المشاركة بهذا الحماس والنشاط فى خراب بيت شقيقكما الأكبر . . إلى هذا الحد لا حول ولا قوة إلا بالله . . ثم تسيل دموعى بلا توقف وحتى الصباح .

ونهضت من الفراش مريضاً وتوجهت إلى البنك مباشرة وسحبت ما بقى لى فيه من نقود . . وسددت مرتبات العاملين معى وأعدت «مقدمات» الأجر التى حصلت عليها من بعض الزبائن لأعمال جديدة لن أستطيع الوفاء بها . . ولم يتبق معى سوى مائة جنيه فقط ، دفعتها للمأذون الذى عقد قرانى على زوجتى وأنا بنفس القميص والبنطلون اللذين لم يعد عندى غيرهما من الملابس . وأقمت مع زوجتى وشقيقتيها فى بيتهن البسيط لكنه دافىء بالحب والتراحم بين ذوى القربى .

وبدأت أفكر فيما أفعل لأكسب رزقى وأعول زوجتى التى رفضها أهلى لفقرها وبساطة أهلها فتزوجتنى هى فقيراً وبلا أهل نهائياً وسبحان مغير الأحوال .

وخلال بحثى عن عمل جديد رأيت « تركتى » توزع على « ورثتى » أمام عينى . فرأيت شقتى التى كنت أستعد للزواج بها يفوز بها شقيقى

الذى يلينى فى السن ، ورأيت سيارتى يفوز بها شقيقى الأصغر ، ورأيت مكتبى يستولى عليه زوج شقيقتى التاجر الكبير ويحوله إلى مكتب للاستيراد والتصدير ليوسع تجارته ونشاطه . ويضع عليه لافتة باسمه ! وقد قاطعنى أبى وشقيقاى وزوج شقيقتى . . ونسوا تماماً وجودى فى الحياة فلم يعد لى أهل سوى بعض الأصدقاء وأسرة زوجتى البسيطة . وراقبت كل ذلك فى صبر وصمت وأنا ضيف فى بيت زوجتى وشقيقتيها .

ومضى شهران على إقامتى معهن . . ثم وفقنى الله للحصول على عمل بمرتب كبير فى شركة للاستثمار والتعمير فأجرت شقة مفروشة وانتقلت إليها مع زوجتى . . وبعد عام واحد كافأنا ربك والذى لا ينسى أحداً على صبرنا وتحملنا للأذى فجاءنى عقد للعمل فى إحدى الدول العربية وسافرنا إليها وعملت هناك خمس سنوات متصلة بلا أجازة واحدة وفتح الله لى أبواب الرزق فيها بسخاء فانهال على العمل الإضافى فى التصاميم الهندسية دون سعى منى وبأجور لا تفسير لها عندى سوى أن الله أراد أن يعوضنى بها عما خسرت . . وأنجبت طفلاً فسميته باسم أبى رغم مقاطعته لى وأيدتنى زوجتى فى تسميته باسمه . ثم أنجبت طفلة فاخترنا لها معاً اسم أمى ، ثم وجدت بعد خمس سنوات من سفرى أن ما تحقق لى من مدخرات خلالها لا يتحقق لغيرى فى أقل من عشر سنوات فقررنا العودة لبلادنا .

وكنت خلال اغترابى قد عرفت أن أبى قد مرض منذ فترة مرضاً

شديداً أقعده عن الحركة . . وأن إخوتى يتخبطون في إدارة التجارة وحدهم . . كما علمت أيضاً أن زوج شقيقتى قد تورط فى صفقة استيراد مشبوهة ودخل السجن لفترة فكنت أرسل إلى شقيقتى مصروفها وأولادها الأربعة كل شهر خلال هذه المحنة . لتعثر تجارة أبى على يدى ولديه . . وبعد عودتى قررت استئناف عملى وبحثت عن شقة . . فإذا بى أجد شقة فى نفس العمارة التى كان بها مكتبى القديم فاشتريتها وأثثتها وأقمت فيها مع أسرتى الصغيرة . واستقر بنا الحال بفضل الله ونجح عملى وأتانى الرزق الوفير . . والحمد لله ورضيت عن حياتى وعملى وأسرتى . . لكن شيئاً واحداً ينغص على هدوئى الآن هو أن تجارة والدى قد أصبحت للأسف مهددة بالإفلاس بسبب نقص السيولة وكثرة الديون . وقد باع شقيقى الشقة التى « ورثها » عنى لتسديد بعض الديون لكن الباقى ما زال كثيراً . وأنا معى الآن من فضل الله ما أستطيع به تسديد الديون وإنقاذ التجارة من الإفلاس ومن عرض المنزل الكبير والمحل للبيع وأفكر جدياً فى القيام بذلك لكن الشيطان يا سيدى يدير رأسى أحياناً فأتساءل بينى وبين نفسى ولماذا لا أشترى المنزل الكبير الذى قضيت فيه أحلى أيام عمرى ويعيش فيه أبى وأمى وشقيقاى وزوجتاهما . وأشترى المحل حين يعرض للبيع بدلاً من أن أسدد عنهم الدين ثم أطرد شقيقى الاثنين من البيت وأبقى على أبى وأمى حتى لا أرتكب معصية ترقى إلى الكفر والعياذ بالله ، وأستغرق فى هذا التفكير فترات طويلة وتستولى على الرغبة فى الانتقام فلا يحد من هذه الأفكار

السوداء عندى سوى زوجتى التى رفضوها منذ تسع سنوات وطردونى من أجلها شر طردة والتى تحثنى الآن على أن أسامح وألا أقابل السيئة بالسيئة وعلى أن أقف بجانبهم لأنها أحبت انساناً طيباً متسامحاً ولا تريد أن تعيش مع إنسان متسلط جبار إذا تحولت إليه، وهكذا حتى توترت علاقتى بها أول مرة . وأصبحت أمضى أكثر أوقاتى خارج البيت لأفكر بهدوء فيما أفعل . . أما زوج شقيقتى فقد تصور أنى عفوت عما فعل بى بعدما جرى له لكن هذا غير صحيح مع أنه يحاول الآن كسب رزقه بشرف، والحق أنه تراودنى أيضاً فكرة الانتقام منه وألا أتركه فى حاله وأن أنغص عليه عيشه بما فعل بى .

وكلما هممت بشىء من ذلك رأيت وجه زوجتى الطيب يحذرنى رغم خصامنا فأرجع عما أفكر فيه والنتيجة أنى فى عذاب مقيم . فلا أنا وقفت بجانب إخوتى فى محنتهم ولا أنا قادر على الانتقام منهم أو من زوج شقيقتى . . ولا أنا أرحت نفسى وأرحت زوجتى ولا أنا زرت أبى وأمى لأطمئن عليهما . . فماذا أفعل ؟ . . ولماذا لا يتصل بى إخوتى ويعتذرون لى عن فعلتهم السوداء فى حقى . . فيرق قلبى وأنسى ما فعلوا وأخرجهم من عثرتهم أو بماذا تنصحنى يا سيدى ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

هناك كلمة عربية قديمة تكاد تلخص فى إيجاز معجز قصتك الغريبة هذه وينبغى أن تتذكرها دائماً وأنت غارق فى أفكارك وحيرتك الآن . . أما الحكمة فتقول : دخل بيتاً ما خرج منه !

وتفسيرها أن ما يخرج من بيت المرء من عمله وفعله وإرادته إنما يعود إليه من حيث لا يدرى ، فإن كان خيراً فلقد عاد إليه الخير ، وإن كان شراً فلقد رجع من حيث خرج .

فماذا تريد لبيتك وأسرتك الصغيرة الآمنة هذه ؟

أتريد لها أن يغزوها ـ لا قدر الله ـ شر لأنك استسلمت لشهوة الانتقام من بعض أهلك ، والانتقام شهوة كباقى الشهوات قد تستولى على المرء وتخرجه عن طبيعته وتنسيه ربه وخلقه ودينه ؟

أم تريد لها أن تعيش آمنة مطمئنة سعيدة ترفرف ملائكة الخير فى سمائها . . وتذب عنها عوادى الأيام .

إن النفس المشغولة بالرغبة فى الانتقام من الآخرين حتى ولو ظلموها نفس مهمومة قلقة أضافت إلى همومها العادية همها بالآخرين . . والنفس المتسامحة التى وكلت إلى خالقها أن يأخذ لها ثأرها من ظالميها . . نفس مطمئنة هادئة واثقة من عدالة ربها .

وأنت يا صديقى فى وضع لا يسمح لك حتى بأن تسعد بثأرك من ظالميك ، لأنهم بضعة منك فإن شمت فيهم فكأنما شمت فى عقاب أصاب كبدك أو صدرك . ولست أطالبك بمكافأة ظالميك على ما فعلوا . . وإنما أطالبك فقط بأن تعتبر بما جرى لهم من جراء ظلمهم مهما كانت دوافعهم إليه وأن تنهض لأداء واجب عائلى يفرضه عليك دينك وخلقك هو حماية اسم أبيك الذى هو اسمك وإنقاذ تجارته من الإفلاس

وبيع ممتلكاته فى المزاد العلنى مادمت قادراً عليه ذلك فأنت ومالك لأبيك . كما لا بد أن تعرف حتى ولو ظلمك وما دام فى حاجة إلى نجدتك وأنت قادر على نجدته وديونه عليك ما زالت كبيرة ومستحقة السداد رغم استرداده لما أعطاك فى نوبة غضب جنونى شاركه أو شجعه عليها شقيقاك وزوج شقيقتك . . فنال كل منهم جزاء ما فعل من محكمة الأيام . ويكفيك نصر ربك لك . . وفضله عليك الذى أعاد إليك أكثر مما فقدت حين عدت من جديد إلى نقطة البداية ولا أحد يطالبك فى النهاية بأن تذرو فى الهواء ما كسبت بالكفاح المضنى والعمل الشاق فى الغربة وفى بلادك . وإنما تطالبك الرحمة والبنوة والأخوة بأن تقيل شقيقيك من عثرتهما بإقراضهما ما يسدد الديون وبالضمانات التى تكفل لك استعادة مالك بعد أن تخرج التجارة من محنتها . . ويكفيك «عزاً» أن جاءت نجدتهما على يديك أنت الذى لم يحفظا له حق الأخوة من قبل وفى الحديث الشريف أنه « **ما ازداد أحد بعفو إلا عزًّا . . فاعفوا يعزكم الله** » .

وأى عز وأى شرف أكثر من أن تكون أنت الذى توهم البعض فى حمأة الغضب الأعمى أنك قد أصبحت عار الأسرة . . فإذا بك من ينقذ شرفها ويحفظ عليها كرامتها وعزها بعد حين !

وأى تكريم من الله سبحانه وتعالى لك تتردد فى قبوله ونيل شرفه . . وتفكر فى إفساده عليك بالرغبة فى الانتقام ! .

يا صديقى إنه شرف لو تعلمون عظيم . . ورد لاعتبارك جاءك يسعى

واستكمال لسعادتك وهنائك . . وقربى تتقرب بها من خالقك . . وتحتمى بها من غوائل ألدنيا . . وتظل بها أسرتك الصغيرة من هجير الحياة وتقلبات الزمن ، فلا تتردد فهذا هو ما تريده فى أعماقك لكنك فقط تنتظر أن تأتيك المبادرة من شقيقيك . . وتنتظر أن يبدآك بالاعتذار. فلماذا لا تتصور أنهما لولا إدراكهما لفداحة ما شاركا فيه لكانا المبادرين بالاعتذار إليك وطلب نجدتك . . وكيف لم تزر أبويك حتى الآن ورعايتك الإنسانية لهما واجبة حتى وإن لم يبرك أبوك فى نوبة الغضب الأسود.

يا صديقى لقد جرى ما جرى . . وآن للقلب الجريح أن ينسى طعنات الآخرين الدامية له . . وإلا لاستحال عليه أن يهنأ بصفو حياته ولولا نعمة النسيان ما صافح أحد أحداً . فزر والديك رعاية لحقهما عليك . . وسوف تكون زيارتك لهما بداية لتشجع شقيقيك على الاعتذار إليك وعودة المياه لمجاريها بينكم إن شاء الله ، واعرضْ بلا تردد ما تريد أن تفعل لإقالتهما من عثرتهما وسوف يتلقيان عرضك النبيل بدموع الندم. وتذكر دائماً قول أبى الدرداء : « إنا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه » فعسى أن تكون من الطائعين إن شاء الله فتطرح هذه الأفكار السوداء جانباً وتستجيب لرأى زوجتك الفاضلة وتكون مثلها تسامحاً وعفواً فـ « المرء مع من أحبَّ » خلقاً وشمائل ورقة وعفة . . إذن كيف ترضى لنفسك ألا تكون معها فى كل ذلك . . وأنت المحب الأمين ؟



أنا فتاة فى الثامنة عشرة من عمرى ، لعلك تتساءل عن المشكلة التى يمكن أن تكتب إليك عنها فتاة فى مثل عمرى ينبغى أن تكون سعيدة فى ظل أبويها . . فإذا كتبت فقد تكتب إليك عن عواطفها أو آمالها فى الحياة . . لكنى لن أكتب لك عن هذه ولا تلك . فقد انفصل أبى وأمى وأنا فى الثامنة من عمرى وتزوجت أمى من آخر وسافرت معه إلى إحدى الدول العربية وتزوج أبى بعد انفصاله عن أمى من سيدة أخرى وأنجب منها طفلتين وحين تزوج أبى للمرة الثانية كنت تلميذة سعيدة بمدرسة أجنبية معروفة فأخرجتنى منها زوجة أبى وألحقتنى بمدرسة حكومية وليتها أخرجتنى من مدرستى وتركتنى أعيش طفولتى كما يعيش كل الأطفال . . لكنها راحت ومنذ طفولتى تتفنن فى تكليفى بكل الأعمال المنزلية الشاقة رغم أن أبى ميسور ويستطيع لو أرادت أن يُحضر من تقوم بها .

وراحت منذ ذلك الحين ترهقنى بكل الأعمال وتوقظنى أحياناً فى الثالثة صباحاً فى عز البرد وتضع أمامى كومة من الملابس لأغسلها بيدى رغم وجود الغسالة الكهربائية وبحجة أن أنتهى من غسيلها قبل موعد



ذهابى للمدرسة ، وتلقى على من أعمال البيت ما لا أستطيع احتماله فأقوم به بصبر وأفرغ منه بعد جهد وأجلس لكى أبدأ مذاكرتى فتجىء بجردل مياه وتلقيه فى أرضية أى غرفة انتهيت من تنظيفها وتأمرنى بإعادة مسحها كما ينبغى لأنها غير نظيفة ! وكلما أرهقنى العمل وأردت أن أختلس بعض لحظات الراحة دخلت الحمام لأحتمى به من مطالبها التى لا تنتهى . . فتجىء بعد دقائق وتدق على الباب حتى تكاد تكسره لكى أخرج وأواصل الأشغال الشاقة . ولقد كنت أستطيع أن أتحمل هذا العذاب لو كان أبى يخفف عنى ما ألاقيه . . أو على الأقل يصبرنى عليه، لكنه يا سيدى قد « تعلم » القسوة منها ويضربنى من أجلها ويعلل عبء الأعمال المنزلية التى تلقيها علىَّ بأن كل فتاة يجب أن تؤديها وتتعلمها . . مع أنهما يبالغان فى تدليل الصغيرتين فى نفس الوقت ولا يكلفانهما بأى عمل ويغدقان عليهما بالمال والملابس الجديدة الغالية . . أما أنا فليس لى سوى الملابس القديمة التى تتخلص منها ابنة أختها وقد ألحقتهما زوجة أبى بنفس المدرسة الأجنبية التى أخرجتنى منها . . ، وكل ذلك وأهل أمى يحاولون ضمى إليهم لأعيش معهم وأبى يرفض وينهرهم ويطردهم من البيت إذا جاءوا ويرفض أن يسمح لى بمقابلتهم ، أما أمى فقد عادت من الخارج عدة مرات وحاولت مقابلتى أو أخذى من أبى فطردها وهددها إذا حاولت أن ترانى مرة أخرى وأصبحت زوجة أبى تصحبنى للمدرسة فى الصباح وتعيدنى فى الظهر حتى لا تحاول أمى مقابلتى فى المدرسة .

وطوال عشر سنوات وأنا أتحمل هذا العذاب صابرة . . وأختلس الدقائق والله ولا أقول الساعات لأنظر فى كتبى المدرسية خطفاً وأستيقظ من نومى أحياناً بعد أن ينام الجميع وأستذكر دروسى كأنى أرتكب جريمة . . ويوفقنى الله العليم بحالى فى النجاح كل سنة ، رغم كل هذه الظروف لكن المشكلة يا سيدى هى أننى الآن فى الثانوية العامة . . والمذاكرة تحتاج إلى تركيز وإلى فترات طويلة متواصلة وأعصاب هادئة لكى أستطيع النجاح بالمجموع الذى يؤهلنى للالتحاق بالجامعة . . وكل ذلك لا يتوافر لى مع الظروف التى أعانى منها . . وقد مضى الآن أكثر من نصف العام الدراسى ولم أستذكر كلمة واحدة من دروسى وأخشى أن تمضى المدة الباقية بنفس النتيجة وأتوسل إليك أن تجد لى حلاً ولو حتى تواسينى بكلمة تشد من أزرى حتى لا أضعف وأتخلص من حياتى إذ لولا إيمانى الشديد بالله لفعلت ذلك منذ زمن طويل . . فما هو الحل يا سيدى ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الحل هو أن تتنبه الضمائر الغافلة إلى ثقل مسئوليتها أمام الله سبحانه وتعالى وتتهيب عقابه . فكل راع مسئول عن رعيته . . وأبوك مسئول عن رعايتك وكفالتك والعدل معك ، وزوجة أبيك مسئولة مسئولية مماثلة لأنك أصبحت وديعة بين يديها منذ وضعتها الأقدار فى موضع أمك . . فإن لم تحرك هذه الأمانة التى تنوء من ثقلها الجبال ضمائر البشر فمن يحركها؟ . . ومن يذكر زوجة أبيك بأن من ظلم يظلم ولو بعد حين ؟ . .

وأن من قهر من لا يستطيع رد ظلمه عليه ضعفاً وقلة حيلة . . جرعته الحياة نفس القهر الذى جرعه لغيره وربما أشد منه . والحياة كما يقولون ديون قد يتأخر سدادها بعض الوقت لكنها دائماً واجبة السداد فى الدنيا وفى الآخرة ، بل ومن ينبه زوجة أبيك إلى أنها بتمييزها لابنتيها عليك إنما تشركهما معها من حيث لا تريد فى سداد فاتورة الحساب هذه على رغمهما لأن الطفل الذى يشعر بتمييز أبويه له عن أخيه ويستطيبه ينشأ غالباً أنانياً مستهتراً مدللاً غير قادر على الاعتماد على نفسه . . ينتظر من الحياة أن تخصه بجوائزها وحده ويتصور أحقيته فى ذلك كما اعتاد أن يفعل فى دائرة أسرته المحدودة فيصطدم باختبارات الحياة القاسية وينهار أمامها ضعفاً أو سخطاً فلماذا تريد زوجة أبيك لطفلتيها هذا المصير ؟

إن الحل يا آنستى هو أن تحتمى زوجة أبيك من شدائد الحياة هى وطفلتاها بالعدل معك والرفق بك ، وأن يكون أبوك أكثر عدلاً بين رعاياه وأكثر « حضوراً » فى الإشراف على إدارة مملكته الصغيرة وأن يراقب معاملة زوجته لك بالعدل والحزم الواجبين وأن يسوى بينك وبين أختيك فى الرعاية والتدليل والمال والملابس وكل شىء ، وأن يستعين بماله على استخدام من يخفف عنك هذه الأعمال المنزلية ، فإن لم يستطع فليقسمها بالعدل بين الجميع . . ولا شك أنك تستطيعين محادثته فى ذلك بما ينبغى من ود وصراحة بين الابنة وأبيها كما تستطيعين أيضاً أن تحاولى رغم كل شىء كسب ود زوجة أبيك ومخاطبة قلب الأم فيها لأنه حتى أقسى

القساة لا تخلو قلوبهم فى معظم الأحيان من بعض جوانب الرحمة التى تحتاج لإظهارها إلى العزف على أوتارها .

كما تستطيعين أيضاً أن توسطى بينك وبين أبيك بعض أقاربه وخاصة من يستريح هو إليهم ولا يحس حرجاً أمامهم إذا حادثوه فى أمرك فإن لم تثمر كل هذه المحاولات ثمرتها المرجوة . . فليستجب أبوك إذن لنداء الرحمة ويسمح بضمك لأمك أو لأهلها . . فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلا مفر من أن تتحملى أقدارك إلى أن تنهى دراستك وتبلغى سن الرشد وتستطيعى تحمل مسئولية قرارك .

فاصبرى يا فتاتى . . وواصلى «تحايلك» على استذكار دروسك التى تجند أسر أخرى لها كل إمكاناتها بل وتغير من نظام حياتها لكى توفر لأبنائها فرصة استذكارها . . وثقى أن الله سوف يعينك على أمرك كما أعانك من قبل وسوف يحقق لك آمالك ويجزيك جزاء الصابرين إن شاء الله .



قرأت رسالة « الأشغال الشاقة » للفتاة ابنة الثامنة عشرة التى تشكو من سوء معاملة زوجة أبيها لها واضطهادها وتكليفها بكل الأعمال الشاقة فى البيت ؛ مما يؤثر على فرصتها فى الدراسة ولست أريد أن أكرر مطالبتك لها بالصبر إلى أن تبدأ حياتها . . أو أن أعيد تذكير زوجة أبيها بعدالة السماء التى تعاقب كل آثم بما فعل . . وإنما أريد أن أروى لكاتبة الرسالة قصة حياتى وأعاهدك ألا أخفى منها ما قد يخجلنى أو حتى ما يتعارض مع وضعى الذى ستعرفه من سياق الرسالة فيما بعد ثم أدعو الفتاة بعد ذلك أن تفهم ما أريد أن أقوله لها .

وأبدأ بأن أقول لك : إنى ولدت بين أبوين مختلفى الطباع الأم ربة بيت لا حول لها ولا قوة والأب رجل أعمال مغامر وله سهراته ودنياه العريضة فتم الطلاق بعد سنة واحدة من مولدى . . وانشغل أبى بدنياه ونسينى تماماً وتزوج . . وبعد قليل تزوجت أمى . . من موظف شاب لم يرحب بأن تنتقل إليه عروسه ومعها وليدها بالطبع . . فكان الحل الذى اتفقت عليه الأسرة هو أن تضمنى خالتى مع أولادها كابن جديد لها مقابل مساعدة مالية بسيطة من خالى ومن خال أمى ، وقبل زوج خالتى

ذلك الوضع . . ونشأت بين أطفال أحسبهم إخوتى وأم أظنها أمى وأب أتصوره أبى . . وظل الوضع على هذا الحال إلى أن كبرت والتحقت بالمدرسة . . ثم تلقيت أول إشارة إلى أن من أعيش فى كنفه ليس أبى حين لاحظ أحد المدرسين أن اسم الأب يختلف عن اسم ولى الأمر الذى يوقع على شهاداتى الدراسية وسألنى عن ذلك فلم أحر جواباً . . ثم سألت إخوتى . . فعرفت الحقيقة . . وكانت هذه هى صدمتى الأولى فى الحياة إذ بدأت أفهم وأنا فى سن صغيرة سر قسوة خالتى وزوجها على وحدى من بين باقى « إخوتى » مع أنى متقدم فى الدراسة منذ عامى الأول ويجىء ترتيبى الأول دائماً فى كل سنة ، فى حين يرسب بعض إخوتى أو ينجحون بصعوبة . . وعرفت أيضاً لماذا يتم تكليفى وحدى بكل الأشغال الشاقة فى البيت . . ولماذا يتحتم على أن أصحوَ فى الفجر فى شتاء الإسكندرية القارس لأحضر الإفطار لزوج خالتى من محل بعيد ، أمشى إليه على قدميَّ فى شتاء الإسكندرية نصف ساعة فى صقيع الصباح ، لأن هذا المحل بالذات يجيد صنع الطعمية !

أما عن متاعب الحياة الأخرى فكثيرة ولا أريد أن أكررها . . لكنى سأقول لك فقط إن عشائى لسنوات عديدة كان قرشاً واحداً أتقاضاه كل ليلة بعد أن تصرخ أمعائى من الجوع فأشترى بنصفه رغيفاً وبالنصف الأخر عسلاً أسود وألتهمه فى لحظات فلا يسد لى جوعاً ، أما الليالى التى بت فيها على الطوى لعقاب حرمنى من قرش المساء أو لأى سبب آخر فلا عدد لها . . وأما ملابسى فمما يشتريه لى خالى أو خال أمى كلما

استطاعا ذلك . وأما مذاكرتى فمعظمها فى الشارع تحت عمود النور كما ترى فى الأفلام المصرية القديمة لأن زوج خالتى حدد لى موعداً لإطفاء لمبة الكهرباء الصغيرة ذات الـ ٢٥ وات فى العاشرة مساء توفيراً للكهرباء وخيرنى إذا أردت الاستذكار بعدها فلأذاكر لأولاده أولاً وإلا فلا مذاكرة . . فكنت أحاول مساعدة أبناء خالتى بقدر جهدى ولا أضن عليهم بمساعدة . . كنت أحاول أيضاً ألا أهمل مذاكرتى وأنا من يعرف أنه لا سند للإنسان فى الحياة إلا تفوقه فكنت أستأذن أحياناً لدخول الحمام ثم أخرج الكتاب من جيبى وأخطف بضع دقائق للمذاكرة . . ولا أنسى يوم أن ضبطنى زوج خالتى سامحه الله مرة وأنا أختلس المذاكرة فى الحمام فكان عقابى علقة قاسية تركت آثارها على جسمى شهوراً .

ورغم ذلك فلقد كانت الحياة تمضى . . بين قسوة دائمة ولمسات عطف متقطعة . . وبين اضطهاد من خالتى وزوجها ، ورحمة وعطف من أبنائهما . . بل وعطف أيضاً من أسرة من جيراننا كانت تقدر لى تفوقى وتحثنى على الصبر والكفاح ، وكانت أسرة مسيحية سيكون لها فى حياتى شأن ستعرفه بعد قليل .

ووصلت إلى الثانوية العامة . . وفى هذه السنة نكبت بوفاة خالى وخال أمى اللذين كانا ينفقان على فأصبحت بلا نصير وأعلن زوج خالتى أنه لم يعد يستطيع أن يتحمل عبئى أكثر من ذلك لأنه أدى الواجب وما هو أكثر منه وأنه يجب أن يتحمل أبى مسئوليتى .

أبى . . وأين هو طوال هذه السنوات وكيف الوصول إليه ، وهو لا يعرف حتى شكلى . .

فأعطانى زوج خالتى رقم تليفونه وطلب منى أن أتصل به وأن أبحث لنفسى عن مأوى جديد لأن أبناءه كبروا وضاق بهم المسكن . . ولم يكن باقياً على امتحان الثانوية العامة سوى ١٥ يوماً . وكانت الشهور السابقة أقسى فترات حياتى من ناحية سوء المعاملة فلم أحصل دروسى خلالها جيداً ، فأسرعت أتصل بالرقم وجاء صوت أبى الذى لا يعرفنى ولم يرنى وقد صرت الآن فى التاسعة عشرة من عمرى . . وأجابنى بحذر وأنكر أنه صاحب الرقم وإنما هو شريك له فى مكتبه التجارى ثم طلب منى أن أزوره ليبحث معى الأمر ، فذهبت إليه وأنا متأكد أنه أبى ولا أعرف لماذا . . ودخلت شقة بمحطة الرمل على الكورنيش فرأيت لأول مرة رجلاً فى الخمسين من عمره يبدو خبيراً بالحياة فبدأنى بأن « أبى » مسافر إلى ليبيا فى عمل وأنه شريكه ثم راح يسألنى عن حياتى . ولم تهتز شعرة فى رأسه حين قلت له إنى بلا مأوى وسأتقدم لامتحان الثانوية العامة بعد ١٥ يوماً ثم أعطانى جنيهاً وطلب منى الاتصال بالرقم بعد أسابيع بعد عودة « أبى » إن شاء الله !

ووجدت نفسى وحيداً فى شوارع الإسكندرية . . لا أعرف أين أذهب ولا أستطيع العودة لبيت خالتى وليس من بين أصدقائى من تسمح له ظروفه باستضافتى فى تلك الفترة .

ولم أجد مكاناً أذهب إليه سوى الشارع الذى تربيت فيه فعدت إليه

ووقفت حزيناً بين بعض أصدقائى وكانت قصتى معروفة بينهم . . فإذا بابن أسرة جيرانى المسيحيين التى حدثتك عنها يستدعينى لمقابلة أبيه فصعدت معه . . ففوجئت به يعرض على أن يستضيفنى فى بيته فترة الاستعداد للامتحان وما بعده .

وجاء عرضه لى هدية من السماء فقبلته شاكراً . . وعشت معهم وواصلت الليل بالنهار فى الاستذكار وتقدمت للامتحان ونجحت بمجموع ٧١ ٪ فقط . . وتقدمت بأوراقى لمكتب التنسيق فرشحت لهندسة أسيوط . . لكنى قررت فجأة أن أتقدم لكلية الشرطة عسى أن تقبلنى فأجد لنفسى مأوى داخل جدرانها وشجعنى جيرانى الطيبون على ذلك . . وفى كل مرة كنت أسافر فيها للقاهرة لإجراء الاختبارات كانوا يعطوننى جنيهاً لأنفق منه على سفرى وعودتى وجئت مرة لأحد الاختبارات فوجدته قد تأجل لليوم التالى فلم أجد وسيلة لقضاء الليلة فى القاهرة سوى المبيت فى عربة ترام العباسية بعد أن شرحت للسائق حكايتى فتركنى أبيت فيها مقسماً لى أنه لو كان فى حجرته موضع لقدم لاستضافنى فيها !

وفوجئت بتفوقى فى كل الاختبارات وقبولى بالكلية . . وأصبحت المعجزة التى تنتظر حلاً من السماء هى الحصول على مبلغ ٦٧ جنيهاً لرسوم السنة الأولى و ٢٥ جنيهاً لرسوم الملابس .

وكان « أبى » الذى أنكر نفسه منى قد كف عن إنكاره لشخصيته واعترف لى بأنه أبى ووعدنى بالمساعدة لكنه تخلى عنى فجأة فى اللحظة

الحرجة ليس عجزاً ولا بخلاً وإنما لأنه كان إنساناً بوهيمياً عبقرياً فى كسب المال وعبقرياً أيضاً فى إنفاقه فى سفه وحين جاء موعد سداد الرسوم لم يكن معه ما يدفعه لى فبدأ أصدقاء المدرسة يساهمون فى جمع المبلغ . . فلم يستطيعوا إلا تدبير مبلغ ٢٥ جنيهاً ، وبقيت العقبة الكبرى وهى مبلغ ٦٧ جنيهاً . وجاء يوم دخول الكلية وأنا لا أجده فأبرقت إلى الكلية معتذراً عن التأخير بدعوى أن أبى يجرى عملية جراحية . . ورحت أنتظر أن يفى أبى بوعده لى ويعطينى المبلغ حتى مضى آخر موعد حدده لى بلا جدوى فيئست تماماً وسلمت أمرى لله . . وبدأت أعيد مبلغ الـ ٢٥ جنيهاً إلى أصدقائى . . فإذا بجيرانى الذين احتضنونى خلال هذه الفترة العصيبة يقدمون لى مبلغ الـ ٦٧ جنيهاً كاملاً لأدفعه للكلية .

وحين بكيت تأثراً مسح الأب الطيب على رأسى وقال لى: إنه ليس إعانة لكنه هدية وسوف تردها لى أو لأولادى حين تصبح رجلاً عظيماً . . وشغلتنى الأم والإبنة والأبناء بالضحك والهزار حتى تخففت من آلامى ودخلت الكلية وأمضيت فترة المستجدين وهى ٤٥ يوماً وأنا فى غاية السعادة لأن لى مأوى وطعاماً وخرجت فى أول أجازة مزهواً بالبدلة الميرى وسافرت إلى الإسكندرية وذهبت إلى بيت خالتى لكى أخفف عن جيرانى الطيبين الذين تحملوا إقامتى معهم كل تلك الفترة ففوجئت بعد الاستقبال الفاتر بزوج خالتى يقول لى فى صرامة إنه لا مكان لى عنده فذهبت إلى بيت أبى . فقابلنى مقابلة عادية ودعانى لتناول كوب من

الشاى . . ثم طلب منى الانصراف لأن زوجته ليست مستعدة لاستضافتى فخرجت إلى الشارع حزيناً . . وذهبت إلى لوكاندة متواضعة بقروش فى الليلة ودخلت إلى غرفة عارية من الأثاث وفى غاية القذارة وخلعت بدلتى وجلست على السرير . وتجمعت فى صدرى فجأة كل أحزانى وآلامى فانفجرت فى بكاء متواصل لم أبك مثله طوال حياتى ورغم كل ما لقيت من عناء . . ورفعت رأسى إلى سقف الحجرة « وخاطبته » بصوت مسموع : زملائى عادوا بالفرحة لأهلهم وقوبلوا بالعناق والقبلات ، وأهلى لم يقابلونى إلا بالإنكار فهل يرضيك هذا . . وأين أذهب ولمن ألجأ . . فهل يرضيك هذا ودموعى تهطل ولا أقول تسقط حتى لم يعد فى عينى دموع . . فإذا بسكينة من عند الله تهبط على فجأة فأقوم فاتوضأ وأصلى ركعتين لله وأنهض من صلاتى وأستلقى على السرير وأروح فى نوم هادىء كأنى عائد من نزهة على شاطىء البحر .

وفى اليوم التالى أقرضتنى ابنة خالتى بضعة جنيهات أخرى تضاف إلى ديونى القديمة التى سأردها عندما أعمل بإذن الله . . وذهبت إلى جيرانى الذين وقفوا معى فى شدتى وجلست بينهم ساعات طويلة وعدت للكلية ومضت شهور الدراسة وتفوقت كعادتى واقتربت أجازة الصيف وكلما اقترب موعدها فرح الطلبة وحزنت أنا . . ووجدت نفسى ذات مرة أمام كبير المعلمين بالكلية وكان رجلاً فاضلاً فتشجعت وطلبت منه طلباً غريباً هو أن تسمح لى الكلية بالبقاء فيها خلال أجازة الصيف ! فاتسعت عيناه من الدهشة وسألنى عن السبب . فرويت له كل ظروفى

ودمعت عيناه تأثراً وهو يستمع إلى ثم قال لى : دع هذا الأمر لى وثق فى رحمة الله .

ثم جاءت الأجازة فأرسلنى بخطاب منه إلى مدير أمن الإسكندرية الذى درس حالتى وتأكد من صدق كل بياناتى فأصدر قراراً لا أظن أنه له سابقة من قبل وهو أن أقيم وأنا طالب فى استراحة ضباط الشرطة بالإسكندرية وأن تُصرف لى وجبة غداء كل يوم فى نادى ضباط الشرطة ، وكتب تقريراً بحالتى للكلية . . وكانت هبة أخرى من هبات السماء لى ، لكنها لم تستمر فى العام التالى بكل أسف إذ نقل مدير الأمن وجاء آخر لا يعرف قصتي فحرمت من تلك الميزة وكنا قد بدأنا كطلبة نتدرب فى أقسام الشرطة . . فطلبت أن يكون تدريبى فى نوبة الليل لأمضى الليالى ساهراً فيها وأنام فى النهار فى كبائن بعض الضباط الذين يعرفون حالى على الشاطىء وهكذا . ورغم ذلك فقد كنت أنجح بدرجة جيد جداً كل سنة . . ولا أتوانى عن مساعدة زملائى بالكلية فى دروسهم . . وعرف عدد منهم قصتى فكان كل منهم يدفع عشرة قروش كل يوم فى جمعية يقبضها أحدهم كل أسبوع ويدسها فى جيبى سراً لأنفق منها فى شئونى . . وإن عشت الدهر كله فلن أنسى فضل هؤلاء الطلبة على كما لن أنسى أن بعضهم قال لى ثائراً إنه حين يتخرج سوف يعيث فى الأرض فساداً انتقاماً مما يفعله جيل الكبار بالأبناء الذين لا حول لهم ولا قوة وكيف رددته إلى صوابه وذكرته بأن فى الناس خيراً كثيراً لكن سوء حظى هو الذى أنشأنى فى أسرة تمزقت خيوطها . . كما لن أنسى فضل الأسرة

الطيبة التى احتضنتنى وكنت أزورها كل أجازة وأمضى مع أبنائها وبناتها كل وقتى وكانت كبراهن أكثرهم حناناً بى ـ فكان طبيعياً أن أميل بقلبى لها وأكتم مشاعرى عنها حتى صارحتنى هى وصارحتها لكنى أكدت لها إنى رغم أنى أتمناها لا أستطيع أبداً إيلام أبيها وأمها وإخوتها بمتاعب الزواج مع اختلاف الدين . . فإن ضمنتِ لى رضا أبويك بغير أى آلام نفسية لهما فإنى سأكون أسعد الناس بها فتفهمت الوضع بتعقل تام وبلا مرارة واتفقنا على التضحية بحبنا من أجل أسرتها ولم تلبث مشاعرها بعد شهور أن اتجهت إلى شاب آخر من دينها وارتبطا عاطفياً وأعلنت خطبتهما وغالبت آلامى وسعدت لها بقلب يحمل لها كل الخير وحضرت أكليلها بين إخوتها وأبناء وبنات خالتى وكنا أسعد الناس بها وهى بالثوب الأبيض، ولم تمض شهور أخرى على الخطبة حتى كنت أؤدى إمتحان السنة الثالثة بكلية الشرطة مع طلبة السنة الأولى بكلية الحقوق . . وكانت لى شعبية بين الطلبة لتفوقى ولأنى لا أتوانى عن مساعدتهم وأوزع عليهم ملخصات مدروسة لمراجعتها قبل الامتحان وأثناء انهماكى فى الإجابة تنبهت إلى طالبة من طالبات الحقوق تجلس بجوارى وتهمس لى بسؤال عن الامتحان لا تعرف إجابته . . فهمست لها بالإجابة ، وبعد الامتحان جاءت إلى فراجعت معى الإجابة وطمأنتها على إجابتها وانصرفت لحال سبيلى ونسيت أمرها تماماً .

ومر عام آخر وبدأت امتحان السنة الرابعة فإذا بنفس الطالبة تجلس بجوارى فى نفس المكان وبعد قليل بدأت تهمس لى مستغيثة فلبيت

النداء بقدر ما سمحت به ظروف عملية المراقبة وأنا خائف بالطبع . . والتقينا بعد الامتحان . . فكانت بداية لحب كبير فى حياتى واتفقنا على الارتباط بعد تخرجى وتخرجت متفوقاً كالعادة وعينت فى مدينتى الإسكندرية وأقمت فى استراحة الضباط . . وأصبحت أتقاضى مرتباً قدره ٤٣,٥٠ جنيه . . وبدأت أسدد ديونى القديمة كأقساط شهرية وأسافر للقاهرة كل شهر لزيارة خطيبتى ـ ثم بدأت سحب الظلام التى تكثفت فوق سماء حياتى منذ ميلادى تنقشع واحدة بعد الأخرى وربما لن تصدق ما سوف أرويه لك لكن ربى شهيد على أنى لا أحكى لك إلا الصدق والحقيقة ، فقد علمنى كفاح الليالى ألا أهمل واجباً . . وألا أتوانى عن خدمة إنسان فى حاجة إلى خدمتى بعد أن ذقت مرارة النكران وافتقاد النصير . . فإذا ما تسميه أنت فى ردودك بجوائز السماء تنهال على فى كل خطوة من خطوات حياتى العملية . . كأنى من المحظوظين مع أنه لا سند لى سوى عملى وكفاءتى واجتهادى . . فلا أتقدم لامتحان ترقية إلا وفوجئت بأنى الأول بين الناجحين ولا أقدم بحثاً فى دورة تدريبية إلا أفاجأ به فائزاً بالمركز الأول حتى فوجئت بعد قليل باختيارى فى أحد الأعوام الضابط المثالى . . والرياضى المثالى . . ونودى على اسمى فى أحد احتفالات توزيع الجوائز أربع مرات لأصعد وأصافح الوزير وأتسلم جوائزى . . فلفت نظره ذلك وسألنى عن الجهة التى أحب أنتقل إليها مكافأة لى وتوقع بالطبع أن يسمع منى أنى أريد الانتقال إلى القاهرة أو شرطة السياحة مثلاً أو إلى المطار كما يفضل شباب

الضباط ففوجىء بى أطلب منه نقلى إلى قنا لأحصل على سكن إدارى أقيم فيه وأتزوج وأجمع فيه شملى مع فتاتى ووافق الوزير على الفور . . وسافرت لقنا وحصلت على السكن واستدعيت أمى من الإسكندرية لتقيم معى لفترة تحت سقف واحد لأول مرة فى حياتى واستدعيت زوجتى التى كنت قد تزوجتها ولم يكن لنا عش نجتمع فيه . ولم يستقر بنا الحال طويلاً هكذا إذ تغير المحافظ الذى منحنى السكن وطلبوا منى إخلاء الاستراحة فأعدت أمى وزوجتى إلى مستقريهما وانتقلت للإقامة فى معسكر الأمن المركزى ووهبت نفسى لخدمة جنوده وحل مشاكلهم وهم من أبناء الشعب الغلابة مثلى فكان دعاؤهم لى أن يفتح أمامى كل الأبواب المسدودة فحصلت على ترقيتين استثنائيتين خلال ستة شهور . . ثم توالت على « الفتوح » التى لا أعرف سرها فأصبحت « فاكهة » تتخاطفها الإدارات ، فانتدبنى محافظ قنا الجديد مسئولاً للعلاقات العامة بالمحافظة . . وعيننى أحد الوزراء بعد قليل مشرفاً على مصايف ضباط الشرطة بأحد الشواطىء ، ثم انتدبتنى إحدى هيئات الشرطة التى يقاتل أصحاب الصلات للعمل بها ـ فعملت بها وحققت فى عملى نجاحاً كبيراً وأخيراً حصلت على مسكن بالقاهرة واجتمع شمل أسرتى .

واعترف أبى بتقصيره فى حقى وهو فى مرضه الأخير ، وبكى بالدموع وهو يطلب صفحى فسامحته بقلب صاف . . لم يلبث بعدها بقليل أن توفى فطلبت له الرحمة ورعيت زوجته وأصبحت تدعو لى كل يوم وتندم على عدم ترحيبها بى فى سابق الأيام وكنت وريث أبى الوحيد مع زوجته

فدخلت فى نزاع قانونى مع مالك العمارة التى يقع فيها مكتب أبى التجارى بمحطة الرمل . . وأنصفنى القضاء وحكم لى بالمكتب فبعته وسلمت زوجة أبى نصيبها بشرع الله وحقوقه فوجدت بين يدى بضعة عشرات من ألوف الجنيهات وأنا من كاد مستقبل حياته كلها يضيع بسبب٦٧ جنيهاً . . ومن كان يحلم بقرش زائد ليحس بالشبع بعد عشاء العسل الأسود الضئيل وماتت زوجة أبى وهى عنى راضية فورثت شقة أبى السكنية بالإسكندرية وأصبحت أؤجرها فى الصيف ، وماتت أمى وهى راضية عنى فورثت ما لها فى إحدى شركات توظيف الأموال وبفضل الله وحده كنت قد سحبتها قبل أن تنفجر كارثة الشركات بعام واحد لأشترى قطعة أرض مستصلحة ولولا ذلك لضاعت أو دخلت فى متاهات طويلة . . واستثمرت الأرض فجاءت بخير وفير . . وحافظت رغم كل شىء على صلة الرحم مع خالتى وزوجها . . وظللت معترفاً له ولزوجته بفضلهما فى كفالتى وأنا طفل مشرد ولأبناء خالتى بالود والجميل . ولأسرة جيرانى بكل مشاعر الحب والوفاء وكنت أستقبل بالود والحب فى بيت خالتى وبيت جيرانى ولا أتوانى عن خدمتهم جميعاً ثم خيرتنى الوزارة ذات مرة بين السفر فى رحلة لأمريكا وبين السفر فى رحلة الحج مكافأة لى فاخترت الحج . . وطفت بالبيت المعمور وشكرت ربى على نعمته . . وعلى أن حمانى من الضياع ولم يورثنى أية مرارة مما عانيته وأن غرس فى قلبى حب الناس . . وحب العدل وحب الحياة وعدت راضياً عن نفسى وعن حياتى .

وأنا الآن يا سيدى رجل فى الأربعين أشغل منصباً يعتبر من المناصب الممتازة فى هيئة الشرطة ولم ترشحنى له سوى كفاءتى وفضل الله على ولم أسع لهذا المنصب . . وإنما هو الذى سعى إلى لأن الله قد أنعم على برضاء كل من تعاملت معهم من رؤسائى ولا أعرف أيضاً سر ذلك كما أنى وهو الأهم زوج سعيد تشاركنى حياتى حبيبة القلب « الغشاشة » التى كنت أهمس لها بالإجابات فى امتحان الحقوق . . وهى سيدة رائعة وطيبة وعطوفة وتحب الناس مثلى ومتدينة ووديعة وليس فى حياتها نقطة سوداء سوى حكاية الغش فى الامتحان هذه ! .

وقد حضرت معى الإكليل الكبير لابنة جيرانى الطيبين ولم تحس بالغيرة لأنها تعرف أمانتى واستقامتى وحبى وإخلاصى لها . .

وعندى من فضل الله ولدان وبنت اخترت أن اسميها اسماً يذكرنى بنعمة ربى وبفضله على كل حين ، وأعيش مستوراً والحمد لله . . وقد أصبح لى مال موفور تُسْتَحق عنه الزكاة فأخرجها . . وأنا أتعجب من فضل ربى وكرمه وقد ذابت المرارات منذ زمن طويل . . والتمست الأعذار للجميع وسامحت الجميع ولم يبق إلا أن أؤكد للفتاة ابنة الثامنة عشرة أن الله لا يتخلى عن عباده الصابرين . . فاصبرى يا ابنتى كما صبرت . . وانتظرى آلاء ربك وعقابه للظالمين . . والحمد لله أولاً وأخيراً . . والحمد لله فى كل حين .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

هذه إحدى الرسائل القليلة التى يجد الإنسان نفسه بعد قراءتها فى

حال معنوية ونفسية أفضل مما كان عليه قبل قراءتها . . وهذه أهم سمات أدب الحياة الإنسانى النبيل . . أن يجد الإنسان نفسه بعد الانتهاء من قراءته أكثر حباً للناس وأكثر إيماناً بخيرية الحياة رغم ما يبدو فوق سطحها من بثور الألم والإجحاف . . وأكثر استعداداً للصفح عن أخطاء الآخرين فى حقه واستعداداً لالتماس الأعذار لهم . . وأكثر إيماناً بأن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر الصابرين الراضين بقضائه وقدره والمكافحين لنيل حقوقهم العادلة من الخير والسعادة .

ولقد أحسست بكل ذلك بعد انتهائى من قراءة رسالتك المعطرة بعطر كل هذه المعانى الجميلة . . وشعرت كما لو كنت قد ارتويت بها ارتواء نفسياً عميقاً ولا أريد أن أفسد غذاءها الروحى على أو على الآخرين بأى تعقيب طويل . . فإن كانت جوائز السماء قد انهمرت عليك بعد طول قهر ومعاناة . . فلا عجب فى ذلك فإنما هو وعد الله الحق للمستضعفين . . وإن كنت قد أصبحت ترفل الآن فى آلاء ربك بعد حرمان ومسغبة ، فلا عجب فإن نعم آلائه على الصابرين كثيرة . . فبأى آلاء ربهم يكذِّب المتعجلون والقانطون . . وبأى حِمًى يحتمى الظالمون حين يسألون عمن كانوا يقهرون ويجحدون .

ولا كلمة أخرى أكثر من ذلك وشكراً لك على ما أسعدتنى به وإلى لقاء آخر إن شاء الله مع جوائز أخرى أكبر وأفضل سوف تبلغنى بها فى حينها بإذن الله .



الـذى كـــان !

بعد قصة حب كبيرة صمدت خلالها مع فتاتى لأهوال ومعارضة ضارية من جانب أسرتها ، تزوجنا منذ سبع سنوات وانتصر الحب على تقاليد وأعراف ومشاكل وعقبات تنوء بحملها الجبال وأقمنا عشنا السعيد فى إحدى الدول العربية غير الخليجية كوسيلة للفرار من هذه الصعوبات ، ونعمنا معاً بالحب والسعادة وأنجبنا طفلاً عمره الآن خمس سنوات وطفلة تخطت العامين من عمرها ، وكان بيتنا الصغير فى الغربة واحة جميلة للحب والحنان والتفاهم . وبعد ولادة طفلتى بأسابيع فوجئت بزوجتى تطالبنى بغير أية مقدمات بالطلاق ! فذهلت ولم يغب عنى أنها تعرضت لأهوال عديدة من ضغوط الأهل والتقاليد الموروثة بعد أن قطع زواجها منى كل ما بينها وبين أسرتها وأهلها ودنياها السابقة . وقدرت أنها قد ناءت بكل ذلك وقررت الاستسلام للواقع الجبار فلم أغضب منها رغم هلعى من الفكرة ورأيت أن أعطيها مهلة كافية لمراجعة نفسها لعلها تستطيع أن تجتاز هذه المحنة الجديدة كما اجتازت المحن السابقة ، فاستجبت لرغبتها وتركت لها مسكن الزوجية وانتقلت إلى سكن عازب مشترك، وتدخل الأصدقاء لإثنائها عن هدم بيت صغير

كان جنة للحب ففشلت كل محاولاتهم ، وكان مطلبها الدائم هو الطلاق لأنها اقتنعت بأنها لا تستطيع أن تنسلخ نهائياً عن جذورها وأهلها الذين قاطعوها جميعاً بعد الزواج وتكريماً للحب الكبير الذى جمع بيننا ، رأيت أن نظل أصدقاء وعلى اتصال وثيق رغم استجابتى لرغبتها فى ترك المسكن لأن ذلك الانفصال لم يتم لسبب شخصى يتعلق بى وإنما لأقدار لا حيلة لها ولا لى فيها فاتفقنا على أن تسمح لى برؤية الطفلين ثلاث مرات فى الأسبوع . . وعلى توزيع الأثاث بيننا بل وعلى كيفية إحضار غسيلى إليها ، وكان كل شىء بسيطاً وسهلاً بيننا وكنت أريد أن أمنحها راحة البال وسكينة النفس التى تنشدها فى الاختلاء بنفسها لأنى أحبها . ومضى عام طويل ونحن منفصلان ونرعى طفلينا معاً والأمل يراودنى أن يتغلب الحب من جديد على العقبات ونعود لمواصلة حياتنا السعيدة لكنها أصرت على الطلاق فطلقتها وقلبى ينزف دماً ، وأملت أن تستمر العلاقة الإنسانية الطيبة بين اثنين جمع بينهما ذات يوم الحب وفرقتهما أقدار لم يستطيعا مواجهتها . ورعاية لحق الطفلين اللذين جئنا بهما إلى الدنيا ولا ذنب لهما فى اختلاف عالمى أبويهما لكن زوجتى السابقة فاجأتنى بعد الطلاق بأن طلبت منى ألا أرى الطفلين سوى مرة واحدة كل أسبوع بدلاً من ثلاث مرات ، وقبلت ذلك رغم ألمى ، ثم لمرة واحدة فقط فى الشهر وأذعنت صاغراً وكارهاً أن أنازع من أحببتها سنوات طويلة وتزوجتها رغم كل الأهوال التى لاقيناها .

ثم فجأة يا سيدى اختفت زوجتى السابقة نهائياً من البلد الذى

نعيش فيه واصطحبت الطفلين معها وعادت إلى مصر وتم ذلك بتدبير غادر وفى سرية تامة رغم كل ما أبديت نحوها من استعداد دائم للتفاهم وكراهية منازعتها فى شىء وأحسست بلسعة الخنجر المسموم الذى تتحدث عنه رسائل بريد الجمعة وفقدت صوابى وأمانى وأنا من لم يفق بعد من طعنة انهيار الحب الذى حول من قبل مجرى حياتى . وطفت بيوت الأصدقاء أسأل عمن يعرف عن مصير ابنى وابنتى شيئاً ومضت الشهور بغير بارقة أمل فى العثور عليهما وكان كل ما عرفته هو أنهما فى مصر مع زوجتى السابقة . . ولكن لا أحد يعرف مستقرهما وفشلت محاولات الأهل والأصدقاء فى الاهتداء إليهما . إننى يا سيدى رجل فى الخامسة والأربعين من عمرى وجامعى وإنسان بسيط حاول طوال عمره أن يكون عادلاً مع الآخرين ولم تغيرنى المأساة بعد رغم نزيف قلبى من الغدر وحرمانى من طفلى الصغيرين ، ولست أطلب سوى أن تعاملنى زوجتى السابقة بروح العدل والإنصاف التى عاملتها وعاملت الجميع بها . . ولا أريد إلا أن أعرف مكان طفلىَّ . وأقسم لك بربى وشرفى أنى لن أسلب أمهما حقها الطبيعى فيهما وإنما سأعطيها ما فوق حقها فى ذلك لأنى رغم الغدر الذى تعتصرنى مرارته ما زلت أقدر لها كل التضحيات التى تحملتها من أجلى ، وكل الأشياء الكبيرة والصغيرة التى صنعتها لى وكل لحظة سعادة عشتها معها . . وكانت هى صانعتها فضلاً عن أن الإيذاء والإيلام وحرمان الآخرين من حقوقهم ليس من طبعى حتى وإن أذانى وآلمنى وحرمنى الآخرون .

ورغم أنى قد حرمت من رؤية ابنى وابنتى منذ أبريل عام تسعين إلا أنى وأقسم لك على ذلك ما زلت لا أحمل لها ضغينة وربما التمست لها بينى وبين نفسى الأعذار الوهمية فيما فعلت وأكذب الناس والحقائق والدلائل فيها وأتذكر لها أنها صمدت للغربة والبعد عن الوطن والأهل والأصدقاء ولأقسى الاختبارات وتحملت الصعوبات الاقتصادية والجغرافية واختلاف الناس والطباع وصعوبات البداية وبناء عش الأحلام وأقول لنفسى أحياناً إنها إن كانت قد اختارت الانفصال والعودة بالطفلين فلابد أن لها أسباباً وجيهة لا أعرفها الآن فرأت فيما فعلَتْ الحل الأفضل لها ـ ولربما غفرت لها ما فعلت بى ذات يوم . . لكنى سواء غفرت أو استعصى على النسيان لفترات فإنى أبداً لا أكره . . ولا أستطيع أن أكره وكل ما أريده فقط هو أن أهتدى إلى ابنى وابنتى وأن أراهما وأن أطمئن عليهما . . وأن أطمئن زوجتى إلى أنها لم تكن فى حاجة إلى هذا الهروب الغادر بالطفلين . . لأنى لم أنازعها فى شىء رغم كل ما حدث فهل يعيننى قراؤك على الاهتداء إلى طفلى اللذين حرمت منهما طوال الفترة الماضية ولم يعد لى أمل فى الحياة إلا الاهتداء إليهما . . وهل تنشر اسميهما وهما « مهند . . ومنى » لعل ذلك يساهم فى عودة طفلين إلى حضن أبيهما الذي يحبهما ويحبانه ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لا شك أنى أقدر آلامك ومعاناتك وحرمانك من طفليك بعد أن شهدت هزيمة الحب الذى واجهتما الأهوال من قبل فداء له .

كما أنى بكل تأكيد أقدر لك تعففك عن منازعة زوجتك السابقة رعاية لحق الأيام السعيدة الماضية وحق طفلين صغيرين لا ذنب لهما فى اختيار أبويهما اللذين نطحا الصخر بزواجهما فى وجه عقبات كالجبال .

لكن المأساة يا صديقى هى أن نتعفف عن منازعة من نهلنا معهم رحيق السعادة ذات يوم فلا يتورعون أحياناً عن مكافآتنا على ذلك بالغدر والخديعة . . إذ لا شك أن زوجتك السابقة كانت تخطط للفرار بطفليها منذ فترة طويلة . . ولا تثق فى أنك لن تحرمها من حقها المشروع فيهما ، مع أنى أتصور أنك وقد كنت دائماً مسالماً بل ومستسلماً إلى حد كبير معها ، لم تكن لترضى بذلك ولا تسمح به فى حدود الشرع والقانون . . فماذا أخافها إذن . . ولماذا لم تتفاهم معك على العودة ومستقبل الطفلين وأنت دائماً على استعداد للتفاهم معها على كل شىء وعلى التنازل أيضاً عن الكثير لها ؟

وأياً كان السبب فى تصرفها الغادر فلا شك أنك لم تكن لتستحق منها هذا الخنجر المسموم فى كل الأحوال . . كما لا يستحقه أيضاً طفلاها لأن تعمدها حرمانك منهما لا يؤذيك وحدك وإنما يؤذى طفليها أيضاً وقبل أى إنسان آخر ويسلبهما حقهما المشروع فى أبيهما . والأمومة الحقة هى تلك التى تضحى معها الأم بأنانيتها ورغبتها فى الانفراد وتملك أطفالها من أبيهم مهما اختلفت السبل بينهما ، وهى حين تفعل ذلك إنما تستلبهم حقهم المشروع فى رمز الأب الذى يعنى الكثير للأطفال تماماً كما يعنى رمز الأم الكثير أيضاً بالنسبة لهم .

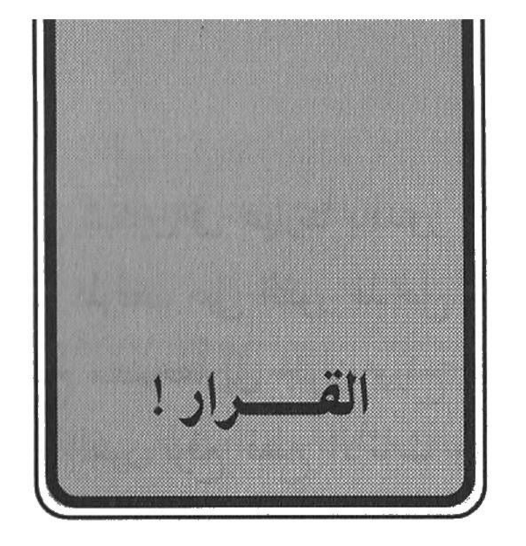
ورغم تعاطفى معك . فما زلت لا أعرف على وجه التحديد كيف يستطيع قراء بريد الجمعة أن يساعدوك فى الاهتداء إلى طفليك . . كما أنى لم أفهم تماماً كيف يمكن أن تتبخر سيدة وطفلاها فى الهواء فلا يعثر لهم أحد على أثر ولا على أى خيط يقود إليهم وزوجتك السابقة لها أهل وأقارب ومعارف وصديقات يمكن استقصاء مصيرها منهم حتى ولو لم يرحبوا بذلك . . لأنك تستطيع إن عجزت عن التفاهم أن تستعين بالجهات المختصة فى الاهتداء لطفليك .

ولست أتصور أن يستطيع أحد أن ينوب عنك فى هذه المهمة لأنك الأب الذى يستطيع وحده أن يطلب حقه القانونى فى طفليه . لهذا فلابد أن تعود لبلدك فى أجازة للبحث عن طفليك . وأن تبدأ بالاستعانة بعقلاء الأسرة وبالمنصفين فيها على نيل حقك ، ثم بالقانون إن عجزت المساعى الحميدة عن تحقيق الهدف .

ولأنى ممن يعولون كثيراً على الضمير الإنسانى وأهميته كضابط أساسى من ضوابط الحياة ومنع تحولها إلى غابة للوحوش الكاسرة ، فإنى ما زلت أعول على ضمير بعض هؤلاء العقلاء . . بل وأعول أكثر على ضمير زوجتك السابقة نفسها رغم الخديعة والغدر إذا اقتنعت بأنك لن تحرمها من حقها فى طفليها .

وآمل أن تسهم هذه الرسالة فى طمأنتها إلى ذلك . . وأنتظر منها موقفاً أكثر عدلاً . . وأكثر رعاية لحق الأيام الجميلة الماضية إن لم يكن

لكل الدوافع الإنسانية المشروعة السابقة فعلى الأقل لكيلا تفقد تضحياتها السابقة كل معنى لها إذا هى أصرت على أن تحرم من قدمتها له طائعة من طفليه وهما . . ثمرة الحب الذى كان . . ومن العار أن يكون وجهه الآخر الوحيد هو التنازع كالغرباء أمام المحاكم واستلاب الحقوق . . والإيلام بلا عدل . . ولا رحمة !





أن أروى لك قصتى رغم غرابة بعض فصولها لعلها تساهم فى اطلاع قرائك على وجه آخر من وجوه خبرة الحياة الثمينة .

فأنا الإبنة الوسطى لأب مهندس يملك عمارة كبيرة فى أحد أحياء القاهرة وأرضاً زراعية فى محافظة قريبة منها . وكنا ثلاث شقيقات على قدر كبير من الجمال نشأنا فى رعاية أب يعرف حدود ربه ويرعاها وأم طيبة ، تكاتفاً على تربيتنا حتى تخرجنا فى كليات مرموقة فتخرجت أختى الكبرى مهندسة وتخرجت أنا طبيبة ودرست أختى الصغرى فى كلية العلوم ، ثم تزوجت أختى الكبرى وأقام لها أبى زفافها فى أحد الفنادق الكبرى وسعدت بحياتها . فلم تمض بضعة شهور على زواجها حتى مرض أبى مرضاً عارضاً ورقد فى فراشه بضعة أيام ثم تحسنت صحته بعد قليل فاستبشرنا خيراً . لكننا صحونا ذات صباح ففوجئنا به يلفظ أنفاسه الأخيرة بين أيدينا وليس فى الشقة سواى وأمى وأختى فانطلقت صرخاتنا، وعويلنا يشق الجدران ولم ندر ماذا نفعل فإذا ببضعة رجال يطرقون باب الشقة بعنف وأفتح لهم بلا وعى فيندفعون للداخل وهم يتساءلون بانزعاج عما حدث ، وأدركنا بصعوبة أنهم موظفون بشركة

القطاع العام التى تحتل شقتين فى عمارتنا بالدور الأسفل . . فواصلنا الصراخ والبكاء وأدركوا الموقف على الفور فدخل أحدهم إلى غرفة نوم أبى فستره بالغطاء وفتح مصحفاً إلى جواره وراح يتلو من آيات الذكر الحكيم وقام آخر على الفور برفع قطع الأثاث من الصالة استعداداً لوضع مقاعد للمعزين . . وطلب ثالث نوتة التليفونات الخاصة بنا وجلس بجوار التليفون يتصل بكل من فيها ويبلغه بالخبر المؤلم وخرج رابع إلى مكتب الصحة لاستخراج شهادة الوفاة وذهب خامس إلى المدافن لإعداد اللازم وغادر سادس الشقة للاتفاق مع متعهد الفراشة لإقامة السرادق وإحضار الكراسى للصالة ونحن فى ذهول ولا ندرى ماذا كنا سنفعل لو لم ينقذنا هؤلاء الرجال .

وطوال هذه الساعات الكئيبة كان الموظف الذى دثر أبى بالغطاء يخرج من غرفة النوم من حين لآخر ليطمئن على الإجراءات ثم يعود ليواصل القراءة فى المصحف .

ولازمنا هؤلاء الأشخاص الكرماء حتى انتهت كل المراسم الحزينة وعدنا من المدفن إلى البيت بعد الظهر وفى المساء أقيم السرادق وحضروا جميعاً إليه وبعد انتهاء العزاء صعدوا إلينا ليطمئنوا على أحوالنا ثم نزلوا للشارع واشتروا لنا خبزاً وجبناً وزبادى لكى نتناول العشاء بعد أن أمضينا اليوم كله بغير طعام . . وتحايلوا علينا لنتناول بعض اللقيمات بدعوى أننا لا بد أن نأكل شيئاً يسيراً من الطعام لكى نستطيع أن نستقبل المعزيات فى الصباح .

وبعد يومين خف زحام المعزيات فصعد إلينا الموظف الذى غطى جثمان أبى ليعرض علينا كشف حساب نفقات المراسم والعزاء . وكنت فى يوم الوفاة قد أخرجت من الدولاب مبلغاً كبيراً لم أعده فى ذهولى وأعطيته له ليتولى الإنفاق منه فأحصاه أمامى وسجله على ورقة ثم عرض حسابه بالتفصيل فكان أقل كثيراً مما توقعنا . . وأعاد لنا باقى المبلغ وكان أكثر من نصفه . . فشكرته أمى كثيراً على ما فعل هو وزملاؤه فاحمر وجهه خجلاً وانصرف .

ومضت الأيام والأسابيع والشهور وواجهنا الحياة بعد غياب أبى للأبد لأول مرة . . وبدأت أمى تتعامل مع مزارعى الأرض وسكان العمارة وفى كل يوم تحتاج إلى القيام بإجراء إدارى أو استخراج أوراق إلخ . .

وانفض السامر من حولنا بعد بضعة شهور فقلت زيارات الأقارب وأصبحنا ثلاث نساء فى شقة بلا رجل يحمينا . . نمضى معظم ليالينا وحيدات بعد عودتى من عملى وعودة شقيقتى الصغرى من كليتها . وتخيم على أمسياتنا الكآبة وظلال زى الحداد الأسود الذى نرتديه .

وذات ليلة كنت جالسة مع أمى نتسامر فترحمت على أبى الذى كان يقوم عنها بكل هذه الأعباء إلى جانب عمله الأساسى ويحجب عنا كل المتاعب . . ثم تساءلت فى مرارة ماذا نفعل فى هذه الأعباء بعد غيابه ؟ فوجدتنى أجيبها بأن أفضل من يصلح لأداء هذه المهام عنه بأمانة هو فلان أى ذلك الموظف الذى وقف بجوارنا فى أيام الوفاة وتولى الإنفاق على الإجراءات .

وأيدتنى أمى فى رأيى لكنها تساءلت عن كيفية ذلك نحن لا نملك تكليفه بها . . فوجدت نفسى أجيبها ولا أعرف كيف فعلت ذلك بهذا الجواب : أتزوجه . . فيقوم عنا بكل شىء ويكون رجلنا الذى يحمينا ويدافع عنا خلال انشغال زوج شقيقتى بأعماله التجارية .

وفوجئت أمى بالفكرة لكنها لم تنزعج لها . . بل راحت تفكر فيها بهدوء ثم بعد أيام تحرت عنه فعرفنا أنه يحمل مؤهلاً متوسطاً ومن أسرة متوسطة الحال . . وتخوفت أمى من ألا يناسبنى بسبب ذلك لكنى طمأنتها إلى أنى قد ارتحت إليه وإلى رجولته من الأيام الأولى وأنى لا أعير مسألة المؤهل اهتماماً كبيراً . . ولم تضيِّع أمى وقتاً طويلاً بعد ذلك فقد طلبت مقابلة مدير الشركة التى يعمل بها وسألته عنه فزكاه لها وشهد له بالرجولة والأمانة وبأنه مثقف وواسع الأفق .

وبعد أيام استدعته أمى إلى شقتنا . . وبواقعية شديدة عرضت عليه أن يتزوجنى ! فأحمر وجه الرجل خجلاً وتساءل مذهولاً وأين أنا منها وهى طبيبة وأنا موظف بمؤهل متوسط ولست ثرياً . . بل وأساعد أبى فى تربية إخوتى ولن يتوفر لى ما أفكر فى الزواج به من مال إلا بعد زواج شقيقاتى . . و . . و . . !

فلم أطق صبراً وكنت أتسمع حديثه فخرجت إليه وقلت له أمام أمى إننى لا أريد منك شيئاً سوى دبلة الزواج لأنى رأيت فيك رجلاً أستطيع أن أعتمد عليه وأن يحمينى ولا يهمنى أى شىء آخر . . ففقد القدرة على

النطق تماماً وردد عينيه بينى وبين أمى غير مصدق وأمى تؤكد له ما قلته . . حتى تمالك نفسه ووافق .

وتحدد موعد لقراءة الفاتحة . . وأبلغت أمى أختى وزوجها وأقاربنا . . فوافقوا على مضض ولم يستطع أحدهم أن يفتح فمه بكلمة اعتراض واحدة بعد أن تركونا نواجه الحياة وحدنا طوال السنة الماضية . . وجاء خطيبى مع أسرته وأقاربه وقدم لى خاتم زواج جميلاً وأعطته أمى خفية سواراً ليقدمه لى أمام الأسرتين ففعل محرجاً ، وبعد شهور أخرى تم توفير الشقة بمساعدة أمى وأصر على أن يشترى غرفة النوم وقدمت أنا باقى الأثاث . وتم عقد قرانى فى شقة أمى فى ليلة جميلة وسعيدة وتزوجنا ووجدت فيه نفس الرجل الذى تخيلته حين فكرت فى الارتباط به رجلاً تنطلق ملامحه وتصرفاته مع الجميع بالرجولة والشهامة ومراعاة حدود الله .

ومضى العام الأول من زواجنا فحمل عن أمى كل أعباء حياتها وحياتنا معها وأنجبت طفلة جميلة ، ثم طفلاً آخر . وأثبتت الأيام أن معدنه أصيل لا يتغير . . وكسب احترام كل أهلى وثقتهم وأصبح مستشارهم الأول فى المسائل المالية والإدارية ويتطوع لخدمتهم قبل أن يطالبوه بذلك . وتخرجت أختى الصغرى وعملت وتقدم لها شاب ففوضته أمى فى كل شىء فنهض بالمهمة بالأمانة المعهودة فيه كأنما يزوج شقيقته . . وأدخله زوج شقيقتى فى أعماله التجارية من الباطن لثقته فيه فقام بعمله معه بإخلاص . . وما زال يحتنى على أداء الفرائض . . حتى

انتظمت فيها وكنت من قبل أؤديها بغير انتظام . . ثم راح يلفت نظرى برقة إلى مظهرى ويتمنى لو تحجبت مؤكداً لى أنه إنما يفعل ذلك رعاية لصالحى قبل كل شىء حتى وجدتنى ذات يوم أرتدى الحجاب عن اقتناع وأفاجئه به كما فاجأته ذات يوم بخروجى إليه لأحثه على أن يتزوجنى بلا خجل !

وما زال بأمى يؤدى لها أعمالها بأمانة ويدفع إيرادها بالحق وبعدم التفريط فى حقوقنا حتى ضاعفه خلال سنوات قليلة . . وما زال يطالبها بأن تؤدى فريضة الحج قبل أن يسرقها الزمن حتى اقتنعت فأجرى لها الإجراءات فى سرعة البرق وضمن لها راحتها وأدت الفريضة وعادت منذ عامين ثم أقنع زوج شقيقتى الكبرى وأديا معاً الفريضة فى العام الماضى .

وقد مضى على زواجنا الآن سبع سنوات حصلت خلالها على الماجستير وترقى هو فى عمله وقد بلغت الثالثة والثلاثين وبلغ هو الأربعين . . وأنا أزداد كل يوم اقتناعاً بأنى قد اخترت الاختيار الصحيح وأحسنت إلى نفسى حين لم أخجل من أن أقترح على أمى أن تسعى لتزويجى من هذا الرجل حتى ولو كان ذلك خروجاً على المألوف إذ ماذا يضيرنى فى أن أكون أنا الذى سعيت للزواج منه بغير أن أتعدى حدود الله أو أرتكب حراماً ؟

إننى أرى أن زوجى يستحق منى ألا أخفى هذه الحقيقة بل وأن أفخر بها . . فهل تتفق معى فى ذلك . . ثم أقول لكل فتاة إن السعادة الزوجية

لا تعنى أن تخلو الحياة من المشاكل نهائياً . . لأنه لا توجد حياة بلا مشاكل . . لكن السعادة هى أن يكون علاجنا لهذه المشاكل فى إطار الحب واحترام كل طرف لمشاعر الطرف الآخر ودليلى على ذلك هو أن حياتنا أيضاً واجهت بعض المشاكل كنظرة الأهل لزوجى فى البداية وقد فرضت عليهم جميعاً احترامه . . وتكفلت شخصيته هو بعد ذلك وتدينه بدون تزمت فى اكتساب هذا الاحترام . . كما أن لدينا مشكلة أخرى لم تحل بعد هى أنه مصر على ألا يستقيل من وظيفته الصغيرة ليتفرغ للعمل التجارى مع زوج شقيقتى مع أنه يحقق منه دخلاً أكبر من مرتبه ولو تفرغ لحقق أضعافه لكننى أقول رأيى وأترك له القرار فى النهاية . والسلام .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

كل ما يحقق سعادة الإنسان العادلة المشروعة ولا يتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية لا غبار عليه إذا توسل به الإنسان للوصول إليها . .

بل إنه فى بعض الأحيان يكون النكوص عن التماس هذه الوسائل المشروعة تقصيراً فى حق النفس قد يلام عليه المرء . . وقد يفقده جدارته بالسعادة وفرصته العادلة لنيلها والحق أنى دهشت قليلاً لجرأتك فى طريقتك « الواقعية » لاختيار شريك الحياة . . ولطريقتك الأكثر جرأة فى مساعدتك لهذا الشريك على التغلب على تردده حين برزت إليه من وراء ستار لتضعى أمامه النقط فوق الحروف بلا مواربة ، لكنى رغم ذلك لا أنكر عليك حقك فيما فعلت بل لعلك لو لم تفعلى لما تغلب على

هواجسه بشأن وضعك ووضعه . ولما استشعر جدارته بأن يكون شريكاً أميناً لحياتك .

ولا شك أنه جدير بهذا الاختيار ولقد أثبتت تجربة السنين جدارته وأكدتها . . وأثبتت لك صدق رؤيتك الثاقبة لمعادن الرجال لأننا لا نتعاشر بالشهادات والألقاب ولا نسعد بهما . . وإنما نسعد بمن يأوى إليه القلب ويجد لديه ما يتمناه من مشاعر دافئة وفهم وتعاطف وحسن معاشرة ومساندة معنوية تعينه على مواجهة أنواء الحياة . لقد كسبت الاختيار لأنك أدركت جوهر القضية وهى أن السعادة إنما يصنعها البشر القادرون على خلقها وعلى استشعارها ونجح زوجك فى الاختيار وكسب احترام أهلك لأن قيمه الدينية والخلقية ورجولته وشهامته وأمانته قد رشحته لنيل الاحترام والقبول .

ولعل ما ساعده على ذلك رغم التفاوت فى المؤهل والمستوى المادى هو سعة أفقه وثقافته وطيب معشره وطيب منبته العائلى رغم التفاوت المادى ، أما تمسكه بوظيفته الصغيرة فإنه يكشف عن رغبته فى ألا يكون اعتماده النهائى فى حياته على أسرتك ، ولعله مع الأيام يزداد ثقة فى جدارته بكل خير . . ويختار الوقت المناسب الذى يستغنى فيه عن هذا العمل حين يرى ذلك مناسباً فلا تتعجليه فى ذلك ولا تعارضيه إذا تمسك به للنهاية .

أما وسيلتك فى الاختيار فلا شك أنها أفضل كثيراً من السلوكيات الملتوية التى تجرى فى الخفاء ولا تتم تحت أنظار الأهل ويكفيك شرفاً أنها

كانت نفس الوسيلة الشريفة التى اختارت بها السيدة خديجة شريكها الصادق الأمين فأرسلت إليه من يذكرها عنده . . أما تقييمى النهائى للتجربة بعد ذلك فهو أن قوانين الحياة أولى بالاتباع فى الأحوال العادية فإن فرضت الضرورة حالات لا تخضع لهذه القوانين وحققت النجاح والاستمرار فإننا لا نملك إزاءها إلا أن نطبق عليها المبدأ الفقهى المعروف الذى يقول : يبقى الشاذ من الفتيا كما هو ولا يقاس عليه !

وشكراً لك على رسالتك الجميلة .



لست أدرى كيف أبدأ رسالتى إليك . فالحق أنى لم أتصور أبداً أن يأتى يوم أحتاج فيه إلى الكتابة لأحد عن نفسى . فلقد نشأت نشأة طبيعية وسعيدة وكنت طالباً متفوقاً فى كل مراحل دراستى ، وبعد حصولى على الشهادة الجامعية عينت فى وظيفة مرموقة يتمناها أى خريج بإحدى الهيئات الهامة ، وتزوجت من زوجة فاضلة جميلة ، وعشنا معاً حياة طبيعية سعيدة ، وأنجبت بنتين جميلتين وناجحتين فى دراستهما . . ومضت بنا الحياة من توفيق إلى توفيق أكبر فتقدمت فى عملى وتقدمت الفتاتان فى الدراسة حتى تخرجتا الواحدة بعد الأخرى وعملتا وتمت خطبة إحداهما . وقد بلغتُ سن الخمسين وأنا بصحة جيدة ولم أذهب لطبيب فى حياتى كلها مرة واحدة وزوجتى سعيدة وقد أنعم الله علينا بالرزق الوفير وبالحج والعمرة أكثر من مرة معاً . وأصبحت مرشحاً لمنصب كبير بنفس الهيئة والدنيا من حولنا سعيدة وجميلة وواعدة بأجمل الآمال فإذا بكل هذا السلام ينهار فجأة . وأعود ذات يوم إلى بيتى فأجد زوجتى الفاضلة الجميلة تطلب منى الطلاق بعد عشرة خمسة وعشرين عاماً وتصر عليه بلا أى مبرر إلا ما يكون بين الأزواج العاديين أحياناً من

ملاحاة . فصعقت وسألتها عن السبب فلم أعرف شيئاً . . واهتزت ثقتى فى نفسى وتعرضت لمحنة نفسية شديدة ، وساءلت ابنتى وهما شابتان عن الحقيقة فلم أجد جواباً لديهما ، وتدخل بعض أقارب زوجتى بينى وبينها فلم يجدوا منها سوى الإصرار على طلب الطلاق ! . . الطلاق الآن يا سيدى بعد خمسٍ وعشرين سنة من العِشْرة الهادئة بلا أية مشاكل جوهرية وبعد أن بلغت ابنتى الكبرى الثالثة والعشرين ومخطوبة وبلغت الأخرى سن الحادية والعشرين ويتقدم لها الخطاب من حين لآخر ؟

إن هذا ما حدث وأشارت شقيقتها علىَّ بأن أغادر البيت لفترة عسى أن تهدأ أعصابها وتتخلى عن طلب الطلاق . . فقمت خلال يومين بشراء شقة تمليك وأثثتها وانتقلت إليها وغادرت مسكن الزوجية الذى عشت فيه خمسة وعشرين عاماً ، واختارت ابنتاى أن تخرجا للإقامة معى . وبدأت حياتى كزوج منفصل عن زوجته ويتكتم الخبر خجلاً من زملائه ومعارفه ومرؤوسيه وينتظر عودة الرشد إلى شريكة حياته . . ومضت الأيام ثقيلة والفتاتان تنتقلان بينى وبينها . . وفى كل يوم أنتظر أن تعيد زوجتى التفكير فى موقفها وتضع سعادة الفتاتين وسمعتهما فى اعتبارها فينتهى اليوم بلا أى بادرة أمل . . وبينما أنا أنتظر هذا الأمل فوجئت بدعوى طلاق فى المحكمة من زوجتى الفاضلة ضدى ! وذهلت واتصلت بها وسألتها عما إذا كانت تتصور أنى سأقف ذات يوم فى ساحة المحكمة ضدها. فأجابتنى رفيقة الدرب لمدة ربع قرن من الزمان

بصراحة جارحة بأنها لا تريدنى ! فسألتها ألم تفكرى فيما سيصيب ابنتيك من جراء هذا الطلاق ؟ فأجابتنى إجابة أشد قسوة وهى أنها غير معنية الآن سوى بنفسها ! ووجدت نفسى فى خيار صعب بين أن أقف مع زوجتى أمام المحكمة وبين أن أطلقها . . واستشرت الفتاتين فكان من رأيهما أنه ما دامت الأمور قد تدنت إلى هذا المستوى فالأكرم هو الطلاق لعله يريحها نفسياً ويفتح باب الأمل فى الإصلاح بعد حين . واقتنعت برأى الفتاتين خاصة أن زوجتى قد أكدت لى أن الطلاق سيريح أعصابها . . واصطحبت المأذون إلى عش الزوجية الذى شهد مجىء البنات وتدرجنا فى الوظائف وفى مراحل العمر من سن الشباب إلى سن النضج والاكتمال . ونظر المأذون إلى وإلى زوجتى والحاضرين ثم أقسم ألا يوقع الطلاق لأنه إثم كبير حين يكون بلا سبب ، فرجوته أن يؤدى مهمته لأنه لا معنى لرفضه سوى أن نحضر مأذوناً آخر . . فأصر على أن يعطينا فرصة أخرى لإصلاح الحال ، ولم يتغير شىء بالطبع فعدت بالمأذون مرة أخرى ونطقت بكلمة الطلاق التى لم ترد على لسانى مرة واحدة من قبل وذرفت دموعى لأول مرة فى حياتى . وعدت إلى مسكنى ومعى ابنتاى وفى مسكنى سألتهما صادقاً هل تريان فىَّ شيئاً غير طبيعى فى أخلاقى أو معاملتى للآخرين ؟ فاجابتانى بالنفى ـ فسألتهما : هل أنا منفر لا تطيق امرأة النظر إليه ؟ . . فأجابتانى أيضاً بالنفى . فانطويت على آلامى وأصبح كل همى هو ألا يعرف أحد فى العمل أو محيط الزملاء بالطعنة التى تلقيتها وأنا فى سن الثالثة والخمسين . ورغم جرحى النازف

فإنى لم أمنع البنتين عن زيارتها بل شجعتهما أن تتناوبا الإقامة معها .

وجاء الصيف وأردت أن أخفف عن البنتين أحزانهما فدعوتهما لقضاء فترة فى أحد المصايف . . وهناك اتصلت الفتاتان بها وسألتانى : هل ندعوها للحضور لفترة ؟ فأجبتهما بالإيجاب مؤكدً أنى سأمضى الليالى التى تقيمها معهما فى أحد الفنادق ، وجاءت واستقبلتها بترحيب . . وسألتنى الفتاتان عن إمكانية الصلح فأجبتهما بصراحة بأنى راغب فيه رغم كل شىء من أجلهما ومن أجل أشياء أخرى كثيرة وطلبت منهما أن يتحدثا إليها فأجابتهما بأنها تريد أن تهتم بنفسها ، ورغم ذلك فقد كانت ودودة معى ومع الجميع . وعادت من حيث جاءت واستبشرت الفتاتان خيراً بزيارتها لهما فى المصيف وبروح الود التى كانت تعاملنى بها خلال وجودها فى المصيف ، وأملتا أن تعرب عن رغبتها فى العودة قريباً . لكن لم تجىء من ناحيتها أية إشارة . . وانتهت العدة .

وفى اليوم الأول بعد انقضائها ذهبت الفتاتان لزيارة أمهما بتشجيع منى . . فهل تعرف يا سيدى ماذا وجدتا فى انتظارهما هناك ؟

لقد وجدتا مأذوناً يعقد زواج أمهما وهى فى سن السابعة والأربعين على رجل آخر لا يتناسب مع أبيهما مركزاً ولا أى شىء وأمهما سعيدة بالزواج الجديد فى اليوم الأول لانقضاء عدة طلاقها من الزوج الذى عاشرته ربع قرن . وعادت الفتاتان من هناك فى أشد حالات الذهول ومنهارتين نفسياً وجسدياً . . وهما تسألاننى : هل يمكن أن تفقد الأم أمومتها إلى هذا الحد ؟

لقد مضى على الزواج السعيد الآن شهر لم تحاول خلاله الأم العروس أن تسأل فيه عن ابنتيها مرة واحدة فى حين عرفت أنا لأول مرة الطريق إلى عيادات الأطباء . وأصبحت من روادها الدائمين . وما زلت مذهولاً مما حدث . . أتساءل كيف ينقلب الإنسان من النقيض إلى النقيض بلا مقدمات هكذا ؟ وماذا فعلت لكى تتعرض حياتى لهذه العاصفة فى سن الهدوء والراحة وجنى ثمار الكفاح الطويل ؟ وأحياناً تهاجمنى الأفكار السوداء فأفكر فى الانتقام منها بشكل أو بآخر ثم أعود لنفسى ـ وأنا الرجل الذى يعرف ربه ـ وأفيق من هذه الأفكار السوداء على صوت إحدى البنتين وهى تمسح بيدها على رأسى وتؤكد لى أن الله سوف ينتقم لى ممن ظلمنى . والأخرى تقول لى إنها إذا تزوجت فلن تدعوها لزفافها لأنها لم ترع موقفهما ولم تسأل عنهما ولم ترع أمومتها لهما ، فماذا أفعل يا سيدى ؟ . . وهل تنصحنى بالزواج مرة أخرى ؟ وما رأيك فيما فعلت زوجتى السابقة ؟ وألست معى فى أنها مأساة فاجأتنى على غير انتظار وأنا فى خريف العمر وبعد أن كنت أظن انى قد بلغت كل ما أصبو إليه من آمال ولم يبق سوى الوصول إلى الوظيفة الخطيرة المنتظرة لأقول إنى قد نلت من الحياة كل ما أرتجى ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

جراح الحياة يا صديقى قد تفاجىء الإنسان فى أى مرحلة من مراحل العمر . . وهى حين تجىء لا تفرق بين مغمور ومشهور ولا بين شخص بسيط وآخر خطير الشأن . . فالجميع أمام همومهم سواء . بل وصغار

أيضاً أمام الألم والأحزان . فهون عليك ما تحسه من « عار » شخصى ينبغى أن تتستر عليه وتخفيه عن الآخرين كأنما هو أمر يضع من قدرك عند الآخرين . وهو بكل تأكيد ليس كذلك . فالفشل فى الزواج قدر مقدور قد يصيب أى إنسان وفى أى مرحلة من العمر . وقد أصاب من قبلك ملوكاً وعظماء . بل وعرفه اثنان من الأنبياء هما نوح ولوط اللذان خانتهما زوجتاهما فى العقيدة وشقيا بهما .

لقد اختارت لك الأقدار أن تنزل بك هذه المحنة وأنت فى سن النضج والحكمة ففكر فى الأمر بروية وحاول أن تتفهم أبعاده . . وسوف تعرف أن ما جرى كان « الأكرم » لك رغم إيلامه وقسوته . فلقد كانت هناك قصة ما تجرى تحت السطح وتمكنت من الطرفين فقررا أن يواجها الدنيا بها وبغير اعتبار لأى شىء سوى سعادتهما الشخصية . . إذن فالعيب ليس فى شخصيتك أنت يا سيدى وإنما فيمن لم تغالب أهواءها كما ينبغى للأم أن تفعل حرصاً على صالح أبنائها واستسلمت لهذه الأهواء ولم تر بأساً فى أن تهدم المعبد فوق رؤوس الجميع غير مبالية بما يصيبهم جميعاً من شظايا نفسية وأدبية لكى تتوج « قصتها » بالزواج فى يوم انقضاء عدتها . وهذا هو شأن الرجل أو المرأة إذا استسلم كل منهما لأهوائه ورجح سعادته الخاصة على باقى الاعتبارات . . ورغم أننا ندين هذا التصرف فإننا قد لا ننزعج له كثيراً لاعتياده من بعض الرجال ، أما حين يجىء من جانب الأم فإن انزعاجنا له يكون أشد لأن طلب السعادة الخاصة على حساب تعاسة الأبناء أمر يتنافر تنافراً شديداً مع طبيعة

الأمومة ومع عطائها المستمر للأبناء . لكن ما جرى قد جرى ولم يعد يجدى التعجب من حدوثه . ويبقى الأهم الآن وهو أن تنجو من آثار هذه المحنة وان تستعيد توازنك ، وألا تضاعف من خسارتك الشخصية بالاستسلام للحزن والأفكار السوداء فتضاعف من بلائك ويصعب عليك احتماله ويكفيك تعاطف ابنتيك معك وإحساسها بمدى الظلم الذى تعرضت له ، وحاول أن تلتمس العزاء والسلوى فى الجوانب العديدة الأخرى من حياتك التى وفقك الله فى معظم مجالاتها وأهمها حب ابنتيك الصادق لك ، ولا بأس فى أن تفكر ـ بعد فترة نقاهة كافية ـ فى الزواج مرة أخرى من سيدة ملائمة لك فى السن والوضع الاجتماعى وباقتناع ابنتيك وبمشورتهما ، وتأكد أنهما سوف تسعدان بذلك فى الوقت الملائم إذا رأتا فيه ما يخرجك من أحزانك ولمستا حاجتك إليه ، وسوف تكونان سفيرتيك لاختيار من تليق بك . . ومن تخفف عنك آلامك . أما الانتقام فلا مبرر له . . ولا معنى ولا هو من حقك أصلاً ، ثم هل تريد انتقاماً أبلغ من الانتقام الإلهى الذى جاء على لسان ابنتها الرشيدة من أنها لن تدعوها إلى زفافها حين تتزوج ؟



أنـا سيدة شابة وزوجة وأم لثلاثة أطفال ، ومن قارئات بابكم الممتع رغم ما فيه من آلام وأحزان لفئات كثيرة من البشر ، لكن ردودكم الحكيمة تخفف كثيراً من وطأة هذه المشاكل على أصحابها ، ثم شاءت إرادة الله أن أنقطع عن متابعة بابكم لمدة عام وثمانية شهور لأسباب سأحدثك عنها بعد قليل ، وعدت لقراءته لأجد فيه العزاء والسلوى ، فكان أول ما قرأته هو رسالة « العيون الحمراء » لهذا الشاب الذى فقد والده ثم خاله وبكاهما بكاء حاراً حتى أصيبت عيناه بحساسية تلازمه وتذكره بهذه الذكريات الأليمة ، فوجدت فى نفسى الرغبة لأن أكتب قصتى لك ، ولأفسر لك لماذا انقطعت عن متابعة بابكم هذه الفترة .

وقبل أن أروى لك القصة أقول إننى كنت الإبنة الخامسة لأب متدين طيب تاجر ميسور الحال له ثلاثة أبناء من الذكور وخمس إناث ولأم ربة بيت فاضلة تقية حجت إلى بيت الله مع أبى ، ونشأنا جميعاً فى هذا المناخ الدافىء المتدين ، وسارت بنا الحياة هانئة سعيدة ، ومنذ عشر سنوات وصلت إلى السنة النهائية فى كليتى وتقدم لخطبتى شاب وعقد أبى قرانى

عليه وإتمام الزواج بعد الحصول على الشقة ، لكن الأيام لم تمهله ليسعد بى كما سعد بشقيقاتى اللاتى سبقننى إلى الزواج ، ففاجأته أزمة قلبية وهو جالس بيننا يحدثنا ، توفى ـ رحمه الله ـ على إثرها ، وكانت صدمتى الأولى فى الحياة ولوعة الفراق لأبى العطوف طيب القلب الذى فقدنا معه « السند والعكاز » كما يقول الشاب كاتب الرسالة فى رسالته عن أبيه ، وأخلصت أمى لذكراه إخلاصاً نادراً وبعد رحيله بعام ونصف عام تم زفافى ، وبعد زواجى بعام تزوجت أختى التى تصغرنى ، ولم يبق فى بيت الأسرة سوى أمى وشقيقين أحدهما أصغرنا سناً يبلغ من العمر ١٤ سنة ، وعوض الله أمى عن فقدها لأبى بحنان شقيقنا الأكبر الذى يعيش فى مدينة أخرى ويعمل بالتجارة وقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ منه كتلة من الحنان والعطف ، فسخا على أمى بحبه وحنانه وعطائه وعطفه وحجت إلى بيت الله الحرام ثلاث مرات بعد وفاة أبى ، وكان يأتى لزيارتها من مدينته البعيدة كل خميس فى أحيان كثيرة ويتصل بها تليفونياً كل يوم ، ومضت الأيام، ومنذ عام وثمانية شهور بدأ شقيقى الأصغر ـ الذى كان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره ـ يفكر فى الزواج، واختار قلبه فتاة وتحدث مع أمه بشأنها فرحبت بخطبتها وباركنا جميعاً مشروعه ، واتفق أخى الأكبر مع أهل العروس على موعد لشراء الشبكة ، وعز عليه أن يترك شقيقه وحده فى هذه المناسبة فطلب انتظاره إلى أن يحضر من مدينته البعيدة ليقف إلى جواره فى هذا اليوم بدلاً من أبيه، وجاء أخى الأكبر المحبوب من كل من يعرفه ليؤدى هذا الواجب العائلى ويثلج

صدر أمه وإخوته ويشرفهم أمام أصهارهم الجدد فإذا به وبغير أى مقدمات يقع على الأرض أمام بيت الأسرة ويلفظ آخر أنفاسه بالسكتة القلبية أيضاً ، ويرحل أخى الأكبر الحنون عن الحياة وهو فى الأربعين من عمره تاركاً وراءه أطفاله الصغار ، وأصغرهم لم يتم عامه الأول بعد . . وانقلبت أفراحنا مرة أخرى إلى أحزان وعشش الحزن فى نفوسنا . . وراحت أمى المؤمنة الصابرة تحاول هى أن تخفف عنا الفجيعة وتصبرنا . . حتى بدأنا نجاهد أحزاننا لنخفف عنها هى بعض آلامها . . وفى هذه الظروف الحزينة توقفت عن متابعة بابك لأنى لم يعد فى قلبى متسع للآلام والأحزان . . ثم مضت الأيام تجر أذيالها . . ومر عام وخمسة شهور على رحيل شقيقى الأكبر . . وبدأت الحياة تأخذ دورتها مرة أخرى وبدأنا نفكر فى تحديد موعد جديد لعقد قران شقيقى الأصغر إرضاء له وهو من كان يبكى أخاه بكاء مراً ويردد دائماً : لقد تيتمت مرتين بوفاة أبى ثم أخى وتم تحديد الموعد . . وانشغلنا بالإعداد للقران الذى اتفقنا على أن يتم فى المسجد وأن يقتصر على الاحتفال الدينى مراعاة للظروف . . ودفع شقيقى للمأذون العربون وسلم إليه بطاقته الشخصية . . واتفق مع مصور للفيديو على تصوير عقد القران . . ولم تبق إلا ثلاثة أيام على عقد القران وأداء واجب عائلى طارىء . . هو زيارة ابنة أختى التى ترقد فى مستشفى خاص بالقاهرة إثر إجراء جراحة كبيرة كى تستطيع أمى أن تحضر عقد القران وهى مطمئنة على صحة حفيدتها . . وهكذا سافرت أمى مع شقيقى العريس وزوج شقيقتى وابنة اختى إلى

القاهرة لزيارة ابنة أختى ، وزاروها واطمأنوا عليها وتأسفوا لأنها ستغيب عن حضور القران وركبوا السيارة سعداء بأداء هذا الواجب فى طريقهم إلى مدينتنا . . فإذا بسائق نقل فاجر قاتل غائب عن الوعى ـ بفعل كل أنواع السموم ـ يظهر فجأة فى الطريق وهم على مشارف مدينتنا ويصدم سيارتهم صدمة مروعة يقتلهم جميعاً بلا رحمة : الأم والشقيق الشاب وزوجى الشقيقتين صحيحى البدن والعافية وصاحبى المركز المرموق واللذين لم يبلغ أطفالهما سن الحضانة ولا تنجو من هذا الحادث سوى ابنة شقيقتى رغم ضآلة جسمها وضعفها رحمة من رب العالمين بنا وبأمها التى فجعت فى أمها وأخيها وزوجها وزوج شقيقتها الصغرى ، ووقع الحادث البشع الذى زلزل كياننا وكتبت عنه لهول بشاعته الصحف ومنها صحيفتكم فى مايو الماضى . وبعد منتصف الليل بكثير وصل الأعزاء وخرجت المدينة بكل من فيها تودعهم إلى مثواهم الأخير فى موكب تقشعر له الأبدان ، والذى نود ألا يتكرر بهذا الشكل المؤلم وبكل هذا الكم من الأحباء الراحلين . . وبدلاً من موكب عرس أخى كان موكب وداع الأعزاء الذين أصابتنا فجيعتنا فيهم بكل أنواع الأحزان معاً . . فأمى . . وأنت تعرف ماذا تعنى الأم : الحياة بكل ما فيها والمحور الذى أدور فى فلكه . . الأخ العريس : الدم والرحم والأنس والعزوة والحياة بكل مباهجها . أزواج الشقيقات : الأهل والعزوة والفخر والتباهى واللمة والألفة . . كل هذه المعانى الجميلة والأشياء الثمينة انتهت إلى غير رجعة فى لحظة لا أدرى أكانت لحظة أم دهراً من الزمان . إن قلبى يقطر دماً

ولم تعد تجدى معى كلمات العزاء وقد كرهت كل شىء : الزمان والأيام وعملى ونفسى . . وكرهت الصيف والشتاء والليل والنهار وكرهت يوم الأحد الذى مات فيه أبى ويوم السبت الذى مات فيه أخى الأكبر ويوم الثلاثاء الذى مات فيه كل أهلى ، وأصبحت أتمنى الموت وأخاف من كل شىء وأتخيل أنى سأصحو ذات يوم فأجد بقية أحبائى قد فارقونى بعد كل من فقدت منهم فى عام وبضعة شهور ، وأخاف من كل دقة على الباب وكل جرس تليفون وكل ضوء نهار آت خوفاً من أن يحمل إلى نذير شؤم جديد .

إننى أكاد أجن وأخشى على عقلى من شدة عدم استيعابه لما حدث . . فهل صحيح كما قال الشاب فى رسالة « العيون الحمراء » متحسراً على ذكريات أبيه وخاله ؟ هل صحيح انتهى برنامج يوم الخميس الذى كانت تجتمع فيه الأسرة ؟ وقد كان لنا بمثابة الفرحة واللمة والاجتماع عند أمى بعد عناء العمل ومدارس الأولاد وكان نجومه اللآلىء كل هؤلاء الراحلين وطابعه الضحكة والسمر والحديث فى كل الموضوعات والائتناس بالأحباء مع الحبيبة الغالية أمى . . ونحن بأمى وبإخواتى وببعضنا البعض فى غنى عن الدنيا كلها، وندور فى فلك بعضنا البعض، لقد غاب كل ذلك الآن يا سيدى ويتمزق قلبى وأنا أرى شقيقتى التى تكبرنى مباشرة والأخرى التى تصغرنى وقد ترملتا فجأة وتيتم أطفالهما وفقدوا « السند والعكاز » اللذين أشار إليهما كاتب الرسالة الشاب . . وأنا على قدر من التدين وأقرأ القرآن وأصلى وأذكر الله كثيراً

لكن نار الفراق أشد وقد لجأت للمسجد للصلاة وسماع الدرس والوعظ ولم يجد كل ذلك معى ، فهل ستهدىء كلماتك من فزعى وحزنى وتخفف من ظلام الدنيا وسوادها حولى ؟! . . إنى آسفة للإطالة عليك لكنى لا أجد من أشكو إليه همى وأفتح له قلبى وأبوح له بمكنون وجدانى بعد أمى الحبيبة رحمها الله ورحمهم جميعاً وألحقنا بهم فى مستقر رحمته .

إننى أيضاً من عشاق قراءات الشيخ الشعراوى أكثر الله من أمثاله ومتعه بالصحة والعافية وأمنيتى الآن أن أجلس معه وأتحدث إليه أنا وإخوتى ، لعل قلوبنا تبرد قليلاً إذا حدثنا عن الموت والصبر والجزاء ومكانة شهدائنا عند خالقهم . . لكننا يا سيدى كرهنا السفر والانتقال من مكان إلى مكان بعدما حدث لأحبائنا ، فهل تراه يقبل أن يتكرم بزيارتنا لبعض الوقت عند ذهابه إلى بلدته التى لا تبعد عن بلدتنا سوى بضعة كيلو مترات ونحن نعلم أنه لا يتأخر عن نجدة أخيه . . كما نعلم أنك لا تتأخر عن بذل أى مسعى فى هذا الشأن للتخفيف عن المنكوبين والمعذبين . . ومن تسميهم « جرحى الحياة » .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

أنت يا سيدتى تعرفين كل ما يمكن أن يقال لك فى هذه المناسبات الحزينة ولعلك قد حفظت معظم مفرداته من كثرة ترديدها عليك ، لهذا فليس لدى الكثير مما قد أضيفه إلى ما لا بد قد سمعتيه من الفضلاء من حولك . غير أن هناك ـ فيما يبدو ـ أناساً لهم مكانة رفيعة فى دولة

المبتلين، وما أوسعها من دولة كما أن هناك مواقف مفجعة فى الحياة يصدق عليها قول الرسول الكريم « **هنا تسكب العبرات** » ومع كل ذلك فلسنا نملك إزاء أحزان الحياة الكبيرة إلا ان نتسلح ضدها بالإيمان والشجاعة وإرادة الحياة . . وبقبول أقدارنا والرضا بها . . والاعتراف لأنفسنا بأننا مهما استسلمنا للحزن فلن نعيد غائباً ولن نرد يوماً مضى من أيامنا الحبيبة إلى قلوبنا ولن نورث أنفسنا سوى أكباد مقروحة وأجساد عليلة تتحالف مع أحزان الحياة علينا بعد أن خسرنا ، كل ما خسرنا واستسلامك للحزن والخوف من المجهول ـ ولك بعض العذر فيه ـ يرجع فى تقديرى إلى رفض عقلك استيعاب ما حدث والتسليم به كحقيقة من حقائق الحياة المؤلمة التى لا نملك لها دفعاً ، وليس من الحكمة ولا من كمال الإيمان أن يظل الإنسان أسيراً لموقف رفض ما حدث مهما كان مفجعاً بغير أن يخطو خطوة إلى التسليم به وقبوله والتعامل مع الواقع على أساسه . فبذلك فقط تتخفف بعض أحزاننا . . وتسلمنا تدريجياً إلى نوع من الحزن الرفيق الذى يمكن معايشته واحتمال الحياة معه ولا مفر من ذلك ولا سبيل لنا سواه إذ ما دمنا لا نستطيع أن نغادر الحياة أو فندق الصيف الذى يستقبل النزلاء ويودع المغادرين كل حين كما كان يسميها الشاعر الألمانى العظيم جوته ، قبل موعد الرحيل فلا مفر أمامنا من أن نحاول أن نجعل إقامتنا فيه محتملة وليست جحيماً متصلاً تتقرح جلودنا فيه من لهيب الألم ، والشاعر العربى يقول مخاطباً ابنه الذى احتسبه عند ربه :

أقــرة عينى لـو فــدى الحـىُّ ميتــا

فـديتــك بالحــوباء أول من يفــدى

لكن هل يملك « الحى » حقا ان يفدى راحلا . . بل هل يملك هو من أمر نفسه شيئاً لكى يقدم فداءه أو لا يقدمه . . وهل نملك إلا أن نتصبر وأن نقول مع كل المبتلين والمهمومين « يا نفس لا تراعى » وإلا أن نردد معهم قول الحق سبحانه وتعالى « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً » مهما تعددت الأسباب واختلفت الظروف . . لا نملك غير ذلك فاهدئى نفسياً يا سيدتى . . ولا تخشى على عقلك شيئاً . . فأنت إنما تعانين من لسعة النار الحارقة التى لم يبرد أوارها بعد ، لكنها لا بد أن تخمد تدريجياً وسوف تخمد لأن للإنسان قدرة هائلة على احتمال الآلام ومواصلة الحياة طاوياً عليها جوانحه خاصة إذا ساعد نفسه على استدعائها لمواجهة أحزانه فاستجمعى قواك الداخلية للصمود أمام هذه المحنة الأليمة وتشاغلى عن أحزانك بالتماس السلوى والعزاء فى أعزائك الباقين من حولك . . وازدادى رعاية لهم والتصاقاً بهم لأنه عند هبوب العاصفة تتلاصق الأجساد لكى تستمد من تماسكها قوة تثبت أقدامها فى الأرض وتمنع اقتلاعها . . وانشغلى برعاية ورود الحديقة الباقية وأفرغى فى رعايتها كل أحزانك ، وهى جديرة بذلك حقاً ؛ لأن قيمتها تزداد وتتضاعف فى وجداننا بعد أن عصفت الرياح ببعض أزهارنا الغالية ، أما عن رجائك لفضيلة الشيخ الشعراوى بزيارتكم فلست أعرف ما إذا كانت ظروفه وصحته سوف تسمحان له بتلبية هذا الرجاء أم لا . .

لكنى سأبلغه له على أية حال وأرجو أن تكتبى إلى برقم تليفونك أو أبلغينى به مساء الاثنين القادم تليفونياً فلعله يستطيع أن يتحدث إليكم على الأقل فتصبرى يا سيدتى : « .. فمن يتصبر يصبره الله .. وما أعطى أحد عطاء خير .. أوسع من الصبر » كما جاء فى الحديث الشريف وشكراً .



خــارج الدائــرة !

أنـــا شاب فى التاسعة والثلاثين من عمرى . . نشأت طفلاً وحيداً ووجدت كل ما حولى يدعونى لحب الحياة فنحن نعيش فى بيت واسع فى إحدى المدن النائية التى تحكمها تقاليد خاصة وأبى يعيش فى إحدى الدول العربية ويرسل لنا ما يكفينا للحياة المريحة ووجدت نفسى فى سن المراهقة فتى مدللاً تجاب كل مطالبى بلا مراجعة وإذا تأخرت أمى فى تلبية أى مطلب لى أزمجر وأهدد وأتوعد بترك البيت . . وكلما تماديت جاءنى صوت أبى فى التليفون حانياً رفيقاً ينصحنى ويرجونى ويقول لى إننى كبرت وينبغى أن أتحمل المسئولية فى غيابه فأنتصح قليلاً ثم سرعان ما أعود إلى عصبيتى وعدوانيتى بلا سبب واضح . . ووسط هذه الظروف فوجئت بأمى تلد شقيقاً لى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى فتضاربت أحاسيسى تجاه المولود الجديد . ما بين السعادة بأخ جديد . . والضيق به . . والخجل من فكرة إنجاب أمى وأنا فى هذه السن . . وظللت أعانى هذه الأحاسيس المتضاربة لمدة سنة كاملة فإذا بى أفاجأ بأمى تنجب شقيقة جديدة ! وكنت قد بدأت دراستى الجامعية فبدأت أحس بأنى أنسحب تدريجياً من مركز الدائرة

الذى كنت أشغله من قبل إلى هامشها وعاد أبى للإقامة نهائياً فى بلدتنا بعد حوالى أربع عشرة سنة من الاغتراب وتفرغ لرعاية الطفلين والإغداق عليهما من حنانه فتعمق إحساسى تدريجياً بأن البساط يسحب من تحت قدمى وكان طبيعياً أن أتعثر فى دراستى ولم يكترث أبى وأمى بذلك كثيراً بعد أن سئما تكرار النصح لى . فازداد توترى إزاء ما يبديه أبواى من عدم اكتراث بثوراتى وتهديداتى . . فإذا ثرت قالا لى : افعل ما بدا لك وإذا هددت بترك البيت قالا لى ليكن ما تريد وعد حين تشاء . وجن جنونى . . ولم أغادر البيت واستسلمت للأمر الواقع ورضيت بوظيفة صغيرة حصلت عليها بمعجزة فى مدينتى البعيدة . . وتعقدت شخصيتى أكثر كلما قارنت بين المستقبل اللامع الذى أرى نفسى جديراً به . . وبين الوظيفة الصغيرة التى لم تؤهلنى شهادتى لأحسن منها ولاحظت بضيق وغيرة أن شقيقى وشقيقتى قد استحوذا على كل اهتمام أبى وأمى . وأصبحت أنا خارج الدائرة نهائياً . . وبالرغم من أنهما يتحملان ثوراتى فى صمت كأنى قدر مكتوب عليهما ولا يستجيبان لاستفزازاتى فلقد كانا يلبيان لى مطالبى ولا يقصران تجاهى فى شىء . ومضت سنوات العمر . . وأنا أزداد تعقداً وكبرياء . فأنا أذهب إلى الوظيفة الحقيرة التى لا تبعد عن بيتنا سوى بضعة بيوت راكبا السيارة التى أصررت على أن يشتريها لى أبى حين التحقت بالجامعة . . وأترفع عن مخالطة صغار الموظفين البؤساء وعن الاشتراك معهم فى المسامرة والحديث .

وأغدو إلى نادى المدينة للجلوس مع شلة الأطباء وضباط الشرطة

ورجال القضاء الذين يسهرون فيه والذين أشعر أنى من مستواهم وأسعى لاكتساب صداقتهم وتنفد نقودى بعد يومين من بداية الشهر . . فأمد يدى لأبى . . والويل والثبور لو لم يستجب لتبذيرى وإنفاقى على مظهرى وكبريائى، وفى التاسعة والعشرين من عمرى أردت الزواج . . وعرضت على أمى فتيات من الأسرة والأقارب لكننى صممت ألا أتزوج إلا فتاة من مستواى ومضت السنوات ومن تقبل بى لا أقبل بها ومن أقبلها لا تقبل بى حتى سرقنى الزمن وتأخرت فى الزواج وخلال ذلك كله كان شقيقى وشقيقتى يتقدمان فى دراستهما فى يسر وهدوء ويجمعهما حب غريب . . ويستذكران دروسهما معاً . . ويتحاشياننى بقدر الإمكان ويتحملان ثوراتى ورغبتى فى فرض سيطرتى على البيت كله فى صبر . ورغم قسوتى عليهما فى بعض الأحيان فقد كنت أحسدهما على ما يحمله كل منهما من حب للآخر . ولأبيهما وأمهما ، وأراهما من غرفتى التى أجلس بها وحيداً يذاكران ويتناجيات ويتضاحكان أو يتشاركان فى إعداد وجبة عشاء طريفة ويأكلان معاً فى سعادة . . فأزداد إحساساً بالوحدة والكآبة والانعزال ورغم ذلك فلم أحاول الاقتراب منهما .

وكبر شقيقاى ودخلا المرحلة الثانوية وتقدما فى الدراسة وتقدمت أنا فى العمر حتى بلغت الثانية والثلاثين وما زلت أعزبَ وحيداً منعزلاً عن الناس .

ثم عدت ذات يوم إلى البيت فوجدت شاباً وسيماً فى ضيافة أبى وأمى وشقيقى وحييت الضيف وانصرفت إلى غرفتى فاستدعانى أبى وعرفنى

بالشاب وقال لى إنه مهندس جاء عن طريق شقيقى ليطلب يد شقيقتى وإنهم يوافقون عليه جميعاً من ناحية المبدأ وينتظرون رأيى باعتبارى الأخ الأكبر . . فإذا بشياطين تثور فجأة فى مواجهة الضيف وإذا بى أقول بصوت عال : ومن أدراكم أنى سأوافق عليه . . لا لست موافقاً ، وأحس الشاب بالحرج الشديد فاستأذن فى الانصراف وانصرف ولم يعد مرة أخرى . واغتم أبى لما حدث . وبعد ذلك بعدة أسابيع فاتحنى صديق لى موظف بإحدى المصالح فى مدينتنا ويحمل مؤهلاً متوسطاً ويبلغ من العمر ٣٣ سنة فى خطبة شقيقتى ، وبالرغم من أن كل ظروفه لا ترشحه للزواج منها حيث يكبرها بـ ١٥ سنة وليس من أسرة كبيرة ولا مستريحاً مادياً ولا صاحب وظيفة مرموقة فقد وجدت نفسى أرحب به وأدعوه لزيارة البيت بدون استشارة أبى واعتماداً على مكانتى وسيطرتى على الأسرة . جاء صديقى مع والدته وفاتحا أبى فلم يعترض لكنه أرجع كل شىء لموافقة شقيقتى . . وسألها عن رأيها فقالت إنها تفضل أن تكمل دراستها . . فاتفقنا على تأجيل بحث الموضوع إلى وقت آخر . . وما أن انصرف الضيفان حتى هجت كالبركان هياجاً شديداً متهماً أختى والجميع بأنهم يريدون إحراجى مع صديقى وأعلنت أن أختى لا بد أن توافق عليه شاءت أم أبت حرصاً على كرامتى وكلمتى وأرادت أختى تهدئتى فطلبت مهلة للتفكير . . وتكررت زيارة صديقى للبيت دون أن نعطيه كلمة قاطعة ، وكلما انتهت زيارته عدت للهياج والثورة على كل من فى البيت وأبى صامت لا يملك لى شيئاً . . وأمى

صامتة عاجزة وشقيقى يحاول التفاهم معى بهدوء فأكاد أبطش به حتى يتدخل بيننا أبى وينقذ الموقف .

وفى وسط هذه الزوابع فاجأتنا أختى بإعلان موافقتها على الخطبة حسماً للنزاع وطلباً لعودة الهدوء للأسرة ورغم إدراكى أنها توافق كارهة فقد سعدت بموافقتها وتم تحديد موعد للخطبة . . وجاء صديقى ومعه أهله وتمت الخطبة وهنأنا جميعاً شقيقتى رغم الحزن الواضح فى وجهها ورغم الدموع التى تفلت من عينيها وانصرف الخطيب وأهله . . وعاد كل منا إلى غرفته ومضت ساعة ثم فجأة سمعت صرخة عالية . . فجرينا إلى مصدر الصوت فإذا بأختى والنيران تمسك بملابسها وهى تصرخ صرخات رهيبة وبكل ما استطعنا من قوة رحنا نحتضنها بالبطاطين لنطفىء النار . . وهى تصرخ صرخات تدمى القلب وتبكى ونقلناها للمستشفى على عجل فبقيت فيه أسبوعين لم تكف خلالهما عن الصراخ والعويل والبكاء ثم . . ثم . . فاضت روحها إلى بارئها . . وتركت وراءها الكآبة والحزن وعذاب الضمير . . ومنذ ذلك اليوم الأسود وأمى لا تكف عن البكاء . . وأبى يواسيها أحياناً ويشاركها البكاء فى أحيان أخرى . . وشقيقى فى حالة قاتلة من الحزن والوجوم واليأس لا يبكى ولا يتكلم ولا يخرج ولا ينظر إلى . . وإذا نظر فبكل كراهية الدنيا وكل الاحتقار .

أما أنا . . فمن أنا . . وماذا فعلت . . وماذا جنيت على أسرتى وعلى أختى البريئة التى لم تغضب أحداً ولم ترد على ذات مرة رداً جافاً ولم

تقابل إساءاتى لها إلا بالدموع الصامتة أنا آسفة وهـى غير مخطئة .

لو كان البكاء يفيد لما توقفت عنه لحظة . . ولو كان الندم يعيد ما راح فأنا نادم حتى آخر العمر . . فلقد استيقظ ضميرى . . ولكن متى؟ إننى أنتظر كلماتك الحانية . . لعل أبى وأمى يجدان فيها ما يخفف عنهما نكبتهما . . أما أنا فإن شئت أن تسبنى أقذع السباب فافعل . . فإنى أستحق كل ما سوف تقوله . . وأريد أن أعاقب نفسى وأتطهر من ذنبى وأخفف عن أبى وأمى وشقيقى . . فماذا أفعل . . وماذا تقول لى؟

●● ولكاتب هذه الراسلة الأليمة أقول :

ليس لك عندى يا سيدى سباب مقذع ولا شتائم ، لكن لك عندى تحليل مؤلم لأسباب نكبة أسرتك بك التى بلغت قمتها الدرامية بهذا الحادث المفجع . فأنت يا سيدى نموذج « مثالى » لما تثمره التربية الخاطئة من كائنات بشرية تخصم من الحياة ولا تضيف إليها أبداً . وظروفك التى نشأت فيها هى الظروف « النموذجية » لإفراز هذا النوع من البشر ابتداء من التدليل الزائد عن كل حد للابن الوحيد إلى الاستجابة لكل طلباته ورغباته ونزواته بلا أدنى مراجعة أو ترشيد . . إلى الفزع الطفولى من تهديداته الجوفاء التى لا يستطيع عملياً أن ينفذها وإنما يستخدمها فقط للضغط على الأبوين المتهافتين لإملاء رغباته . . إلى غياب الأب الطويل عن الإشراف على تربية الابن فى سنوات التكوين الأولى ومرحلة المراهقة بغير حزم بديل من جانب الأم يعوض هذا الغياب

. . إلى الصوت « الحانى » الذى كان يأتى عبر الأثير لينصح فى رفق ولين ويكاد يتوسل بدلاً من أن يأخذ بالحزم الرشيد . إلى تكريس الأنانية فى نفسك بسبب هذه الأخطاء كلها . . إلى تفاعل أنانيتك واعتيادك الإحساس بأنك مركز الكون مع تغير المعاملة الفجائى من جانب أبويك وانصراف اهتمامهما عنك بدون تدرج إلى شقيقيك ونفض يديهما منك يأساً وقنوطاً بدون مقدمات وبدون محاولة جدية للعلاج . . إلى فشلك الدراسى وتناقضه مع إحساسك غير المبرر بتفردك وامتيازك . . إلى عجزك عن التواصل مع أبويك وشقيقيك وزملاء العمل وافتقادك للأصدقاء الحقيقيين وما تعترف به أنت نفسك من عصبيتك وعدوانيتك . . إلى عزلتك المتكبرة وعجزك عن ممارسة الحب الإنسانى لأى إنسان من أبويك إلى شقيقيك إلى الأصدقاء إلى المرأة لأن قلب الأنانى لا يتسع غالباً لأكثر من حب الذات .

فتضافرت كل هذه العوامل السلبية لتثمر هذا « الأنا المتضخم » العاجز عن التواصل مع الآخرين والذى لا يقترب من أحد إلا آذاه أو جرح مشاعره ربما بغير قصد أحياناً .

ولقد كان من الممكن أن تظل كما أنت محدود الأثر والخطر على الآخرين لو لم تستجب لنوازع كبريائك الممقوتة وتقحم نفسك على حياة شقيقتك البريئة وتعتبر خطبتها لمن تعتبره صديقك وما أظن أنك تعرف نعمة الصداقة الحقيقية ، مسألة كرامة شخصية لك فتتجاهل أبسط الاعتبارات التى يحرص عليها الإخوة الحقيقيون وهى سعادة الأخت

ورغبتها فيمن تتزوجه . . فكانت الكارثة أن استجابت لك المسكينة كارهة لترحم أسرتها من الجحيم الذى صنعته لها ، ثم حين تحول الأمر إلى واقع لم تحتمل مجاراتك فيه إلى النهاية فاستجارت بلهيب النار من لهب أنانيتك وقسوتك .

وليتها ما فعلت ولا استجابت لك من البداية ولا أرضت غرورك بقبولها وموافقتها وهى كارهة . وليتها واجهتك بالرفض بشجاعة حتى النهاية وليكن من أمرك ما يكون . . وليت أبويك كانا أكثر صلابة معك وأكثر قدرة على فرض إرادة الأسرة عليك أو إبعادك عن التدخل فى حياة شقيقتك . . إذن لنجت الفتاة الوديعة من هذا المصير المؤلم . . ولنجت الأسرة كلها من هذا السعير .

يا إلهى . . كيف تقف نصوص القانون عاجزة عن القصاص من أمثالك ؟

أليست القسوة العقلية التى تدفع فتاة وديعة للتخلص من حياتها جريمة بشعة تستحق العقاب الذى يعاقب به القانون على جريمة القسوة المادية ؟

أليس الإكراه النفسى جريمة تستحق عقاباً كعقاب جريمة الإكراه البدنى ؟

وأليس هذا قتلاً بغير سلاح إلا سلاح القسوة والأنانية وضيق الأفق والتكبر الأجوف ؟

إنك تنتظر منى كلمات حانية . . ولقد حاولت جاهداً أن أنسج بعضها فعجزت رغم صدق رغبتى فى مواساة أبويك والتخفيف عنهما إذ ماذا تستطيع الكلمات أن تقدم لهما ونكبتهما قديمة ولم تبدأ بهذا الحادث الأليم وحده ؟ عسى الله إذن أن يخفف من أحزانهما على هذه الزهرة البريئة . . وعسى الله أن يخفف من آلام شقيقك الذى فقد توءم روحه ورفيقة ملاعبه وصباه .

وعساك أنت أن تكفر عن جرائمك فى حق أسرتك وفى حق الحياة بالتخلص من كل آثامك وأنانيتك وعدوانيتك وبصدق الندم والتوبة والاستغفار وبانتهاج النهج القويم فى معاملة أبويك وشقيقك مدى الحياة وبالبكاء ندماً على آثام لا يغسلها إلا موج الدمع الصادق ولا يطهرها إلا صدق التوبة .

وإنى لأعتبر رسالتك هذه واعترافك بكل ما فعلت وإدراكك له ومراجعتك لحياتك على هذا النحو . . أول خطوة على هذا الطريق فعسى أن تواصله للنهاية .

وقديماً قال أحد الفلاسفة : حين تبدأ معركة المرء مع نفسه وحسابه لها يصبح فى تلك اللحظة فقط جديراً بحمل لقب إنسان !


** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb



قرأت رسالة خارج الدائرة للشقيق الذى يحكى عن أنانيته وتسلطه على أسرته حتى تسبب فى انتحار شقيقته البريئة بحرق نفسها . . فانفجرت الدموع من عينى حزناً عليها . . وعلى كل ضحايا الأنانية والقهر والتجبر فى الحياة وأنا منهم . فلقد نشأت فتاة وحيدة بين أخوين يكبراننى وأبوين طيبين مغلوبين على أمرهما وكان لى إخوة غير أشقاء من أمى تزوجوا وأقاموا فى القاهرة . . فى حين نقيم نحن فى إحدى المحافظات .

ولأن أبى كان قد تزوج قبل أمى ولم ينجب فقد كان شديداللهفة على الإنجاب وحين أنجبت له أمى طفلين غمرهما بحبه وحنانه وكرمه بالرغم من أنه عامل بسيط بإحدى الهيئات الحكومية ثم جئت أنا إلى الحياة فوجدت لى شقيقين مختلفين فى الطباع أحدهما وهو الأكبر مثال للطيبة والحنان والعطف والآخر وهو الأوسط نبات برى متمرد على أى سيطرة وشديد الأنانية والشراسة مع الجميع وحين وصلت إلى السنة الخامسة الابتدائية أحيل أبى للمعاش وخاب أمله فى أن يواصل ابنه الأكبر تعليمه فى الثانوى العام لعدم حصوله على المجموع اللازم فالتحق أخى الأكبر

بالتعليم التجارى وكذلك الشقيق الثانى أيضاً . . فى حين واصلت أنا تعليمى بتفوق وكان ترتيبى دائماً فى المدرسة الابتدائية والإعدادية الأولى وبدا للأهل أنى سأكون أول من تحقق أمل أبيها فى الوصول للتعليم العالى ، وكان من الممكن أن أسعد بذلك لولا شقيقى الأوسط الذى يتفنن فى إيذائى وضربى بلا سبب أو لأتفه الأسباب حتى يتورم جسمى وتنتشر البقع الزرقاء فيه ، ويتعمد إهانتى وإذلالى أمام صديقاتى وزميلاتى فى المدرسة حين يزرننى وأبى عاجز عن كبح جماح ابنه الشرس ولا يملك له إلا الرجاء والدعاء بعد أن تطاول عليه عندما حاول حمايتى منه وأمى أكثر عجزا . وأنا أبكى وأستجدى منه الرحمة كلما بدأ ضربى بقسوة وأستحلفه أن يكف عن ضربى وأقول له وأنا أتلقى الضربات باكية : يارب يخليك أنا أختك حرام عليك كفاية . . فيتمادى ولا يتركنى إلا جثة هامدة ويحدث ذلك كل مرة وشقيقى الكبير خارج البيت فلا أضرب إلا فى غيابه حيث أنه الوحيد الذى يتصدى له ويحمينى منه .

وتصبح المشكلة هى كيف نخفى عنه ما حدث . . وكيف نبرر له البقع الزرقاء والسوداء فى وجهى وجسمى تجنبا لتجدد المشاجرات بينهما بعد أن كثر بينه وبين شقيقى المتجبر العراك بسببى وظلت حياتى هكذا طوال طفولتى وصباى حتى استقر الجبن والرعب فى قلبى من هذا الشقيق إلى درجة أنى كنت إذا دخلت غرفة ووجدت بعض ملابسه فيها تملكنى الخوف وفزعت كأنه سيخرج من بينها ويضربنى مع تاكدى أنه غير موجود فى البيت .

ورغم هذا العذاب فقد كان ترتيبى الأول فى الشهادة الابتدائية كما أشرت والتحقت بالمدرسة الإعدادية وخفف حنان أخى الأكبر وعطفه على من جراحى وآلامى ومضت الأيام بخيرها وشرها إلى أن بلغت السنة الثالثة الإعدادية وكان شقيقى الأكبر وسندى الوحيد فى الحياة قد أنهى دراسته التجارية واستدعى لأداء الخدمة العسكرية . وانفرد شقيقى الآخر بالسيطرة على مقاديرنا وفى يوم لا أنساه لأنه كان يوم عيد الأم منذ تسع سنوات وكانت المدارس تحتفل به ، خرجت مع زميلاتى فمررنا فى طريقنا للبيت بالمدرسة الابتدائية للبنين المجاورة لمدرستنا وسمعنا الأصوات الصادرة من الحفل الذى تقيمه المدرسة فى فنائها بهذه المناسبة فوقفنا على البوابة نتفرج لحظات ورفضت دعوة زميلاتى للدخول معهن رغم وجود تلميذات كثيرات فى الحفل لأن هاتفاً حذرنى من الدخول خوفاً من أن يكون أخى « المتوحش » فى الداخل . . ولم أدخل . . لكن لسوء حظى لمحنى شقيقى الذى كان موجوداً بالفعل ورأيت عينيه تطلقان الشرر وهو ينظر إلى فهرولت إلى البيت وأنا لا أرى الطريق من هول ما ينتظرنى . . ورفضت تناول طعام الغداء مع أنى أخرج للمدرسة بدون إفطار وسألنى أبى وأمى عن السبب فصارحتهما «بالكارثة » وناشدت أبى أن يحمينى لكن ماذا يستطيع الأب الشيخ الضعيف أن يفعل مع هذا الوحش الكاسر بعد أن ناله من أذى لسانه فى حالات مماثلة الكثير لقد آثر الانسحاب متألماً وغادر البيت حتى لا يرانى وأنا أجلد وأضرب وحانت ساعة العقاب وعاد شقيقى سامحه الله وانهال على

ضرباً وركلاً وجلداً حتى تورم جسدى كله وانغلقت عيناى من الورم والهالات السوداء والزرقاء . . وأعلن الحاكم بأمره قراره الخطير بأنى لن أذهب للمدرسة مرة أخرى وصعقنى الخبر أكثر مما صعقنى الضرب والإيذاء لأن المدرسة متنفسى الوحيد الذى أجد فيه نفسى مع زميلاتى اللاتى يحببننى ومع المدرسات والمدرسين والناظر الذين يحبوننى ويشجعوننى فقد كنت أكتب الشعر والزجل وألقيهما فى الإذاعة الصباحية وأشيع حولى جواً من البهجة والمرح رغم ما ألاقيه من عذاب وهوانٍ فتوسلت إليه ألا يحرمنى من المدرسة فلم يتزحزح عن موقفه ونمت كالقتيلة ولا أعرف كيف استغرقت فى النوم فصحوت فى الصباح الباكر فزِعَةً على ركلات عنيفة وفتحت عينى مرتعبة لأجد شقيقى يركلنى بعنف ويبصق علىّ سامحه الله ويتوعدنى بأنه . . ورائى ورائى والزمن طويل كأن بيننا ثأراً قديماً ثم غادرنى فإذا بيأس الدنيا كله يهبط على ونهضت وجسمى كله يرتعش وكانت الساعة السابعة صباحاً فوجدت نفسى أتجه إلى المطبخ ثم تناولت « جركن » الكيروسين وسكبته كله على نفسى حتى بلل جسمى وملابسى . . وأمسكت بعلبة الكبريت وأشعلت عوداً ثم قربته من طرف ملابسى ورأيت النار تمسك بها وأنا لا أصرخ لكن آه . . يا سيدى وآه . . حين اشتدت النار وامتدت لجسمى . . مهما قلت لك فلن أستطيع أن أصف لك الألم الذى أحسست به ، لقد رحت أصرخ وأصرخ وأصرخ وزلزلت صرخاتى الجدران وأنا أجرى كالمجنونة فإذا بأمى المريضة تحتضننى وأنا مشتعلة فتحترق يداها وهى تبكى وتصرخ وأنا

أبكى وأصرخ واذا بأخى الظالم يختطفنى منها ويلفنى ببطانية . . ونقلونى بسرعة بسيارة أحد الجيران للمستشفى . وكان أبى فى ذلك الوقت خارج البيت يتسوق بعض مستلزمات البيت فأبلغوه بالخبر فجاء إلى المستشفى وهو يبكى بكاء مرا وكانت المرة الأولى التى أراه فيها يبكى بالرغم من إهانات أخى له المتكررة .

واحتجزت فى المستشفى تحت العلاج ورقد أبى فى البيت مريضا . . وجاءتنى زميلاتى والمدرسات والمدرسون والناظر الفاضل . . ورأيت الدموع فى عيونهم جميعا وهم يواسوننى ويهونون على ويعرضون على مساعدتى فى مراجعة دروسى بالمستشفى استعدادا للامتحان القريب .

وجاء أخى الطيب فى أجازته وهو لا يعرف شيئا عما جرى لى وفى المحطة قابله بعض الأشخاص وأبلغوه بالخبر فلم ينتظر سيارة تحمله إلى المستشفى وإنما انطلق يجرى بكل سرعته لمسافة أربعة كيلو مترات حتى دخل على وهو يبكى . . وعلم الجانى بعودته فلم يجرؤ على دخول البيت وهو فيه واختفى حتى انتهت أجازة أخى ، وعاد لوحدته العسكرية وظل يتفادى لقاءه والإقامة فى البيت كلما عاد فى أجازة لفترة طويلة .

أما أنا فقد بدأت أتماثل للشفاء وأكرمنى ربى بأن لم تكن حروقى عميقة أو ظاهرة إلا القليل منها وجاءتنى مدرساتى أكرمهن الله يراجعن معى دروسى . . وزارنى الناظر الفاضل وعرض على أن يعقد لى لجنة خاصة لامتحانى فى المستشفى فاعتذرت بمشورة مدرساتى الفاضلات حتى لا يقال إنى نجحت بالمجاملة ولأنى كنت واثقة من نفسى وبعد

أربعين يوماً غادرت المستشفى . . وتقدمت للامتحان بعد عشرين يوماً ووفقنى الله فى النجاح بمجموع معقول والتحقت بالمدرسة الثانوية لكن شيئاً جوهرياً كان قد تغير فى روحى فأصبحت منطوية وعازفة عن الاختلاط بالزميلات وبالصديقات ما عدا صديقتين وساهمت آثار حروقى فى هذا التغيير . وكف شقيقى الظالم أذاه عنى خلال هذه الفترة ثم توفى أبى رحمه الله . . وأنهى أخى الطيب تجنيده وسافر للعمل فى العراق وخلا الجو تماماً لشقيقى الأوسط فإذا به يعود إلى ضربى وإيذائى من جديد وأنا بالسنة الثانية الثانوية ولم يجد شقيقى الطيب حلاً لمأساتى معه سوى أن يرسل له من العراق نقوداً لكى يلحق به ويعمل معه بعد أن أنهى تجنيده . . وسافر شقيقى المتمرد إلى هناك . . والتقطت أنفاسى لأول مرة منذ وعيت لنفسى . . وعرفت لأول مرة الحياة بلا رعب أو خوف لكننى فقدت الكثير من حماسى للحياة . . فلم أبذل جهداً كبيراً فى الاستذكار فى الثانوية العامة ودخلت الامتحان معتمدة على ما استوعبته من شروح الدروس فى الحصص ونجحت بمجموع ضئيل جداً لم يؤهلنى إلا للالتحاق بمعهد فوق المتوسط وحصلت على الشهادة . . وسافرت إلى أخى من أمى فى القاهرة للعمل . . فعملت شهرين فى محل للملابس الحريمى ثم تم الاستغناء عنى لأنى لا أعرف كيف « ألاغى الزبائن » وتجمع لدى مبلغ من أجرى فأرسلت لأمى بعضه وبقى معى خمسون جنيهاً فجاء شقيقى إياه وأخذها منى لأنه كان قد خطب ثم سافر للعراق مرة أخرى تاركاً وراءه لأمه ديوناً كثيرة ، ثم عملت بعد

ذلك فى الشركة التى يعمل بها أخى لأمى وبعد عملى بأسابيع تقدم لى مهندس مطلق له طفلان وعمره تسعة وأربعون عاماً وتقدم لى شاب من زملائى . . ففكرت فى أن الشباب لن يطيق رؤية ما لا يحب من آثار الحروق بالرغم من أن حروقى سطحية وليست ظاهرة أو مفزعة وفضلت قبول المهندس المطلق بالرغم من أن عمرى ٢٤ سنة . . وصارحته بوضعى وحروقى فأبدى تمسكه بى لأخلاقى وتدينى واتفقنا على أن ننتظر عودة شقيقى الأكبر من الخارج ليبارك الزواج فعاد بعد خمسة شهور . . وعرضت عليه الموضوع . . فرفضه قائلاً أن حروقى ليست ظاهرة ولا مفزعة ولا تبرر أن أتزوج مطلقاً له أولاد ويكبرنى بـ خمس وعشرين سنة . . ورأى أن أترك العمل بالشركة وأن أعود معه للإقامة فى بيتنا بالقرية الصغيرة . . ولم أعارضه وعدت معه سعيدة بحبه واهتمامه بمصلحتى وعدنا للحياة مرة أخرى تحت سقف بيت واحد أنا وأمى الحبيبة وشقيقى الحنون وعاد الأخ القاسى بعد قليل من العراق ورفض أن يقيم معنا فى معيشة واحدة وأخذ كل ما يستحقه فى ثمن البيت المتواضع الذى بناه أخى الكبير بما كان يحوله من مال على قطعة أرض مشتركة وعاش فى مدينة مجاورة منفصلاً عنا . وبالرغم من أنى فشلت فى الحصول على فرصة عمل كمدرسة بالحصة لكى أشغل نفسى وأوفر بعض النقود لشراء احتياجاتى وذلك لانعدام الواسطة . . وبالرغم من أن أخى قد فقد الأمل فى صرف حوالاته المتأخرة عن ثمرة كفاحه وغربته فى العراق فى ظل أسوأ الظروف . الا أن الحياة تمضى . . ولقمة العيش الجافة فى جو

من الحب الأسرى والعطف والأمان أشهى من أى طعام فى ظل الخوف والكراهية والشقاق والمشاكل والحمد لله على كل حال وأنا متأكدة أن الله سوف يعوضنى عما عانيت وسوف يعطينى خيراً كثيراً عندما يأتى الأوان لأنى أرعاه فى كل شىء وأملى فيه كبير دائماً . . والسلام عليكم ورحمة الله .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

« الإنسان هو ما يفعله » كما جاء عرضاً على لسان أحد شخصيات الأديب والمفكر الفرنسى اندريه مالرو ، فإن اختار أن يكون كائناً مجرداً من الرحمة والعطف والعدل والمشاعر فليؤهل نفسه لحصد كراهية الآخرين وازدرائهم ونفورهم ومعاملتهم له كمنبوذ قد يسلمون أحياناً اضطراراً بوجوده بينهم ، لكنهم أبداً لا يتواصلون معه ولا يتسلل إلى قلوبهم ولا يسعدون باقترابه منهم . وليعتبر نفسه كما قال هنرى ثورو عمن يخلو من كل المشاعر الإنسانية الطبيعية « ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخور » وليس شقيق أحد من البشر أو ابن عمه . . مع أنه حتى الأشجار والنبات قد أثبت العلم أنها تحس وتشعر . . فكيف إذن ببنى البشر ؟ أما من شاء أن يكون بشراً كالبشر وكما أراد له خالقه أن يكون وأودع روحه وقلبه قبساً من رحمته وعدله . . فليهنأ بحب المحبين . . وعطف المتعاطفين واحترام الحياة وراحة القلب والضمير ولا بد أن هذا هو حصاد شقيقك الأكبر العطوف الآن منك ومن أمه ومن الأهل

والأصدقاء والمعارف عدا ما ينتظره من جوائز ربه الأخرى بعد حين فأيهما الخاسر الحقيقى وأيهما الفائز ! ؟

لقد كان شقيقك الأكبر عادلاً معك فى كل مراحل حياتك . . وبلغ قمة عطفه ورحمته بك حين أصر على ألا يوافقك على الاقتران بمن يكبرك بـ خمس وعشرين سنة ، ليس فقط لأنه لم يكن مناسباً لك من ناحية السن أو أعباء الأبناء وإنما وهو الأهم لأن دافعك إليه كان الإحساس الخاطىء بأنك لا تستحقين من هو أكثر شباباً منه وأقل أعباء عائلية . . لهذا لم يكن غريباً أن تتقبلى حكمه راضية لأنك على ثقة من أنه حكم صادر من موقع الحب والتقدير لك وليس من موقع الأنانية والإرغام .

أما شقيقك الآخر فليهنأ بما فعل وليحصد حصاد ما غرس ما لم يكفر عنه تكفيراً كافياً . . فلقد كان سوء فهمه لطبيعتك التى تميل للمرح والابتهاج فى تقديرى وتفسيره لها بأنها « تحرر » يتطلب التشدد معك هو السبب الظاهرى لهذه القسوة الإجرامية التى عاملك بها . . لكن المؤكد أن أسبابه الخفية التى ربما لم يكن هو نفسه يعيها وعياً كاملاً ، كانت تكمن فى إحساسه بالنقص إزاء تفوقك الدراسى وغيرته الذميمة منه بالإضافة إلى ما أشرت إليه أنت نفسك من تدليل الأب وضعفه معه وعجزه عن كبح جماحه وشراسته الطبيعية أو المكتسبة إذ بالرغم ان هذه الظروف نفسها كانت قائمة تقريباً بالنسبة للأخ الكبير إلا أنها لم تثمر ثمارها الفاسدة فى نفسه لميل غريزى فيه للإنصاف والتراحم .

على أية حال فلقد انقضت « تلك السنون وأهلها » كما يقول الشاعر

ولم تبق إلا حفائر الذكريات الأليمة فى النفس وبعض آثار لحظة اليأس المريرة التى أقدمت فيها على محاولة التخلص من حياتك فأنقذك ربك مما لم يقدّر عليك وأعاد تلك الثقة فى نفسك وفى الحياة وفى الفضلاء من عباده الذين أحاطوك بعطفهم ومشاعرهم بعد الحادث .

ومع يقينى دائماً بأنه لا يقدم على الانتحار إنسان لديه بقية من أمل فى رحمة ربه ومع ما يمثله ذلك من تناقض مع الإيمان بالله سبحانه وتعالى فلقد تأثرت بوصفك المؤلم للمشهد الذى دفعك للإقدام عليه وبتفاصيل المحاولة ومشاعرها الرهيبة . . جنبك الله وجنب الجميع الآلام وعجل لك بحسن الجزاء إن شاء الله .



يسعدنى أن أكتب إليك للمرة الأولى بعد أن قرأت رسالة «سائق الأتوبيس» التى تحكى قصة زواجه من طالبة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ومعارضة أبيها لهذا الزواج . . وتمنيت بعد أن قرأت الرسالة أن ألتقى بوالد هذه الفتاة وأن أحكى له حكايتى لعله يجد فيها ما يطمئن خواطره ويدفعه لأن يخفف من إصراره على طلاقها ولأن يتركها لاختبار الحياة كما نصحته أنت بكلامك الجميل مادامت قد تزوجت وقضى الأمر ولم يعد يُجدى الإصرار على الطلاق .

فأنا سيدة شابة نشأت فى أسرة ميسورة تقيم فى أحد أحياء القاهرة الراقية وعند نجاحى فى الثانوية العامة والتحاقى بكلية الطب اشترى لى أبى سيارة لكى أذهب إلى الكلية وأعود بها فى أوقات متأخرة، ثم عدت ذات يوم متأخرة بعد انتهاء يوم الدراسة فوقع حادث تصادم بين سيارتى وسيارة شخص آخر وتعرضت سيارتى لأضرار كبيرة . وكان قائد السيارة الأخرى مخطئاً فعرض على تسوية الأمر وديًّا وأن يدفع لى مبلغاً من المال كتعويض فرفضت قبول المبلغ وطلبت منه أن يتولى هو إصلاح السيارة

وإعادتها إلى ما كانت عليه بمعرفته ، ووافق على ذلك وذهبنا معاً إلى محل لسمكرة السيارات وتحدثت مع السمكرى الشاب الذى يقوم بالعمل عن تكاليف الإصلاح والفترة التى يستغرقها . وتركت له مفاتيحها واسمى وعنوان الكلية ليبلغنى بعد انتهاء إصلاح السيارة وأثناء جلوسى فى الورشة التى تقع فى حى شعبى عاملنى الشاب بكرم وحياء وعرفت أن الورشة يملكها والده . . وتركته وهو يطمئننى إلى أن السيارة ستعود أحسن مما كانت وسوف يرسلها بعد السمكرة للدهان وسيتم كل شىء على مايرام، وعدت إلى بيتى فوجدتنى أفكر فى هذا الشاب وفى كرم أخلاقه ورجولته . وبعد أسبوع جاءنى السمكرى الشاب فى الكلية لتسليمى السيارة فاقترحت عليه أن نجلس فى مكان عام لأشكره على مجهوده معى . . ولا أخفى عليك أن قلبى كان يخفق بشدة حين اقتربنا من المكان الذى سنجلس فيه . أما هو فكان فى شدة الخجل والحياء . وجلسنا وشكرته كثيراً وطالت الجلسة وأعطيته رقم تليفونى ومواعيد وجودى فى الكلية . وبدأنا نلتقى يوم أجازته الأسبوعية من الورشة وربط الحب بين قلبينا وتعاهدنا على الزواج بعد انتهاء دراستى بكلية الطب . وطلبت منه شيئاً واحداً هو أن تكون له ورشة سمكرة خاصة به ليكون له كيانه المستقل ووعدنى بتحقيق ذلك خلال الفترة الباقية من دراستى، وعند نجاحى أهدانى سلسلة وخاتماً من الذهب كانا بالنسبة لى أثمن من كل كنوز الأرض . وأبلغنى أنه قد اشترى نصيب أبيه وشقيقه فى الورشة وأصبحت ملكاً خالصاً له ، وجاء اليوم الذى سيتقدم فيه



لأسرتى . فجاء إلى بيتنا ومعه والده وأمه وأخوه وأخته المتزوجة . . ورحب به أبى ثم بدأ يوجه إليه الأسئلة التقليدية فسأله عن شهادته والكلية التى تخرج فيها وعمله إلخ وكنت بالطبع أعرف كل شىء عنه وأعرف أنه لايحمل أى شهادة لكنه تخرج بامتياز فى كلية الحياة التى تعلم فيها كيف يعامل الناس ولم يكن أبى يعرف شيئاً من ذلك ، وانتهت الجلسة وانصرف الضيوف وبعد مشاحنات ومشاكل كثيرة انتهى أبى إلى رفض هذا الزواج نهائياً . ولاقيت بالطبع الأمرين فى المعاملة من أسرتى لتمسكى بهذا الشاب حتى هددنى أبى بمنعى من الذهاب إلى عملى بالمستشفى لكنى لم أتنازل عن حبى وأملى . . وبعد محاولات طويلة ذهبت مع حبيبى إلى المأذون ومعنا اثنان من الشهود وعقدنا قراننا فى مكتب المأذون . ولست بالطبع أشجع الفتيات على أن يفعلن مثل ذلك فلاشك أنه خطأ كبير لكنى كنت يائسة من إقناع أبى بقبوله وقبلت الذهاب للمأذون على غير إرادة أبى وأنا فى أشد حالات اليأس من أن يغير موقفه .

وعرف أبى بعقد القران فهددنى بإرغامى على الاستقالة من عملى وبإبلاغ الشرطة ضد زوجى .واتهامه بخطفى . . وتم استدعاء زوجى فأظهر قسيمة الزواج وانتهى كل شىء .

وكان زوجى قد أعد عش الزوجية فى الجيزة فانتقلت إليه وقاطعتنى أسرتى وبدأت أفكر فى حياتى الجديدة مع زوجى الذى يختلف عنى فى كل شىء ، لكن شخصيته القوية وأخلاقه ورجولته وحسن تفكيره غطت

على كل الفروق . وعشت معه أيامى السعيدة ووفر لى كل متطلبات الحياة الزوجية وعلمنى أشياء كثيرة فى الدين لم أكن أعلمها وأنا الطبيبة الجامعية واصطحبنى معه لأداء العمرة أكثر من مرة . . وأدينا فريضة الحج معاً وأصبح زوجى كل شيء فى حياتى ومنحنى أسرة صغيرة جميلة من بنتين وولد ووهبنى الحنان والحب والاحترام . واستمررت فى عملى وكنت أترك أطفالى فى بيت والدته لأن أسرتى استمرت على مقاطعتها لى ، ثم بدأت الحياة تعود إلى مجاريها بينى وبين أسرتى بعد أن رأتنى أعيش فى سعادة واستقرار مع زوجى . . وبعد أن قارنت حياتى الآمنة مع زوجى السمكرى وأقولها بكل فخر بحياة إحدى قريباتى المتزوجة من زوج تتوافر فيه كل الشروط العائلية ومع ذلك فهى تعيسة معه لأن شخصيته ضعيفة ويهمل بيته وأسرته ، وأهم شيء عنده هو جمع المال وليس لديه اعتبار لزوجته وأولاده ويتصرف وكأن البيت مجرد لوكاندة للنوم فقط .

هذه هى قصتى يا سيدى وأريد أن أقول : «تنكح المرأة لأربع لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» كما قال الرسول الكريم ﷺ . . وأرجو ان يتذكر هذا الأب الذى يصر على طلاق ابنته أيضاً الحديث الشريف الذى يقول ما معناه : «إن جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه فإن لم تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

والدنيا فى النهاية زائلة يا سيدى ولاينفع الإنسان إلا عمله حين لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأدعو الله لهذا الأب أن يتقى ربه فى ابنته حتى وإن أغضبته بخروجها على طاعته وزواجها من هذا الشاب

فى مكتب المأذون . . فقد تزوجت فى النهاية على كتاب الله وسنة رسوله وأدعو الله لهذه الفتاة بدوام المحبة وحسن العشرة والذرية الصالحة وبأن يظل زوجها على عهده معها فلا يظلمها يوماً لأنها اختارته وتحملت العناء من أجله . . وبقدر سعادتهما معاً سوف يعود الوفاق بينهما وبين أسرة الفتاة كما حدث معى وكما سامحنى أبى وأمى وغفرا لى خروجى على إرادتهما منذ سنوات والحمد لله كثيراً على ذلك وأرجو أن تنشر قصتى وأن تختار لها عنوان «السمكرى» أو «الحب لايعرف المستحيل» أو أى عنوان آخر من عناوينك المؤثرة والسلام عليكم ورحمة الله .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

لكل قاعدة استثناء دائماً يا سيدتى . وإذا كنا نقول إن قوانين الحياة العادية أولى دائماً بالاتباع فلأننا لانستطيع أن نقيس على الاستثناء ولانستطيع أن نجعل منه قاعدة عامة تصلح لكل زمان ومكان . والتكافؤ والتقارب بين الزوجين فى المستوى الأسرى والاجتماعى والثقافى شرط من أهم شروط النجاح فى الزواج ، ونحن نحرص قدر جهدنا على أن نتوخاه بدافع الأمل فى تجنيب أعزائنا سوء الحظ ومرارة الفشل فى الزواج وقد نتوخى كل الشروط التى يقضى بها العقل والدين ثم نصدم بعد ذلك بفشل الزواج وانهياره وقد يخالف زواج كل هذه الشروط ثم يكتب الله له النجاح والاستقرار لكننا مع ذلك لانستطيع إلا أن نتبع قوانين الحياة وأحكام العقل حتى وإن كانت لها استثناءات مخيبة للآمال

. . ولا نستطيع من ناحية أخرى إزاء قصة كقصتك إلا أن نسعد بسعادة طرفيها وأن نتمنى لهما دوام السعادةوالهناء . والتوفيق فى الحياة الخاصة ـ فى النهاية يا سيدتى ـ هبة يهبها الخالق سبحانه وتعالى لمن يشاء ويحرمها من يشاء والسعادة أيضاً لغز شخصى لايبوح بأسراره إلا للموعودين بها .

على أنك لو راجعت نفسك لعرفت أن سعادتك الخاصة بزوجك وأطفالك لم تخلص لك كاملة إلا بعد أن عادت المياه لمجاريها بينك وبين أسرتك . وإلا بعد أن غفرت لك أسرتك خروجك على طاعتها وزواجك فى مكتب المأذون كمن لا أهل لها ولا عشيرة . . ولولا ذلك لظل هناك دائماً ما يُنغص عليك سعادتك ويذكرك دائماً بأنك تعيشين فى «المنفى» وليس فى «وطنك» الخاص . ووطن كل إنسان الأول هو أسرته وأهله وعشيرته . . ونحن كما قال بطل مسرحية «سوء تفاهم» لألبير كامى وهو يبحث عن أمه وأخته اللتين هجرهما فى صباه «لانستطيع أن نسعد فى المنفى أو فى النسيان ولانستطيع أن نظل غرباء على الدوام» وقد عُدت من منفاك الاختيارى حين عدت لأسرتك وعادت إليك، ولاشك أن شخصية زوجك المتدينة الرصينة التى تعلمت منها الحكمة وحسن معاملة الناس فى «كلية الحياة» كما تقولين قد قربت المسافات بينك وبين أسرتك، فلقد حقق لك آمالك فى الحياة الزوجية المستقرة وأحسن عشرتك، وأسرتك حين رفضته إنما رفضته خوفاً عليك من أن تشقى بحياتك معه بعد أن تهدأ العواطف المشبوبة وتمتحن الحياة صدق المشاعر

وعمق الارتباط . ومادامت حياتك معه قد بددت مخاوفها وأثبتت لها عكس ظنونها ففيم يرغب الآباء والأمهات أكثر من أن تسعد فتياتهم بالزواج وتستقر بهن سفينة الحياة ؟ مع تمنياتى لك ولزوجك بصادق السعادة ودوام الهناء إن شاء الله .



قرأت رسالة «حادث تصادم» التى تروى فيها طبيبة شابة من أسرة طيبة كيف تعرفت بزوجها سمكرى السيارات غير المتعلم حين وقعت لسيارتها حادثة . . وكيف أحبته وتزوجته رغم رفض أهلها ومقاطعتهم لها وسعدت بزواجها منه ومازالت سعيدة وتزداد سعادتها يوماً بعد يوم .

وكيف نال احترام أهلها بعد أن لمسوا سعادتها بأسرتها الصغيرة وأبنائها وأسرة زوجها التى تحبها وتحترمها فى حين شقيت أختها التى تزوجت من زوج يتكافأ معها فى كل شىء ورغم تأييدى لرأيك الذى علقت به على رسالتها من أن لكل قاعدة استثناء وأن القاعدة هى ضرورة الحرص على التكافؤ بين الزوجين وأن الاستثناء وإن تكرر فإنه لايصلح لأن يكون قاعدة إلا أنى رغم كل ذلك أريد أن تنشر هذه الرسالة لكى تعرف كاتبة الرسالة أن حالتها هى الاستثناء فعلاً وأن تجربتها لاتصلح للتعميم لكيلا تنخدع الفتيات بوهم الحب بلا أى تكافؤ فى الدين والنسب والمال والحرفة بين الطرفين ، فتكون النتيجة هى تعاستهن ، فأنا زوجة لأستاذ فى

الجامعة ومنذ سنوات جاءنى ابنى الذى تخرج فى كلية الهندسة ليعلن لى رغبته فى الزواج من فتاة لاتناسبه فى أى شىء لا فى الأسرة ولا الثقافة ولا التعليم ولاأى شىء ، وأصر على الزواج منها رغم معارضتنا وتزوجها ووقعت القطيعة بيننا وبعد زواجه منها بعدة شهور بدأ ينفر من طريقتها فى الكلام وتناول الطعام ومعاملتها له وللناس . . ويحس بالفرق بين طريقتها معه وطريقة شقيقاته مع أزواجهن . . ثم عاد فجأة وأبلغنا أنه طلقها وفرحنا بذلك وأعطاه أبوه مبلغاً من المال لكى يعوض به زوجته عن الطلاق . وبعد عامين بدأت أفكر فى تزويجه من فتاة ملائمة له ففوجئت برفض كل من تقدمنا لهن له لا لشىء سوى لمعرفتهن بحكاية الفتاة التى تزوجها . . إلى أن أحب زميلة له مهندسة فنصحته بألا يروى لها تفاصيل كثيرة عن زوجته السابقة ، ورحبت الفتاة به وتقبلت بروح طيبة حكاية زواجه السابق وقدرت أن فشله سوء حظ يمكن أن يصادف أى إنسان ، ومضينا فى الإجراءات ففاجأتنى قبل الزفاف بعشرة أيام فقط بالسؤال عن كل التفاصيل الخاصة بزوجة ابنى السابقة ورويت لها كل شىء بلا كذب فإذا بها تعتذر عن عدم إتمام الزواج وتسوق لذلك حججا كافية لأى أسرة لأن ترفض معاشرة ابنى ، وانهار ابنى عند هذا الحد ودخلنا فى دوامة العلاج النفسى والعصبى ومضت خمس سنوات على قصته ومازال يندب حظه ويندم على خروجه على أبويه بعد أن بلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً ولم يتزوج بعد .

هذا عن ابنى أما عن أخى الأكبر الذى يشغل أرقى المناصب وله

شهرته الكبيرة فى مجاله فقد فاجأنا منذ سنوات قليلة وبعد أربع وعشرين سنة من زواجه من سيدة فاضلة من بنات الحسب والنسب . وبعد أن أصبحت ابنته طبيبة . بأنه يرغب فى الزواج من فتاة فى عمر ابنته لا تناسبه من كل الوجوه وبدعوى أنه يريد أن يجدد شبابه ، فرفضت أمى وحاولت أن تعيده لصوابه بلا فائدة ورفضت زوجته قبول هذا الوضع وهجرت بيتها إلى بيت أبيها . ورفض أبناؤه أن يعيشوا معه بعد زواجه من فتاته وقاطعناه كلنا ووقفنا إلى جانب زوجته فى طلبها للطلاق منه إلى أن تم بالفعل، ثم تقدم لابنته طبيب فرفضت الابنة أن يطلبها خطيبها من أبيها وأصرت على أن يطلبها من عمها بل ورفضت أن يحضر الخطبة وشجعتها أمى على هذا وأثر كل ذلك فى النهاية على شقيقى فأصيب بنوبة قلبية ولازم الفراش لفترة طويلة فإذا بمن تزوجها لتجدد له شبابه تتذمر وتضيق به وتتصل بنا لكى نذهب نحن لتمريضه لأنها ليست مستعدة لدفن شبابها مع رجل مريض إلا إذا دفع لها كل شهر مقابلاً مالياً سخياً وتكشفت لنا أشياء أخرى مؤلمة وحزنت أمى لمصير ابنها الذى قالت إنه ظلم نفسه وزوجته وأبناءه جرياً وراء خرافة تجديد الشباب ! ورحلت عن الدنيا وهو مريض، وتماثل للشفاء فلم يجدها على قيد الحياة ولم يودعها . . وأحسسنا بندمه فطلبنا من زوجته السابقة أن تعود إليه لكنها أبت العودة له ولها الحق فى ذلك بل إن ابنها طالب الطب يشجعها على الزواج من إنسان فاضل له مركز مرموق كمركز أخى ويشجعها معه باقى أولادها! وأنا حائرة بين أخى الذى يندب حظه الآن

ويندم على فعلته التى هزت كيان أسرته ومركزه وبين ابنى الذى ترفضه الفتيات وكل ذلك بسبب الزواج غير المتكافىء وسوء الاختيار . . فأرجو أن تقول ذلك لقرائك حتى لايتأثروا بما قالته كاتبة قصة «حادث تصادم» ويتغافلوا عن أهمية التكافؤ والتناسب بين الزوجين ويندفعوا وراء رغباتهم دون روية ودون اعتبار لآراء الجميع وإلا أصبح الزواج نقمة وليس نعمة .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

كل منا يا سيدتى يطلب لنفسه السعادة ويتوسل إليها بالوسائل التى يتصور أنها سوف تحققها له . فليس منا من يقدم على الزواج وهو «يُضْمِر» بينه وبين نفسه أن يحيا حياة تعيسة شقية وأن يشقى معه من سوف يشاركها رحلة الحياة لكن السعادة ليست معادلة رياضية إذا صحت كل عناصرها فلابد أن تكون نتيجتها صحيحة أيضاً وإنما هى لغز شديد الخصوصية لا يعرف أحد كل أسراره لهذا فقد تتوافر كل الأسباب التى ترشح الإنسان للسعادة فى الزواج . ثم يشقى بزواجه ويفشل ، وقد ينقصه بعض هذه الأسباب أو معظمها ومع ذلك فقد يسعد بحياته ويرضى عنها . لهذا فليس فى مقدورنا ونحن نتلمس خطانا على طريق السعادة سوى أن نتوخى فقط الظروف الطبيعية التى تهيىء لنا بيئة أكثر خصوبة من غيرها لنمو بذور السعادة ثم نرفع أيدينا إلى السماء داعين ألا تموت البذور وأن تثمر ثمارها الطيبة فى حياتنا .

ومن هذه الظروف الطبيعية بكل تأكيد التكافؤ أو التقارب بين

الطرفين فى المستويات الأسرية والاجتماعية والثقافية والمادية . ومنها كذلك بالتأكيد توافر الحب والتفاهم أو على أقل تقدير القبول النفسى للطرف الآخر والتطلع الدافق للسعادة . . والرغبة المتبادلة فى إعانة السفينة على الملاحة فى مياه هادئة . أما تحدى العقل وقوانين الحياة والخروج على المألوف بغير دوافع اضطرارية تفرض هذا التحدى وتجعله الاختيار الذى لا مفر منه فإنه يرشح للفشل أكثر مما يرشح للسعادة . . ونجاح بعض حالاته كما قلت مراراً لانملك معه إلا الاحتفال بسعادة أبطاله . . مع التأكيد من جديد بأن تكرار الاستثناء لايجعل منه قانوناً ولا قاعدة ، وقد قلت لك مراراً ولست بحاجة لتكراره ، لكن ذلك لاينبغى أن يمنعنا من الاطلاع على تجارب الآخرين والاستفادة بدروسها والإنصات باحترام لوجهة نظر أصحابها واستكشاف أسرار معادلتهم الخاصة التى حققت معهم لغز السعادة رغم خروج التجربة على المألوف . . وهذا ما أفعله مع مثيلات تجربة «حادث تصادم» .

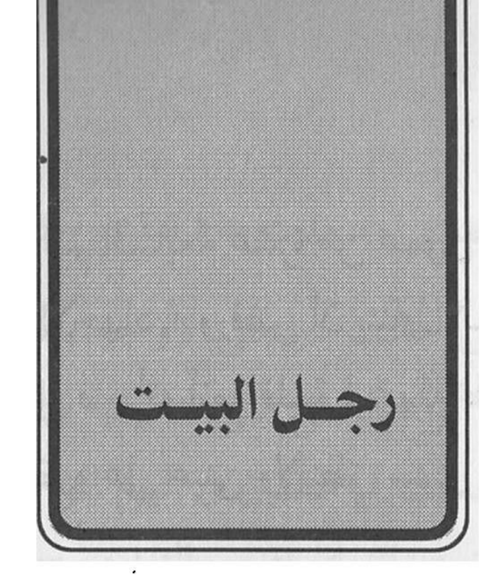
وفى الحياة يا سيدتى رغم كل ما قلت الكثير مما يتفق مع قوانين الحياة ولم يكن مصيره إلا الفشل والتعاسة . . وفيها القليل الذى يتعارض معها وكان نصيبه رغم ذلك النجاح والسعادة وفى كل الأحوال فليس علينا فى سعينا المشروع إلى السعادة إلا أن نتوخى القواعد المألوفة ونتجنب بقدر الإمكان ما يتناقض مع قوانين الحياة الطبيعية . . وفى قصة ابنك فإنى لاأعتقد أن مجرد زواجه من فتاة لم تكن تناسبه اجتماعيا وأسريا وثقافياً هو وحده الذى وقف دون زواجه من أخرى ملائمة . وإنما أعتقد أن هناك

أسباباً أخرى أهم قد يكون منها أن كثيرات يا سيدتى يتخوفن ممن يقدم على الطلاق بعد شهور قليلة من زواجه خاصة إذا كان قد تحدى الجميع بهذا الزواج ويتصورن أن من يطلق بهذا اليسر يسهل عليه الإقدام على الطلاق عند أول عثرة . . ويحكمن على مشاعره بعدم الثبات بدليل سرعة تخيله عمن حارب الدنيا ليتزوجها بعد شهور من زواجه منها .

إذن فهو تخوف من افتقاد الأمان معه أكثر من أى شىء آخر كما أن سهولة تحديه لإرادة أهله تثير مخاوف البعض من الارتباط بمن يتصورن بناء على تجربته أنه لايقيم وزناً كبيراً للأهل ويستسلم للعناد بسهولة وللاندفاع بلا ترو ، كما قد يكون منها أيضاً سوء فهم بعض الفتيات لأزمته النفسية والعصبية عقب فشل مشروع زواجه ، وتخوفهن من تداعياتها ، مع أن كل إنسان لايكاد يخلو من عارض نفسى أو عصبى وان لم يهتم بعلاجه . . وفى كل ذلك فقد يكون بريئاً من كل هذه الظنون بعد أن تعلم درس التجربة . لكنها تبعات تجربته ولامفر من أن يدفع ثمنها . وعلى أية حال فإن حل مشكلته ليس بعسير فما أكثر من هن على استعداد لتفهم ظروفه والترحيب به ، بشرط أن يكون قد استفاد من أخطائه . . وأدرك حقيقة الانطباع الخاطىء الذى أعطاه للآخرين عن نفسه باندفاعه فى تحدى إرادة أبويه . . ثم فى التسليم بصحة وجهة نظرهم بعد شهور قليلة وطلق خلالها فتاة لا ذنب لها فى سوء اختياره من البداية وربما لم تسع إليه . . ولم يكن عدلاً أن ينتظر منها أن تتعامل مع الحياة بطريقة شقيقاته . أما شقيقك فلعل موقف أبنائه الذين يشجعون

أمهم على الزواج من غيره هو أغرب ما قرأت فى رسائل أصحاب المشاكل فى الفترة الأخيرة فالوضع الطبيعى هو أن يشجعوها على العودة إليه مهما كان استياؤهم من تصرفه وضيقهم به .

ولاتفسير لذلك عندى إلا أنه فيما أتصور لم يتخلص من زوجته الثانية التى حلم واهماً باستعادة شبابه على يديها ويريد أن يعيد زوجته الأولى إلى عصمته مع استمرار التجربة المحكوم عليها بالفشل طالت أم قصرت ، وطريق النجاة بالنسبة له لابد أن يبدأ بإصلاح الأخطاء وإنهاء التجربة المخالفة لقانون الحياة مع تعويض شريكته فيها تعويضاً عادلاً . . وأن يبذل جهداً مخلصاً لاستعادة أبنائه ولاسترضاء زوجته الأولى فيكون أبناؤه حينئذ عوناً له على ترميم البيت المنهار وإعادة بنائه وهذا مايطالبهم به الشرع والدين وهذا أيضاً حق أبيهم عليهم مهما كانت أخطاؤه . . ومهما بلغ استياؤهم مما جرى . والا أثموا بمقاطعته واستعداء أمهم عليه وحرمانه من حق الولاية عليهم كما فعلت ابنته عند خطبتها . وشكراً .



أكتب إليك بعد فشلي في اتخاذ قرار مناسب في مشكلتي . . فأنا شاب في الثامنة والثلاثين من عمري ، نشأت في أسرة طبيعية من أم وأب فاضلين وثلاث شقيقات أنا أكبرهن . ومنذ طفولتي البعيدة حرص أبي الذي كان مربياً فاضلاً ووكيلاً لإحدى المدارس الثانوية على أن يغرس في الإحساس بالمسئولية العائلية ، وبأنني رجل البيت من بعده لأن شقيقاتي «بنات» ويحتجن لمن يحميهن ، وأنا هذا «الرجل» الذي سيتحمل مسئوليتهن من بعده وكان هذا الحديث يرن في سمعي كثيراً ويشعرني بذاتي وربما دفعني في سن الجهل إلى تجاوز الحدود أحياناً في علاقتي بشقيقاتي و إصدار الأوامر لهن بلا سبب مقنع بزعم حمايتهن من الأخطار أو سوء نية أطفال الشارع ، وكنت أفاجأ باستجابتهن لأوامري بلا مناقشة حتى وإن تضجرن من بعضها ، أما أمي فقد كانت دائماً راضية عن تصرفاتي وتؤكد دائماً بأن وراء مظهري الجاف هذا قلباً يفيض حباً لشقيقاتي وأمي وأبي ، ومضت حياتنا في هدوء ، ولم تشهد مشاكل كبيرة ، وفي سن المراهقة رددت نفسي بصعوبة عن ارتكاب أي تصرف لايشرفني أن يعرفه أبي وأمي عني ، أو لا أوافق على أن يرتكبه أحد مع

شقيقاتى ، وقبل أن أتم السابعة عشرة من عمرى ، عاد أبى من عمله ظهر يوم حار واضح الإجهاد . ورفض أن يتناول الغداء معنا وطلب تركه وحده لينام وبعد قليل فاجأته أزمة قلبية لم تمهله طويلاً وصعدت روحه إلى بارئها وهو يركز نظره على عينى ولاينطق سوى هذه العبارة الأليمة : «إخواتك البنات» . .

ورحل عنا أبى الطيب رحمه الله . . وعرفت بعد رحيله لماذا كان يلح على هذه الفكرة منذ طفولتى ، لقد كان مريضاً بالقلب طوال عمره ويحس دائماً بأن العمر لن يطول به لكى يطمئن على بناته، فأرادنى أن أكون امتداداً له فى حمل المسئولية . وواجهت أسرتى الحياة بمعاش أبى البسيط وبإيراد ضئيل لايتجاوز بضعة جنيهات كل سنة من إيجار فدان تملكه أمى وعرفت فى هذه السن معنى المسئولية عن أسرة من أم وثلاث فتيات أكبرهن فى الخامسة عشرة وأصغرهن فى العاشرة ، وجعلت هدف الأسرة هو نجاحنا جميعاً فى دراستنا بلا تخلف ، أما نجاحى الأكبر الذى حلمت به فقد كان ستر شقيقاتى وحمايتهن إلى أن يتزوجن وتصبح كل واحدة منهن فى مسئولية رجل آخر غيرى . . وساعدتنى أمى وشقيقاتى فى تحقيق الهدف بروح الحب والشعور بالمسئولية السائد بيننا ، وتقدمت أنا فى دراستى حتى التحقت بالجامعة، وخلال دراستى الجامعية تقدم لكبرى الشقيقات وهى فى عامها الجامعى الأول شاب من أقاربنا يعمل بالتجارة ووجدت منها ميلاً إليه وخوفاً من أن أرفضه لأنه لم يكمل دراسته بعد الثانوية العامة . وكنت أعرفه بالطبع وأستريح لأخلاقه

وشهامته فباركت خطبتهما وسعدت به شقيقتى والأسرة .

وبدأت أعمل إلى جانب دراستى لأواجه متطلبات الزواج القريب . . وعملت فى كل أنواع العمل التى تتخيلها ولاتتخيلها لأدخر بعض المال لشقيقتى . وعملت فى عملين فى اليوم الواحد وخمس عشرة ساعة كل يوم فى أحيان أخرى إلى أن اقترب الزواج وحان موعد شراء الأثاث فذهبت إلى مستأجر فدان الأرض الوحيد وهو من أقاربنا البعيدين أيضاً وطلبت منه شراء ثلثه بثمن عادل لأجهز به شقيقتى ، وأبلغته بأنى سأطالبه عند زواج كل أخت من أخواتى بشراء ثلث الفدان لأسترها بثمنه وإلا فإنى لا أعرف ماذا سيكون من أمرى ، وكان الرجل طيباً فلم يبخسنى حقى وأقسم أن يساعدنى على حمل هذه المسئولية . وتزوجت شقيقتى وهى طالبة بالسنة الثالثة بكليتها بطريقة مرضية وسعدنا سعادة لاتوصف وكسبت أسرتنا رجلاً ثانياً ، وتخرجت وواصلت العمل فى كل أنواع العمل إلى أن وفقت فى العمل بشهادتى فى إحدى الشركات العامة وعملت عملاً إضافياً بعد الظهر ، وتقدم لشقيقتى الثانية شاب يعمل فى وظيفة لها مظهرها البراق ومرتبها المحدود فرجعت إليها فوجدت منها قبولاً له . . وتحريت عنه فأكدت لى التحريات أمانته ورجولته فتوكلت على الله وخطبتها إليه . وكانت الأسعار قد ارتفعت كثيراً عن مرحلة زواج شقيقتى الأولى فلم يسعفنى العمل الإضافى بمرتبه الضئيل فتركته وركبت سيارة أجرة بعد الظهر لأوفر أكبر قدر ممكن من النقود ، وبعد عام من العمل عليها ذهبت بها إلى قريبى مستأجر الأرض وذكرته باتفاقنا فلم

يتردد وأعطانى المبلغ المقسوم ، وتزوجت الشقيقة الثانية ، وبعد زواجها تركت سيارة الأجرة لأستريح بعض الوقت قبل أن أستأنف الكفاح مع الشقيقة الثالثة . وخلال ذلك كله كانت شقيقاتى يلححن على بالارتباط بفتاة مناسبة قبل أن يتأخر بى العمر ويعرضن على صديقاتهن ، فلا أجد فى نفسى ميلاً لأى منهن ، كما أنى لم ألتق بمن لفتت نظرى إليها ربما لاقتناعى الداخلى بأنى لست أهلاً للزواج الآن . أما أمى فلم تكف عن تذكيرى بألا أنسى نفسى حتى لايسرقنى العمر .

وواصلت حياتى ثم تقدم لشقيقتى الصغرى معيد بالكلية التى تدرس بها وابن لأستاذ جامعى والتقيت به فاستشعرت أنه مختلف عن صهرى الآخرين وأنه يضع حاجزاً زجاجياً بينه وبين الناس ، ومع ذلك لم أشأ أن أحكم عليه بمشاعرى الأولى ، ووازنت بين كل الظروف فوجدتها لصالحه ، ووجدت أختى راغبة فيه ، فأعلنت موافقتى واحتفظت لنفسى بتحفظاتى ، وتمت الخطبة ، ولاحظت من البداية أن الخطيب الجديد يهتم كثيراً بالرسميات والشكليات فلفت نظره إلى أننا ناس بسطاء نقيم الناس بأخلاقهم وشرفهم ولا نريد إلا أن نحيا فى سلام. لكن المطالب توالت، ولاحظت لأول مرة منذ توليت مسئولية شقيقاتى أن شقيقتى الصغرى تخذلنى فى بعض المواقف وترى الحق فى جانب خطيبها، وبعد مناقشة حول هذا الموضوع فوجئت بأمى تصفعها وتنفجر فيها وهى تتهمها بالجحود ففزعت وأسرعت بالحيلولة بينهما وسحبت أمى إلى خارج الحجرة وأنا أهدئها وأطالبها بأن تتفهم عذر

شقيقتى وصغر سنها ، وعرفت فى هذه اللحظة أنى مطالب بمضاعفة الجهد لكى أتم رسالتى فعدت لسيارة الأجرة وواصلت الليل بالنهار فى العمل ففوجئت بعد عدة أسابيع بخطيب أختى يبدى «ملاحظة» استفزازية حول عملى على السيارة ، وتأثيره على مكانته . . ومكانة أسرته، وفكرت للحظات فى أن أذكره بحريتى فى أن أعمل أى عمل شريف أختاره . . وحريته هو فى أن يصاهر من يشاء من الناس لكنى تذكرت شقيقتى ومبلغ حرصها على خطيبها فبلعت الإهانة . . وأنا أحس بمرارة شديدة ووعدته بأن أفكر فى الأمر وعلمت أمى وشقيقاتى المتزوجتان فغضبن وانهلن لوماً وتقريعاً على شقيقتى الصغرى . . وطالبننى بفسخ الخطبة . . فأبيت ذلك واحترت ماذا أفعل خاصة وأن الخطيب المعتز بنفسه وأسرته لم يعرض بديلاً عما طلبه ولو بالتخفيف من مطالبه هو ، وزاد الأمر سوءاً أن قريبى مستأجر ثلث الفدان الأخير قد انتقل إلى رحمة الله ورفض ورثته شراءه لأنهم فى غنى عن دفع مبلغ من المال مقابل قطعة أرض هى فى حوزتهم بلا شراء ، وضاقت الدنيا فى وجهى وبحثت عن عمل فى الخارج بكل الطرق ، وسافرت فى أجازتى السنوية إلى إحدى الدول العربية وعملت سائقاً بها وعدت ببضعة جنيهات .

وفى هذه الأثناء واجهت اختيارًا هامًا فى حياتى حيث عرضت على فرصة بنفس الشركة التى أعمل بها موظفًا ، للعمل كسائق لأحد أتوبيسات الشركة السياحية التى تقوم برحلات طويلة إلى المواقع

المختلفة، وكان الاختيار صعبًا لأنى إذا قبلت هذا العمل خرجت من سلك الوظيفة الإدارية والترقيات والتقدم ، لكنى من ناحية أخرى سأحصل على أكثر من ضعف مرتبى كموظف ، وإذا رفضته عجزت عن تدبير احتياجات الأسرة والزواج فكان علىَّ أن أختار بين الدخل الكبير وبين المظهر الاجتماعى أو الوظيفة والمكتب وفرصة الترقى ذات يوم إلى منصب المدير، وفكرت طويلاً ثم اتخذت قرارى وقبلت بل وسعيت إلى وظيفة سائق الأتوبيس السياحى وشفعت لى ظروفى العائلية المعروفة لدى رؤسائى لفوزى بهذا العمل ، وبدأت عملى الجديد غير نادم ، وكررت المحاولة مع ورثة المستأجر متشفعًا لديهم بكل الأقارب حتى قبلوا دفع نصف الثمن المستحق بعد عناء شديد واقترضت من الشركة كل ما أستطيع اقتراضه ، وعجزت رغم ذلك عن ملاحقة طلبات شقيقتى الصغرى وخطيبها حتى كدت أفقد صبرى أكثر من مرة وأعلن عجزى واستسلامى . . ولم يخف حالى على أحد فبكت أمى وشقيقتاى طويلاً حين علمن بحكاية خروجى من كادر الوظيفة ، وعرض علىَّ زوج شقيقتى الأولى إقراضى مبلغًا مناسبًا فاعتذرت فى البداية ثم انهزمت أمام ظروفى وقبلت شاكرًا وواعدًا بتقسيطه ، وأخيرًا تم الزواج بمعجزة إلهَية وتنفست الصعداء وأحسست أنى قد أديت رسالتى وآن لى أن أستريح ، وفى حفل الزواج كان حديث الأسرة هو زواجى وترشيح من تستحقنى لى . . ورغم تعبى الشديد وإرهاقى المادى والنفسى ، فلقد كنت أحس بالرضا عن نفسى لأنى قد أديت الرسالة . وبأنى موضع حب شقيقاتى وأسرتى واحترامهم .

وبعد الزواج الأخير ظللت ثلاثة أعوام أسدد أقساط الديون ولم يزعجنى شىء سوى إحساسى بأن زوج صغرى الشقيقات ما زال منعزلاً عنا ويعاملنا ببعض الترفع ! ولم أتوقف كثيرًا عند ذلك فلكل إنسان طريقته فى الحياة وما دامت أختى سعيدة معه فلا مجال للاعتراض والتزمت دائمًا بحسن العلاقات معهم جميعًا حرصًا على صالح شقيقاتى .

وفى إحدى رحلاتى السياحية بالأتوبيس تعرفت بسيدة كانت مسافرة مع أمها وقدمت لهما بعض الخدمات ووجدت نفسى ربما للمرة الأولى منذ سنوات طويلة مهتمًا بسيدة فكانت هذه الرحلة هى بداية تعرفى بمن أحببتها ووجدت نفسى راغبًا بصدق فى الاقتران بها . . وبعد شهور فاتحت أمى برغبتى وعرضت عليها ظروف تلك السيدة كاملة وهى أنها مطلقة ولديها بنت فى الإعدادية ورحبت أمى بكل ما يسعدنى بغير مناقشة وكذلك فعلت شقيقتاى وزوجاهما . . أما زوج الصغرى فقد اعترض بشدة وكأنه ولى أمرى ولم يكتف بالاعتراض بل واجتذب زوجته إلى صفه ، وتطوع بتجريح السيدة التى سأتزوجها بحجة أنه يعرف بالمصادفة أسرتها . . وطاف ببيوت أقاربى يشوه سمعة السيدة ـ التى اخترتها ـ وأمها . . وكان مما قاله عنها أنها مزواجة وليست فوق مستوى الشبهات ! وأن أمها ـ سامحه الله ـ قد بدأت حياتها بتجارة المخدرات ثم تابت إلى الله واكتفت بتجارة الشنطة والمهربات ! وعاتبته وأنا فى شدة الألم وسألته لماذا يفعل ذلك وقد كان فى مقدوره حتى لو كانت لديه

تحفظات أن ينبهنى إلى ما يريد بغير هذه الشوشرة . . ففوجئت به يجيبنى بأنه فعل ذلك عامدًا حتى يمنعنى من الزواج منها ولكى أحس بالحرج إزاء شقيقاتى وأهلى !

أما لماذا يريد أن يمنعنى بهذه الطريقة القاسية ؟ فلأن زواجى منها سوف يسىء إلى مركزه الاجتماعى والعائلى حين تصبح هذه السيدة هى زوجة صهره ! وأحسست بثورة هائلة تجتاحنى . . وانفجرت فيه لأول مرة منذ عرفته مؤكدًا له أنه لو كان قد أراد أن يمنعنى من هذا الزواج حرصًا على مصلحتى لربما قدرت له حسن نيته . . أما وهو لا يفكر إلا فى نفسه حتى فى أخص خصوصياتى . . فلا وألف لا وغادرته هائجًا . . وعدت إلى البيت وأنا أفكر فيما أفعل . وجمعت شقيقاتى وأمى ورويت لهن ما حدث فباركت أمى وشقيقتاى الزواج ولم أفاجأ كثيرًا بموقف الصغرى ولم أقتنع بما قالته من حرصها على مصلحتى وذكرتها بأنى وافقت على زوجها رغم تحفظاتى عليه لأنى وجدت سعادتها فى هذا الزواج بغض النظر عن مشاعرى الشخصية، وسألتها لماذا لا تعاملينى بالمثل وأنا شقيقك الأكبر وليس الأصغر ففوجئت بها تقول لى إن زوجها سيحرم عليها دخول بيتى إذا تزوجت هذه السيدة وإنها ستضطر لطاعته حرصًا على طفلها ! ولم أنس مرارة هذه اللحظة حتى الآن .

وانتهى الموقف عند هذا الحد وقررت أن أصرف النظر عن الارتباط بهذه السيدة بالرغم من رغبتى الشديدة فيها وحرجى أمام أسرتها ، لكن زوج شقيقتى الأولى جاءنى بعد أيام بها غير موقفى فقد أكد لى أن كل ما

قاله صهرى المعتز بنفسه عنها غير صحيح وأنها تزوجت فى العشرين من عمرها من والد طفلتها وعاشت معه ست سنوات انتهت بطلاقها وهجرة زوجها للخارج تاركًا لها الطفلة . . وبعد أربعة أعوام من طلاقها تزوجت مرة ثانية ولم توفق مع زوجها الثانى لضيقه بطفلتها وبسبب بعض المشاكل العائلية وطلقت منه بعد عامين بغير إنجاب . . أما أمها فهى أرملة تاجر مات فتولت تصفية تجارته حتى انتهت ثم عاشت على إيراد بعض أملاكه المحدودة أما لماذا حارب زوج شقيقتى هذا الزواج بضراوة . . فلأن زوجها الثانى كان للمفاجأة هو شقيقه الأكبر المتزوج الذى تعرف عليها وطاردها حتى تزوجها وتسبب زواجه منها فى مشاكل عائلية كبيرة إلى أن انتهى بالطلاق ! وكان بطل هذه المشاكل هو زوج شقيقتى الذى اشتبك معها اشتباكات حادة ونال منها ما ساءه ووصلت الأمور إلى حد أن شكته للشرطة من أنه يتعرض لها بالإيذاء ووقفت مذهولاً أسمع هذه المعلومات العجيبة . . وتعجبت لهذه المصادفة التى جعلت قلبى لا يخفق لأحد طوال هذه السنين إلا لهذه السيدة ، وتذكرت أن هذا هو نفس ما روته لى ما عدا اسمى زوجيها اللذين لم أتوقف عندهما لأنهما لا يعنيان لى شيئًا . وحزمت أمرى وقررت ألا أحرم نفسى من نصيبى من الحياة بل ومن حق البحث عن السعادة مع أول إنسانة أحس برغبتى فيها وسعدت أمى وشقيقتاى وأهلى جميعًا بقرارى . . فهل تعرف ماذا فعل زوج شقيقتى ردًا على ذلك ؟ لقد أعلن على رؤوس الأشهاد أنه سيطلق أختى إذا تزوجت هذه السيدة ! . . واستشرت أهل

الرأى فنصحونى بعدم الالتفات إلى كلامه . . وحددنا موعد قراءة الفاتحة فإذا به يأبى علىَّ أن أحس بأول لمحة سعادة شخصية فى حياتى . . ويأتى إلى البيت صباح اليوم المحدد وبدلاً من أن يحضر معه تورتة أو زجاجة شربات أحضر معه زوجته وطفله البالغ من العمر أربع سنوات وطفلته التى لم تكمل عامين ويعلن أنه سيترك الجميع عندى إلى أن أفيق من غيبوبتى وأرجع عن هذا الزواج . أما فى اليوم الذى سأعقد فيه قرانى على هذه السيدة . . فسيرسل لأختى ورقة طلاقها ليتخلص من هذا «العار» . . ولتدفع هى ثمن عنادى ! وقرأت الفاتحة على خطيبتى وفى نفسى غصة مما فعل زوج شقيقتى . ولقد استاء الجميع من تصرفاته . . وباحت لى أختى بمعاناتها معه وبأنها فعلت كل ما تستطيع لكى تعيش معه فى سلام لكنه لا يريد أن يحيا فى سلام مع أحد . . وحثنى الجميع على أن أمضى فى طريقى إلى ما أريد لكن منظر الطفلين البريئين وهما يلعبان فى بيتى يمزق قلبى وكل يوم يمر يضعف من مقاومتى وأكاد أحس فى نظرات أختى أنها تنتظر منى أن أضحى هذه المرة أيضًا لإنقاذ أسرتها . . نعم إننى لن أموت إذا لم أتزوج هذه السيدة . . لكن أليس من حقى يا سيدى أن أختار حياتى وقد شارفت الأربعين . . وهل توافق على هذه الطريقة التى اتبعها معى زوج شقيقتى لمنعى من الزواج . . وهل ترى أن أختار سعادتى كما ينصحنى كثيرون ولو أدى ذلك إلى طلاق شقيقتى خاصة وأنت تنصح دائماً بالتضحية من أجل الأطفال !

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أعرف يا سيدى أن الحياة لن تتوقف عند هذه السيدة بالذات أو غيرها من النساء لكنى أعرف أيضًا أنه ليس من حق أحد أن يختار لآخر حياته بلوى الذراع . . وبالضغط على الجرح النازف فى يده لكى يؤلمه وليس ليمنع النزيف . نعم إننى أطالب عادة بالتضحية من أجل سعادة الأطفال . . وسأطالب بها هذه المرة أيضًا . . ولكن ممن ينبغى أن نطلب هذه التضحية إن كان ثمة ضرورة لها ؟ . . من الأب الذى ينبغى ألا يرهن سعادة أطفاله وأسرته ومستقبلها بأية ظروف أو أسباب لا علاقة لهم بها . . أم من الصهر الذى لم يظلم أحدًا باختياره لسعادته والذى قام بدور الأب لشقيقاته خير قيام وكانت حياته سلسلة متصلة من الرجولة والالتزام بالواجب العائلى والكفاح ؟

لا يا صديقى إن لكل شىء حدودًا ينبغى عدم تجاوزها ، وحدود الأقارب فى مثل هذه الأمور هو إبداء الرأى المجرد من الهوى والنصيحة والمشورة طلبًا لصالح الأسرة، ولكل إنسان بعد ذلك أن يختار لنفسه ما يراه مناسبًا لها . . ومن حق الآخرين أن يقبلوا هذا الاختيار . . أو يرفضوه ، فإذا رفضوه لم يكن لهم إزاءه إلا الاحتجاج السلبى عليه بعدم المشاركة فيه . . أو بالانعزال عنه أما ما عدا ذلك فهو رغبة فى التسلط وقهر الإرادة الخاصة لصالح اعتبارات لا تخص صاحب الشأن غالبًا . إننى لا أناقش هنا ملاءمة هذا الاختيار لظروفك أو عدم ملاءمته ، فهذا

أمر لا يحسمه سواك ، وأنت رجل ناضج ولست فتى غريرًا أو قليل الخبرة بالحياة ، لكننى أناقش فقط هذا الأسلوب العجيب فى التدخل فى حياة الآخرين ومحاولة إجبارهم على ما لا يريدون بهذه الطريقة غير الإنسانية . ومن الواضح أن صهرك هذا من نماذج هؤلاء الأشخاص الذين لا تخلو منهم حياة والذين يتصورون أن ما يريدونه هم وفقًا لاعتباراتهم الخاصة ينبغى أن يكون هدفًا قوميًّا . . لكل المحيطين بهم بغض النظر عن رغباتهم وأهدافهم الخاصة ، وهؤلاء فى العادة لا يؤثر فيهم ما يراعيه الآخرون من اعتبارات عائلية فى التعامل معهم وإنما يسيئون للأسف فهم هذا الحرص العائلى على صالح الابنة المتزوجة أو الشقيقة المتزوجة . . ويعطون لأنفسهم الحق فى إملاء الرغبات مطمئنين إلى أن حرص الآخرين على سعادة « أعزائهم الرهائن » لديهم سوف يدفعهم للاستجابة لهم . . ولست فى الحقيقة من أنصار المبالغة فى التنازل عن الحقوق طلبًا لسلام الأعزاء مع الأزواج أو الزوجات لأن هؤلاء ينبغى أن يكونوا حريصين على شركاء حياتهم بغير الاستعانة « برشاوى » عاطفية أو إنسانية من الأهل لهم . . كما أنى بكل تأكيد من أنصار أن يكون الحرص متبادلاً بين كل الأطراف وأنصار الاحتكام إلى العدل وحده فى كل المطالب .

لهذا فإننى أنصحك بعدم الاستجابة لهذا الضغط الحقير وهذا الحجر غير الكريم على حرية رجل ناضج وفاضل مثلك .

فاختر لنفسك يا صديقى ما تراه محققًا لسعادتك غير ملوم لكن لا

تصعد الخلافات مع هذا الصهر لأكثر من هذا الحد فإن أفاق من غيه . . واستبان له عدم إنصافه ، واسترد زوجته وطفليه فما فعل فى هذه الحالة سوى أن أنصف نفسه وأسرته وطفليه وأنقذهما من التمزق . أما إذا أمعن فى عناده وتجبره فما ظلم فى النهاية سوى نفسه وأسرته وما أظنه سيعرف طعم السعادة ذات يوم بعيدًا عنهم بل وما أظن أن حياتهم كانت ستمضى فى سلام معه حتى النهاية إذا كان هذا حقًّا هو منطقه وتفكيره ونظرته للحياة والبشر ! . . والسلام .



أنا رجل فى أوائل الخمسينات من عمرى تزوجت منذ سنوات من إحدى قريباتى بعد حب طاهر عفيف جمع بيننا وتحدثت فيه العيون بأكثر مما تحدث اللسان . وبدأت حياتى الزوجية معها فسعدت بكل لحظة عشتها بقربها فهى سيدة هادئة رقيقة كالنسمة تتدفق حنانًا وعطاء للناس ، أحبتنى بصدق وأحبت قبلى الحياة والبشر وكل الكائنات الحية حتى لأحسبها لم تعرف الكراهية لشىء أو لانسان طوال حياتها . وكان أقاربى أو أصدقائى يزروننى فتسخر نفسها لخدمتهم وتمضى الساعات واقفة على قدميها فى المطبخ تعد لهم الطعام بحماس وسعادة وتقف على رأس المائدة تحثهم على تناوله بلطف ورجاء وتلبى طلباتهم قبل أن ينطقوا بها . . وتذهب وتجىء بلا هوادة طوال الوقت حتى ليشفق عليها الضيوف ويدعونها للجلوس والراحة . . فلا تستريح إلا إذا أشعرتهم أنهم أسعدوها وأسعدونى بزيارتهم . . وتفعل ذلك بصدق وتلقائية منذ رأيتها فى بيت أسرتها تتصرف بنفس الطريقة .

.ومضت السنوات سعيدة ودافئة بالحب والعطاء والأحاسيس الطيبة الجميلة تهتم بى وبشئونى وتحرص على جمال بيتها وهدوئه ونظافته

فاطمأن بها جانبى وتفرغت لعملى فى إحدى الهيئات الحكومية وحققت فيه نجاحى واستبشرت خيراً بالمستقبل ثم شكت زوجتى ذات يوم بعض الأعراض وتحاملت على نفسها فلم تخبرنى بها وأملت أن تكون عابرة بسبب الإجهاد فى أعمال البيت. لكن الأعراض عاودتها مرة أخرى وصارحتنى بها فعرضتها على أحد الأطباء . فلم يفلح علاجه معها . . ثم عرضتها على آخر فطلب إجراء بعض الفحوص الضرورية وأجريناها، فإذا بها تكشف عن إصابتها بالمرض الخطير . وواجهت زوجتى الموقف بشجاعة كبيرة وواجهته أنا بواقعية ورجاء فى الله تعالى أن تصمد لهذا المرض وتنجو منه . وبعد مراحل جراحة كبيرة لها وتمت بنجاح . وبعدها بدأ العلاج المعروف وتكررت الفحوص والتحليلات والاختبارات وزيارات الأطباء والمراكز المتخصصة ووجدت أن عملى يعوقنى عن التفرغ لرعايتها ومصاحبتها فى مراحل العلاج المتعددة فحصلت على أجازة بدون مرتب وتفرغت تمامًا لشريكة حياتى الطيبة المحبة للناس وللحياة ولم يعد لى عمل ولا هدف سوى رعايتها وعلاجها ومساعدتها على الشفاء . . ومؤازرتها فى شدتها والتخفيف عنها . بل والاستمتاع بقربها فى كل لحظة من لحظات اليوم كأنما أتزود منها بشحنات عاطفية وإنسانية إضافية أواجه بها احتمالات المستقبل الغامض .

ومهما وصفت لك يا سيدى فلن أستطيع أن أعبر لك عن إحساسى بها وإحساسها بى فى هذه الأيام وطائر الخوف من الفراق يخيم فوق

رؤوسنا ، فلقد ازداد ارتباطنا العاطفى حتى لم أعد أحس أنها إنسان آخر منفصل عنى وازداد أيضًا استمتاع كل منا بقرب الآخر رغم الألم القاسى والمعاناة . وازداد استمتاعنا بكل همسة أو لحظة نتبادل فيها الحديث عن أى شىء فى الحياة . . وأصبح حبل الحديث لا ينقطع بيننا ليلاً ونهارًا .

وفى هذه الفترة بالذات حملت زوجتى . . فثار جدل كبير بين أفراد الأسرة حول هذا الحمل . . هل الحكمة فى أن تحتفظ به أو تتخلص منه للأسباب المعروفة وشغل الأهل والأقارب بهذه الحكاية وأجمعت آراؤهم على ضرورة التخلص منه لكن زوجتى حسمت الجدال بقرارها أن تحتفظ بحملها . . لأنها كما قالت لى تريد أن ترى طفلها منى قبل أن تؤذن السفينة بالرحيل وأيدتها فى قرارها باقتناع تام بل وبسعادة بها وبقرارها وجادلنى الأصدقاء والأهل فى هذا القرار وسألنى أحدهم بإشفاق وحرج شديدين : ماذا سيكون مصير الطفل القادم من عالم الغيب إذًا ؟ فأجبته بهدوء بأن الأعمار بيد الله وأن الحقائق ليست غائبة عنى لكننى سعيد بحمل زوجتى وبرغبتها فى الإنجاب منى . . وأريد أن أحتفظ منها بطفل يربطنى بها طوال العمر فصمت الصديق متأثرًا . وتوقف الجدال حول هذا الأمر . . واستكمل جنين زوجتى نموه وأذن الله له بالخروج إلى دنيا الأحياء فكانت طفلة جميلة فرحت بها زوجتى فرحة طاغية واختلطت ضحكات السعادة بدموع الإشفاق فى عيون الأهل وهم يستقبلونها مرحبين وسعدت أنا بها سعادة صافية من كل شائبة رغم الظروف الأليمة .

وبعد مولدها بشهور بدأت حالة زوجتى الصحية فى التدهور بسرعة غريبة ولم يكن لدى سيارة فاستأجرت سيارة أجرة بسائقها ليتفرغ لتنقلاتى بها بين المستشفيات والمراكز المتخصصة . . ثم جاء الأجل المحتوم . . ولقيت وجه ربها راضية مرضية بعد عام من ميلاد طفلتها فودعتها بما يليق بها وبعد رحيلها احتضنت أختى الأرملة التى لم تنجب أولادًا طفلتى وضمتها إليها فى بيت الأسرة الكبير الذى نعيش فيه جميعًا مع إخوتنا كل فى شقته . وعشت أنا وحيدًا مع ذكريات زوجتى الراحلة . . واحتفظت بكل شىء فى مسكنى كما تركته فملابسها فى دولاب غرفة النوم وشبشبها بجوار السرير كأنه ينتظرها . والأثاث كما نسقته ورتبته خلال حياتها القصيرة معى ، وواجهت حياتى بواقعية وشجاعة ، واستقلت من عملى الحكومى ومارست عملاً حرًّا وشغلت أوقاتى بالعمل وصرفت النظر نهائيًّا عن التفكير فى الزواج أو فى أن تحل أخرى محل زوجتى الراحلة . وكرست شقيقتى حياتها لرعاية طفلتى وغمرتها بحبها وحنانها فنشأت وهى لا تعرف لها أمًّا غيرها ، وحين نطقت بكلمة ماما . . وأنا بابا . . وساعد الإخوة وأبناؤهم الذين يعيشون معنا فى نفس البيت على ترسيخ هذه الفكرة لديها ، فمضت فى حياتها هانئة بين « أبوين » يحبانها ويغمرانها بالعطف والرعاية كباقى الأطفال .

وبلغت طفلتى سن الثامنة وهى فى أمان من أى خواطر مثيرة للقلق أو الخوف . وكان من الممكن أن تستمتع ابنتى بسنوات أخرى من السلام النفسى . . لولا أن إحدى مدرساتها سامحها الله صدمتها بلا أى مناسبة

بأن أمها الحقيقية قد ماتت بعد مولدها بسنة وأن من تناديها بماما هى عمتها وليست أمها ! ولست أعرف لماذا تطوعت لإيلامها بذلك بلا ضرورة . فعادت الطفلة من المدرسة شبه مريضة وأمضت ثلاثة أيام صامتة لا تشير إلى ما سمعت ونحن لا نعرف شيئًا، وفى اليوم الرابع سألتنى فجأة عن الحقيقة فذهلت . . وارتج علىَّ الأمر ولم أعرف بماذا أجيبها . . فراوغتها ثم نفيت لها ما سمعت ولست أعرف لماذا فعلت ذلك . . ولا إذا كان هذا هو التصرف الصائب أم لا . . لكنى لم أحتمل حزنها البرىء وهى تسألنى عن ذلك فوجدت نفسى أندفع لإبعاد هذا الحزن عن قلبها الصغير وأكدت لها أنها ككل أبناء وبنات عمومتها الذين تعيش معهم لها أمًّا طبيعية وأباً . . واطمأنت الطفلة قليلاً وبدأت تستعيد مرحها وطبيعتها . . لكنها بدأت بعد ذلك تلاحظ أشياء لم تكن تستوقفها من قبل وتسأل عنها مثل . . لماذا لا تنام ماما مع بابا فى غرفة نوم واحدة ؟ أو لماذا لا يخرج بابا مع ماما وذراعاهما متشابكان وهى معهما إلى السينما أو إلى الحديقة كما تفعل فلانة وفلان إلخ . . أو من هذه السيدة التى ترتدى فستانًا أبيض وتقف بجوار بابا فى الصورة المعلقة فى غرفة النوم . . أو فى الصور الكثيرة المنتشرة فى البيت ؟ إلخ .

وبدأت أحس بالقلق واكتأبت خوفًا عليها . . فبماذا تنصحنى يا سيدى . . هل تنصحنى بمصارحتها بكل الحقيقة . . مع ما سوف يترتب على ذلك من إيلام نفسى لها وربما من تغير فى معاملتها لعمتها التى تفرغ فيها كل حنينها للأمومة وترعاها بأفضل مما ترعى بعض

الأمهات أطفالهن ؟ . . أم تنصحنى باستمرار إيهامها بأن عمتها هى أمها إلى أن تكبر وتعرف الحقيقة فى الوقت المناسب ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

فى مثل هذه الظروف المأساوية التى أحاطت بنشأة طفلتك وفرضت عليكم إيهامها بأن عمتها هى أمها ، كنت أفضل أن تتأخر مكاشفتها بضع سنوات أخرى تزداد خلالها قدرة على فهم حقائق الحياة الأليمة . لكن مدرستها الفاضلة لم تدع لأحد مجالاً للاختيار فلقد تعجلت الأمور وبذرت بذرة الشك والألم فى نفسها وأثقلت عقلها وقلبها الصغيرين بالتفكير فى حقائق كبرى لم تكن مؤهلة للتعامل معها فى هذه المرحلة من العمر ، ومع أن طفلتك كان لابد أن تعرف كل شىء ذات يوم فإن سوء اختيار الوقت الذى تتعرف فيه على الحقائق وسوء اختيار الوسيلة أيضًا يمكن أن يثمرا آثارًا نفسية ضارة تنعكس على شخصيتها سلبيًا فى المستقبل . السن الملائمة فى تقديرى للتعامل مع حقيقة الموت الأزلية هى ما بعد سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة أما الوسيلة المثلى . . فهى تسريب الحقيقة إلى الطفل بجرعات متدرجة تهيئه نفسيًّا للتسليم بالحقيقة والتعايش معها . وكل ذلك لم يتوافر لطفلتك للأسف . . ولا مفر إذن من تدارك الآثار السلبية لمصارحتها بالواقع بغير تدرج بالبدء من الآن فى تسريب الحقيقة إليها تدريجيًّا . والبداية المثلى فى مثل حالتها هى البدء فى الحديث أمامها عن أطفال تعساء حرموا من الأم لأن الله قد

اختارها إلى جواره فى السماء . . ثم بالحديث عن أطفال آخرين حرموا من الأم لكن رحمة الله تداركتهم فهيأ لهم أمهات بديلات قمن باحتضانهم ورعايتهم كأفضل ما تفعل أى أم حقيقية ، وكيف أن هؤلاء الأطفال قد أحبوا أمهاتهم البديلات وشكروا الله كثيرًا على ترفقه بهم وإهدائهم هؤلاء الأمهات الرحيمات . . وهكذا تدريجيًّا إلى أن يتهيأ عقل الطفلة لتخيل أن تكون هى نفسها واحدة من هؤلاء الأطفال . . وهو ما يعرف بأسلوب « المحاكاة » أى تمثيل المعنى المراد إيصاله إلى الآخرين أمامهم . . وهو أسلوب مفيد فى بعض الحالات وينصح به علماء النفس . . بل إن بعضهم ينصحون أيضًا بالاستعانة فيه بتدبير مشاهدة الطفل لفيلم أو أفلام تحكى عن أم راحلة وأطفال حرموا من الأمهات لزيادة تهيئتهم نفسيًّا وعقليًّا لقبول الواقع والتسليم به .

ونصيحتى لك هو أن تعتمد أسلوب المحاكاة هذا مع ابنتك لأن بذرة الشك قد أفسدت عليها سلامها ، ولن تكف عن التفكير فيما تراه من اختلاف فى حياة أبويها عن حياة الآباء والأمهات الآخرين . . ولن تكف عن التساؤل عنه كما أنه ليس من المفيد تربويًّا أن تتهم مدرستها التى تتلقى عنها حقائق العلم وتصدق كل ما تنطق به بالكذب فيهتز مثلها الأعلى فى خيالها وتفقد الثقة فى أشياء كثيرة فى حين أن نفيك لما قالته المدرسة يمكن تبريره أمامها بإشفاقك عليها من أن تحزن لمعرفة الحقيقة وهو عذر مقبول لن يؤثر على مثلها الأعلى فيك ويستطيع حنان الأب وعاطفته ورعايته لطفله أن يتجاوز مثل هذه المحنة بسهولة أما مشاعر

طفلتك تجاه عمتها أو أمها فى الحقيقة . . فلن تتغير تجاهها إذ ماذا تعنى الأمومة أكثر مما تفعله شقيقتك مع طفلتها لأن الأطفال ينجذبون تلقائيًّا تجاه من يغمرهم بالحنان والحب والعطف الصادق وهى فى النهاية لم تعرف لها أمًّا غيرها وسوف يزداد تقديرها لها مع تدرجها فى الحياة وإدراكها للدور الهام الذى لعبته فى حياتها . . وسوف تتربع على عرش قلبها إلى جوار أمها الحقيقية التى تطل عليها من صورها إن شاء الله .

فلا تنزعج كثيرًا يا سيدى فلسوف يحفظ الله ابنتك من كل سوء . . ويهيىء لها من أمرها رشدًا كما هيأ لها من قبل هذه الأم الرؤوم التى عوضتها حرمانها من أمها ولسوف يعوضك الله خيرًا كثيرًا فى ابنتك وفى حياتك جزاء وفاقًا لوفائك وإخلاصك ونبلك والله خير حافظًا . . وشكرًا لك .



أكتب إليك قصتى هذه لعلى أشد بها أزر بعض من تضيق بهم الحياة فى بعض الأحيان ، فأنا يا سيدى شاب فى الثامنة والعشرين من عمرى وقد توفى والدى منذ ثمان سنوات وكان تاجرًا معروفًا بالإسكندرية وتركنا وأنا طالب بالسنة الثانية بكلية الطب وشقيقتى الوحيدة فى الثانية عشرة من عمرها ووالدتى الحاجة الوقورة خريجة المدرسة النسوية الثانوية والتى تعلمت فى مدرسة ابتدائية فرنسية . . فى السادسة والأربعين من عمرها وكنا حين توفى أبى نعيش حياة مريحة ونقيم فى فيللا قديمة تفوح من مبناها القديم رائحة الأصالة والعز القديم ونشغل دوريها ونعتز بحديقتها المتهالكة . . وعقب وفاة أبى اكتشفنا أنه غارق فى الديون وكانت صدمة مذهلة ، وأنه توفى بأزمة قلبية حادة داهمته بعد أن خسر معظم ما بقى من ثروته فى آخر صفقة عقدها وكان يعقد عليها الآمال فى تسديد بعض ديونه وتعويض تجارته الغارقة .

ولم يكن أمامنا مجال للبكاء على الأطلال وواجهنا الواقع المؤلم دفعة واحدة وأخلينا الدور الثانى من البيت وأجرناه ، واكتفينا نحن بالدور

الأرضى والحديقة الصغيرة الأثرية وبعنا السيارة وبعض ما تبقى من أشياء عينية لتسديد جزء من الديون وواجهت أنا الاختيار الصعب بين الاستمرار فى دراسة الطب التى تحتاج لنفقات كثيرة لم تعد فى مقدورنا . . وبين الخروج للعمل ومواجهة مطالب الحياة ومطالب أسرتى ، ولم أتردد طويلاً رغم قسوة القرار وتخليت عن دراسة الطب وحلم العيادة والمركز العلمى والأدبى . . وعملت بإحدى شركات الأتوبيس السياحى التى تعمل بين القاهرة والاسكندرية وقررت أن التحق بإحدى الكليات النظرية منتسبًا فلا أستطيع الجمع بين الدراسة والعمل . . وصدمت مرة أخرى حين علمت أن أقسام الانتساب بالكليات النظرية لا تقبل سوى طلبة القسم الأدبى . فقررت أن أعيد الحصول على الثانوية العامة من القسم الأدبى . وكنت قبل وفاة أبى قد خطبت زميلة لى بكلية الطب وارتبطت بها عاطفيًّا ففوجئت بها بعد اضطرارى لترك الدراسة واكتشافها أنى لم أعد ذلك الطالب الذى يركب سيارة خاصة وتنتظره العيادة المجهزة بعد التخرج تطلب منى فى برود عجيب وبدعوى أننا يجب أن نكون « واقعيين » أن أحلها من الارتباط بى . . واستجبت لطلبها مذهولاً ومتعجبًا وتمت خطبتها بسلام لزميل آخر بنفس الكلية بعد فترة قصيرة وفقدت الثقة فى كل الفتيات وأصبحت حين أقرأ رسالة فى بريدك يمتدح فيها إنسان خطيبته أو زوجته التى ضحت بالمال من أجله أقول إن مثل هذه الفتاة لا وجود لها . .

ثم واجهت أنا حياتى الجديدة بواقعية لامفر منها وواجهتها معى أمى العظيمة بشجاعة وتناست سريعاً أيام العز القديم واسترجعت ما تعلمته فى المدرسة النسوية القديمة وراحت تقوم بالخياطة وصنع الجاتوه والتورتة بالثمن لبعض المعارف فى مناسباتهم الخاصة . . ولاترى فى ذلك بأساً بل فخراً لها ولنا لأننا نكافح فى الحياة بشرف لتسديد ديوننا ولمواصلة الرحلة . ورحت أنا أعمل بإخلاص فى عملى الجديد وأعيد استذكار دروس الثانوية العامة للقسم الأدبى . ونسدد أنا وأمى بما نكسبه جزءاً من ديوننا وننفق الباقى على حياتنا وبالذات على مظهر شقيقتى التى تعودت على مستوى معين من الحياة . . ولم أطق حرمانها من شىء تعودته وهى التى حرمت من أبيها فى سن الطفولة وكانت ابنته المدللة قبل رحيله يرحمه الله .

وكلما فاجأنى شريط حياتى السابقة وأنا أستذكر دروس الثانوية العامة . . وتذكرت الخذلان الذى طعنتنى به خطيبتى . . وتغير الأحوال طردت هذه الهواجس من مخيلتى سريعاً وقلت لنفسى لسنا أول من غدرت بهم الدنيا ولن نكون آخرهم وواصلت الاستذكار والعمل بجد حتى حصلت على الثانوية العامة وانتسبت لقسم الفلسفة بكلية الآداب . . وأكرمنى ربى فغرس فى نفسى حب هذه الدراسة وأصبحت أحصل على تقدير جيد جداً كل سنة ويأتى ترتيبى الأول بالرغم من أنى لا أذهب إلى الكلية إلا نادراً . . وكنت حين أذهب إليها أرى زملائى

ينعمون بجو الزمالة والصداقة والرحلات وآسف لأنى لا أستطيع مشاركتهم كل ذلك لأنى مشغول بعملى . وفى ديسمبر الماضى كنت أقوم بعملى فى الأتوبيس السياحى الفاخر وأمر بين الركاب لأتأكد من حصولهم جميعاً على التذاكر ، ففوجئت بإحدى الراكبات تقول لى ألهذا لا نراك فى الكلية إلا مرة واحدة فى السنة . . مع أنك أول الدفعة ويثنى عليك الأساتذة ؟ فتوقفت أمامها مرتبكاً . وأدركت على الفور أنها إحدى زميلاتى وإن كنت لا أعرفها وتبادلت بعض كلمات المجاملة وغادرتها لأطوف بباقى الركاب وهى تنظر لى باحترام .

وبعد حوالى شهر من هذا اللقاء ذهبت إلى الكلية لأقدم بحثاً مطلوباً قبل موعد أجازة نصف السنة . . فصادفت هذه الزميلة هناك . . وألقيت عليها التحية وانصرفت لحال سبيلى ففوجئت بها تلحق بى وتقول لى إنها مستعدة لأى شىء أطلبه منها بخصوص الدراسة ومستعدة لإعطائى المذكرات أو تصويرها لى . وشكرتها كثيراً وتعددت لقاءاتى بها وعرفت أنها ابنة لأستاذ جامعى محترم وتولتها الدهشة حين حدثتها عن ظروفى السابقة وكيف أنى طالب طب سابق ومن أسرة طيبة رغم سوء الأحوال ولعلها تشككت فى صدقى وتصورتنى أتجمل أمامها . ثم عرفتنى بأبيها الأستاذ الجامعى فأعجبت كثيراً بشخصيته فقد شجعنى على مواصلة الكفاح ورفع من قدرى ولم يشعرنى بأى نقص وأصر على أن يوصلنى بسيارته مع ابنته إلى البيت . وبعد عدة لقاءات أخرى اتفقت

معها على أن أتقدم لخطبتها وشجعتنى على ذلك مؤكدة تأييد والدها لى لأنه يحترم الإنسان المكافح ويهتم بالخلق وبالأصل الطيب أكثر من أى شىء آخر . . وتقدمت إليه وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى فرحب بى كثيراً واشتبك معى فى مناقشات سياسية وفلسفية وحول الأمور العامة . وأصبحنا كلما التقينا نتحدث فى هذه الأمور ويزداد إعجابى به .

وتحدثت مع أمى عن فتاتى كثيراً فطلبت أن تراها ودعوتها مع أسرتها وقبلت الأسرة الدعوة وجاءت فقدمت لها أمى تورتة جميلة وجاتوهاً من صنع يديها مع الشاى . وراح صديقى الكبير الأستاذ الجامعى يتلفت حوله ليرى المكتبة ويتصفح كتب الطب القديمة التى مازلت أحتفظ بها تذكاراً لما كان من أمرى . وجاءت شقيقتى الوحيدة التى أصبحت الآن طالبة بكلية الفنون الجميلة بلوحاتها ليتفرجوا على أعمالها الفنية وسعدنا جميعاً بجو عائلى جميل يسوده التفاؤل والحب واحترام الإنسان للإنسان بغض النظر عن إمكاناته . وخطبت هذه الفتاة الرقيقة التى أصرت على ألا أقدم لها أكثر من خاتم الخطبة فقط وعرفت فى هذه اللحظة فقط الحكمة الإلهية وراء تركى لكلية الطب والتحاقى بتلك الكلية النظرية . . لكى يظهر لى الله حقيقة معدن خطيبتى الأولى التى تخلت عنى بغير أن يطرف لها رمش حين تغيرت ظروفى . . ولكى يجمع الله بينى وبين هذه الفتاة الأصيلة الرائعة خلقاً وخلقة . . والتى لم أكن لأعرفها لو لم أتعرض لهذه المحنة . . واستعدت ثقتى فى أشياء كثيرة فى الحياة . . وفى الفتيات

وبدأت أصدق ما يكتبه القراء عن تضحيات فتياتهم واختيارهن للحب الصادق الشريف بديلاً عن عرض الدنيا التى لاتستقر على حال وأضاءت داخلى مرة أخرى شعلة الأمل التى كانت قد انطفأت وفهمت مغزى الآية الكريمة التى تقول «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» وأرجو أن يرددها معى من تضيق حوله حلقات الهموم فى بعض المواقف .. وأن ينتظر فرج ربه بصبر وإيمان كما انتظرته وجاء ليشفى نفسى مما أصابها والسلام عليكم ورحمة الله .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

منطق أهل الغدر حين يخذلون من أحبهم ويتخلون عنه فى محنته بدعوى النظرة الواقعية للأمور هو نفس الأم القاتلة فى مسرحية «سوء تفاهم» لألبير كامى حين بررت جرائمها بقولها «إن الحياة أقسى منا!» فكان عقابها الإلهى هو أن قتلت ابنها الشاب العائد إليها من هجرته الطويلة ليريحها من عناء العمل قبل أن تعرف أنه ابنها المهاجر منذ زمن طويل !

أما منطق الأصلاء والمترفعين عن الدنايا فهو منطق الشاعر الذى يعرف جيداً :

إنما الـدنيا هبات وعـوار مستردة

شـدة بعد رخاء ورخـاء بعد شدة

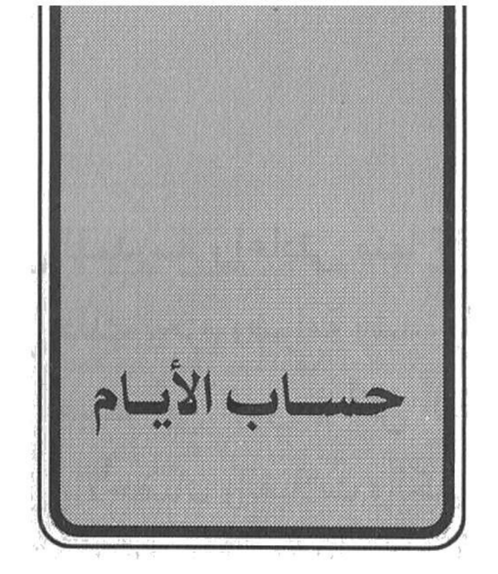


وهم الذين يعرفون أنه لايغير من قدر الإنسان أن تتغير بعض ظروفه لأسباب طارئة أو لاحيلة له فيها . . وإنما يعيبه فقط كل مايمس شرفه من خلق مستنكر أو تصرف لايليق به . فإذا كنا نشقى أحياناً بغدر الغادرين . . فإنما يعزينا عنه فهم الأصلاء لحقائق الحياة . . وتقييمهم العادل لمعادن البشر بعيداً عن الأسباب الزائلة التى لادوام لها . . وفى الصبر دائماً يا صديقى «حيلة المحتال » كما يقول شاعر آخر وفى فهم الضعف البشرى والإشفاق على أصحابه من انحطاط تفكيرهم مايهون على الجرحى بعض جراحهم ويقربهم بالكفاح الشريف والتمسك بالقيم من بلوغ الآمال وتعويض الخسائر . . وإدراك الجوهر المكنون للشدائد التى قد تندرج تحت مفهوم الألطاف الخفية . . وهى ذلك التدبير الإلهى الذى قد يحمل إلينا أحياناً بعض ما نكره لكى يأتينا فيما بعد بأطيب ما نحب إذا رضينا بما كرهناه وواصلنا طريقنا فى الحياة بصبر وأمل وبغير أن نتعجل كشف الأسرار .

وقصتك يا صديقى تقول كل ذلك وأكثر . . فلعلك قد عرفت الآن أنه ليست كل الفتيات كفتاتك الأولى . . وان من البشر من لايتخفى وراء ستار «الواقعية» المزيفة لتبرير غدره وصغار نفسه بدليل فتاتك الأصيلة التى أحبتك واحترمتك قبل أن تعرف شيئاً عن حياتك السابقة وبدليل هذا الأستاذ الجامعى العظيم الذى رأى فيك إنساناً جديراً بالثقة والاحترام والفخر بغض النظر عن إمكاناتك المادية .

فهنيئاً لك سعادتك وفتاتك وصهرك وأسرتك الشريفة التى يجمعها الحب والتعاطف وتغبطها على دفء روابطها العائلية أسر أخرى لم تحرم من المال بقدر ما حرمت مما لايشتريه المال وحده وإن كثر . . من الحب والتراحم والتساند فى وجه تقلبات الحياة .

أما والدتك العظيمة فتقديرى لها بلا حدود وأرجو أن تستعد من الآن لتورتة الفرح الكبيرة بفنها العظيم وروحها الطيبة الودود التى تجمل الحياة وتخفف من آلامها . . وشكراً لك .



نشأت إبنة وحيدة لأبوين وتفتحت عيناى للحياة على شجار دائم بينهما لسبب لا أعرفه بالضبط . . ورغم صغر سنى فلقد بدأت أرجح وأنا طفلة أن أمى هى دائماً سبب هذا الشجار لأنها تختلق المشاكل لأتفه الأسباب . وحين شببت عن الطوق قليلاً تفاقمت الخلافات بينهما وانتهت إلى الطلاق ولم يضمنى أبى إليه وتركنى لها ثم لم يلبث أن تزوج من أخرى .

وتأكد يقينى بأن أمى هى سبب هذا الشقاق لأنها تخطت بعد الانفصال كل الحدود ولا أعرف كيف أصف لك ما حدث بغير أن أسىء إليها لكنه يكفى أن أقول لك إنها تزوجت زواجاً يخالف الشرع والدين وألقت بكل شىء وراءها وعاشت كما لو كانت وثنية فى عصر ماقبل نزول الرسالات السماوية .

ورغم هذا الانحدار البشع فلقد أبعدتنى نهائياً عن خطاياها واهتمت بتربيتى وتعليمى إلى أن وصلت إلى أعلى مراتب العلم . وخلال ذلك كانت تقوم بكل شئونى بنفسها من طعام وشراب وملبس ومتابعة لسير

تعليمى وتقوم بتوصيلى للمدرسة وإعادتى منها كل يوم فى كل مراحل دراستى . لكنها تفعل ذلك بحزم وصرامة وشدة بالغة . . لهذا كرهتها لشدتها معى فى حين أحببت أبى الذى لم أكن ألتقى به إلا على فترات متباعدة فيكون لقاؤه لى بالأحضان والقبلات والكلمات الحانية الرقيقة ثم يصطحبنى إلى دور السينما والمسارح والمطاعم . ولرقته معى وحنانه بى كنت أسأل أمى دائماً هذا السؤال : لماذا انفصلت عن أبى وحرمتينى منه؟ ثم أؤكد لها أنى على يقين من أنها سبب هذا الانفصال فتجيبنى دائماً بإجابة واحدة لاتتغير هى أن الزوجين طائران فى قفص لايستطيع أحد أن يعرف من منهما الظالم ومن منهما المظلوم !

ولم أقتنع أبداً بهذه الإجابة وواصلت حياتى الجادة والتزمت بالسلوك القويم وبالطهارة التامة فى كل تصرفاتى مما دفع كل من عرفنا للإشادة بأخلاقياتى ومُثلى وسعى رجل فاضل له مركزه المحترم للزواج منى وزوجتنى أمى له وجهزتنى بجهاز مناسب .

وبعد زواجى بفترة قصيرة فاجأتنى أمى بتحول هام فى حياتها هى أنها قد تخلصت من ذلك الزواج غير المشروع وانهته وابتعدت عن شريكها فيه نهائياً وسافرت لأداء العمرة وعادت من هناك إنسانة أخرى فنبذت كل ما كان فى حياتها من خطايا واعتكفت فى بيتها لاتغادره ثم أدت بعد ذلك فريضة الحج والعمرة أكثر من مرة ، وفى كل مرة كانت تعود للاعتكاف فى شقتها لاتبارحها بالشهور الطويلة وقد واظبت على الصلاة والصوم

وقراءة القرآن وإخراج الزكاة وأصبحت تعيد قراءة المصحف كاملاً مرات ومرات . . وتقنع بوحدتها عن كل شيء آخر .

والمشكلة التى أكتب لك بشأنها هى أننى رغم أن أمى قد نبذت كل ما كانت فيه ولم يعد فى حياتها شىء الآن سوى العبادة إلا أنى مازلت أكرهها وأكرر عليها سؤالى الأبدى عن سبب انفصالها عن أبى وتعيد على إجاباتها التى لا أقتنع بها وبالرغم من اعتلال صحتها ـ إذ مرضت ـ فإنها تخدم نفسها بنفسها ولا أزورها ولا أجالسها ولا أتسامر معها ولا أحكى لها عن حياتى مع زوجى وأولادى كما تفعل الإبنة مع أمها ولا أؤدى أى عمل سوى أنى أشترى لها مشترياتها الأسبوعية مع مشترياتى ثم أذهب لأسلمها لها على باب سكنها وأتقاضى منها ثمنها وأنصرف وأنا أشيح بوجهى بعيداً عنها كارهة أن أنظر لها أو تلتقى نظراتى بنظراتها .

ولقد طلبت منى مراراً أن أتصل بها تليفونياً كل صباح لا لشىء إلا لأتأكد كما تقول من عدم وفاتها وهى نائمة . . حتى إذا طلبتها يوماً ولم تجب على تليفونى أعرف أنها رحلت عن الحياة فأقوم بما ينبغى على القيام به فى هذا الموقف . ومع ذلك فإنى لا أعبأ بطلبها هذا ولا أتصل بها . . وتتصل هى بى فما أن تحدثنى حتى أبادرها بنفس السؤال الأزلى وتجيبنى بنفس الإجابة . . بل وأقول لها كلاماً موجعاً عن ماضيها وأذكرها بـه فـلا تجيبنى سوى بالسؤال العاجز : وهل سأحاسب عما فعلت مرتين . . مرة فى الدنيا ومرة فى الآخرة ؟ دعى حسابى لربى فهو الحسيب . .


** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb

لكنى لا أدعها لحالها للأسف كلما حدثتنى وأتحفز للهجوم عليها دائماً .

إننى يا سيدى زوجة فاضلة أرعى الله ورسوله فى كل أمر من أمور حياتى وموفقة مع زوجى والحمد لله ومحبوبة من كل أهلى وأهل زوجى وجيرانى وجميع من يعرفنى أو يتعامل معى . . لكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من كراهية أمى بعد أن تغلغلت فى صدرى كما أنى حائرة فى فهم كيف ينطبق ما أمرنا الله تجاه أمهاتنا على مثل هذه الأم ؟ وكيف أخفض لها جناح الذل من الرحمة . وأقول لها قولاً كريماً فى حين أن نبرات صوتى تتغير تلقائياً وبغير وعى منى إلى الخشونة والجفاء كلما خاطبتها أو اضطررت للرد على سؤال لها . فماذا أفعل معها ومع نفسى وكيف أستريح من أفكارى المزعجة هذه ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

إنك يا سيدتى لم تغفرى لها أبداً شقاقها مع أبيك ومسئوليتها عن هدم أسرة وحرمانك من الحياة الطبيعية بين أبوين متفاهمين كغيرك من الفتيات . . ثم ضاعف من حنقك عليها زواجها المخالف لكل شرع ودين وإقدامها عليه غير عابئة بدين أو أهل أو مجتمع . . أما ما عمق الحنق وحوله إلى كراهية عميقة الجذور فهو ما أخذتك به من شدة وصرامة فى تربيتك بالمقارنة مع عطف أبيك وأحضانه وقبلاته . . مع أن هذه النقطة التى أصلت كراهيتها فى أعماقك هى بالذات النقطة الوحيدة المضيئة فى عهد جاهليتها ! فلقد أحسنت إليك أمك كثيراً بإبعادك عن

خطاياها وباهتمامها بتنشئتك التنشئة السليمة برغم لامبالاتها بالأعراف والتقاليد فى حياتها السابقة . وهكذا الإنسان غالباً قد لايخلو أحياناً ومهما كانت مساوئه وضلالاته من جانب أمين يبدو أحياناً متناقضاً مع توجهه وسلوكه بصفة عامة .

لكن كل ذلك قد مضى الآن إلى غير رجعة وانقضت أيامه ، وليس من شك فى أن هناك نوعاً من العقاب الاجتماعى يناله فى دنياه من لايرعى حدود ربه فى حياته . . وإلا لاستوى الصالحون وغيرهم فى نظر المجتمع وما تحملينه من مشاعر الكراهية والإزدراء تجاه أمك هو ضرب من هذا العقاب وجزء من فاتورة الحساب التى لابد أن يدفعها من لايرد نفسه عن أهوائها ويستسلم لضعفه بلا حدود ولست أطالبك بالكف عن كراهيتها واستبدال مشاعر الكره بمشاعر الحب التى يحملها الأبناء للأمهات الطيبات المضحيات بمجرد الرغبة فى ذلك لأنه لايغير ما بالقلوب إلا من خلقها .

لكنى أطالبك بحسن مصاحبتها وبالكف عن إيذائها بالقول أو بالإشارة أو اللهجة الجافية فى مخاطبتها . فلقد أمرنا الله بحسن مصاحبة الأبوين حتى فى حالة شركهما ولو جاهدانا على أن نشرك به . وكان الأمر صريحاً فى قوله سبحانه وتعالى :

«وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى » فإذا كان هذا هو

الحال فى أمر الشرك بالله فكيف يكون فيما هو دون ذلك ؟ إن الابناء مطالبون بأن يقابلوا آباءهم وأمهاتهم وهم على حال المعصية بالنصح وليس بالمقاطعة والازدراء والتشهير . . وللآباء والأمهات وهم على هذه الحال على الأبناء حق الطاعة فيما لايغضب الخالق ولايتجاوز حدوده ، وليس من حق الأبناء أن يتعدوا حدود الأدب فى مخاطبتهم وهم على حال المعصية . . وإنما لهم فقط ألا يطيعوهم فيما يغضب الله فما بالك وقد نبذت أمك كل ما كانت فيه وعادت إلى رشدها ؟

إنك لست مطالبة بأن تغفرى لها ما كان من أمرها لأن حسابها عنه مع ربها وليس معك . . وهو وحده من يملك أن يغفر لها أو لايغفر . لكنك مطالبة فقط بأن تكفى عن مواصلة جلدها كل يوم بخطاياها السابقة . . وبألا تحملى نفسك إثماً ما كان أغناك عن تحمله بتنكرك لها ونكوصك عن الاهتمام بأمرها والاستجابة لرجائها البسيط بالاتصال بها كل صباح للاطمئنان عليها . . وأداء ما تسمح لك به ظروفك من خدمة واجبة عليك لها . فلماذا لاتفعلين ذلك وأنت الزوجة الفاضلة التى ترعى حدود ربها فى كل أمور حياتها . . ولماذا لاتتخلصين من هذا الكدر الذى ينغص عليك صفاء حياتك بمغالبة نفسك قليلاً على أداء هذا الحق الإنسانى لأمك عليك .

ان الله لم يغلق دونها أبواب رحمته وهو يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء ويقدر فلماذا تصرين أنت على إغلاق أبواب رحمتك فى وجهها وهى فى

النهاية ليست سوى امرأة وحيدة نادمة على ما كان وتستجدى عطف ابنتها الوحيدة !

افعلى ذلك ياسيدتى دون تردد ودعى حسابها لخالقها سواء نجحت فى التخلص من كراهيتها أم لم تنجحى فحسبك ألا تتجاوز المشاعر حدود الصدور وإلا تتحول إلى تصرفات وأعمال تأثمين بها وتعانين الإحساس بالذنب بسببها . . والله غفور رحيم . .



لاأدرى إن كانت رسالتى هذه ستلقى منك اهتماماً كافياً أم لا . ذلك لأنها تثير موضوعاً قد تعتبره من الممنوعات . . وإن كان العالم كله ينظر إليه كأمر طبيعى للغاية . .

والقصة أننى تزوجت فى سن الثامنة عشرة من عمرى وكان زوجى رجلاً متفهماً فوافق على استكمال دراستى الجامعية وأنا زوجة فقدرت له ذلك وعشت معه حياة سعيدة أحترمه وأحترم آراءه وأهله وأقوم بكل واجباتى نحوه . .

وكان والداى يعيشان فى إحـدى مـدن الجنوب . . وأبى طبيب ناجح وأمى سيدة مثقفة شخصيتها قوية ولى أخت متزوجة فى سن صغيرة مثلى وتقيم فى مدينة أخرى وأخ على وشك السفر فى بعثة إلى الخارج . . وفجأة توفى أبى ورحل عنا ، وتحير أخى ماذا يفعل ببعثته ثم استقر رأيه على ألا يضيعها مـن يـده وسافـر إلى الخارج . . ووجدت أمـى نفسها وحيدة تماماً فى بيتنا وهى فى سن الثامنة والأربعين مـن عمرها . . فانتقلت أنا وطفلى من القاهرة إلى مدينتنا القديمة وعشت مع

أمى وأصبح زوجى يمضى معى نهاية الأسبوع فى بيت أسرتى .

ولم يكن طبيعياً أن أبتعد عن زوجى وبيتى إلى ما لانهاية فبحثنا لأمى عن شقة صغيرة بالقرب من سكنى فى القاهرة وانتقلت للإقامة فيها بحيث تكون إلى جوارى .

وعانت أمى فى وحدتها كثيراً فى البداية . . فبعد أن كانت نجمة فى مجتمع المدينة الصغيرة ولها صداقاتها العديدة فيها أصبحت تعيش وحيدة فى شقة صغيرة فى مدينة كبيرة لا أحد يعرف فيها أحداً . . وكحل لوحدتها عرضت عليها إحدى صديقاتها أن تشاركها فى مشروع تجارى صغير لشغل فراغها فوافقت وأقبلت على العمل بحماس رغم أنها كانت تعمل لأول مرة فى حياتها وحققت فيه نجاحاً كبيراً .

وبعد عامين من ذلك عاد أخى فى أجازة من بعثته ليتزوج . . ففاجأتنا أمى بأن هناك شخصاً ممتازاً تعرفت عليه فى مجال عملها يطلب الزواج منها وسألتنا عن رأينا فى ذلك . فأبدى زوج أختى موافقته ووافقت أختى بالتالى كما وافق أخى أيضاً ربما بتأثير حياته لمدة عامين فى الخارج فى حين امتنعت زوجته الصعيدية عن إبداء رأيها . . أما أنا فقد اعترضت على زواجها بشدة وإصرار وقدت جبهة المعارضة بعناد ورفضت تماماً الموافقة وأبديت أسبابى وحججى بصراحة مؤلمة بغير مراعاة لما كانت تحسه أمى من حرج ولا لعجزها عن الإفصاح عن أسبابها بصراحة . . وكانت النتيجة أن رفضت أمى الزواج واعتبرته منتهياً

وانشغلت بعملها ومساعدتى فى تربية ابنتى وابنى وتعليمهما .

ومضى أكثر من عشرين سنة على هذه القصة ومازالت أمى والحمد لله تتمتع بصحتها وحيويتها وعملها . ثم منذ سنوات احتفلت مع زوجى بمرور خمس وعشرين سنة على زواجنا وسافرنا معاً فى رحلة قصيرة جميلة ، وبعد عودتنا منها بشهور مرض زوجى لمدة أسابيع ثم توفى رحمه الله وانهارت حياتى وسعادتى فجأة فقد كان زوجى هو محور حياتى وقدازداد التصاقنا وتقاربنا بعد زواج ابنى وابنتى وانشغالهما بحياتهما الخاصة ولم يبق لكل منا سوى الآخر وسيطرت الكآبة على حياتى وفقدت الاهتمام بكل شىء وأمضيت ثلاثة شهور فى غرفة نومى لا أغادرها ولا أرتدى ثياب الخروج وتزورنى صديقاتى فى حجرة النوم ويحاولن إخراجى منها بلا جدوى وازداد وزنى ستة عشر كيلو جراماً خلال هذه الشهور الثلاثة وظهر الشعر الأبيض فى رأسى . وكانت أمى تمر على كل صباح قبل ذهابها لعملها وبعد عودتها منه وكذلك ابنى وابنتى ومع ذلك فقد ظل إحساسى بالوحدة شديداً . وتركتنى أمى على هذه الحال ٣ شهور ثم ركزت اهتمامها على وبدأت تجرنى من الفراش جراً وبالعنف والإصرار وتلبسنى أى ملابس يسمح وزنى الجديد بارتدائها ثم تصحبنى معها قسرا إلى النادى وإلى المشى فى الشوارع المحيطة به لنتمشى ونتحدث ثم بدأت تجعلنى أجرى فى الصباح لأنقص وزنى . وشيئاً فشيئاً استجبت لمحاولاتها وخرجت من عزلتى واستردت بعض رشاقتى وصبغت

شعرى. وكنت قد حصلت بعد وفاة زوجى على أجازة من عملى بدون مرتب لمدة سنة فبدأت عن طريق معارفها تبحث لى عن عمل آخر لأجدد حياتى وأبتعد عن الذكريات الحزينة .

وعملت فعلاً فى شركة أخرى وبدأت أندمج فى الحياة مرة أخرى . . وبعد عامين تعرفت فى عملى الجديد على أحد المتعاملين معها وهو رجل فى مثل عمرى لاحظت عليه أنه مهموم ومشتت الذهن حتى لقد نسى لدينا أوراقاً هامة تخصه فاتصلنا به ليتسلمها، فجاء شاكراً وعرفت منه أن زوجته قد توفيت منذ فترة قصيرة وأنه يعيش وحده وله ابن متزوج وأنه يعيش نفس الظروف التى عشتها بعد رحيل زوجى . . فقررت أن أشده للحياة كما شدتنى إليها أمى وتكررت زياراته لنا فى العمل وتحدثت معه كثيراً . . ووجدتنى شديدة الاهتمام به وهو كذلك وبعد قليل طلب الزواج منى فطلبت منه مهلة للرد عليه ووجدت نفسى أواجه مأزقاً لا أحسد عليه إذْ ماذا سيقول أبنائى حين أبلغهم بهذا العرض ؟ هل سيرفضون بإصرار كما رفضت أنا من قبل أن تتزوج أمى وقد كانت فى مثل سنى الآن ؟ ولو رفضوا ولم يتفهموا كما لم أتفهم أنا ظروف أمى فلن أستطيع مخالفتهم . . ثم وهو الأهم ماذا ستقول أمى حين ترانى أطلب لنفسى ما حرمتها منه وهى فى مثل سنى وكيف ستكون استجابتها . . هل ستتعجب لذلك أم ستذكرنى بما كان ؟ إن أخى وأختى يوافقان على زواجى ربما حتى لايشعرا بالذنب تجاهى كما أشعر أنا به الآن تجاه أمى .

فلقد عرفت أنى ظلمتها . . لكنى أخفف من إحساسى بالذنب بأنى لم أكن أعرف أن الله سيمد فى عمرها عشرين أو خمسة وعشرين عاماً تعيشها فى وحدة ولو عرفت ذلك فى حينه لما عارضت فى زواجها . ومن ناحية أخرى لا أتصور أن أعيش مثل هذا العمر وحيدة بلا رفيق يؤنس وحدتى كما عاشت هى .

إننى سيدة متدينة وأحس أن بينى وبين ربى صلة طيبة ومن حقى أن أمضى ما بقى من عمرى فى صحبة إنسان أشاهد معه التليفزيون وأشرب معه شاى الصباح وأستشيره فى مشاكل عملى وأنتظر عودته ظهراً وأخرج معه فى المساء ولست أطمع فى ماله فقد كتبه كله لابنه ولاهو طامع فيما لدى . . وكلانا لايطمع سوى فى الرفقة السعيدة الهادئة فى هذه المرحلة من العمر . . إننى أنتظر حكمك العادل سواء أيدتنى فى رأيى أم اعتبرت زواج امرأة فى سنى أمراً غير لائق . . فماذا تقول فى ذلك ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ذكرتنى تساؤلاتك المثيرة للتأمل فى نهاية رسالتك بما قاله الخليفة العباس المعتصم حين حضرته الوفاة قال : لو علمت أن عمرى قصير . . ما فعلت !

ومع أنه لم يفصح عما لو علم لما فعله ، إلا أن المعنى الواضح هو أنه لو علم بقصر عمره وقد مات فى سن الثامنة والأربعين لكان أكثر

إنصافاً وأقل اجتراء على المظالم . ولأنه لا أحد يا سيدتى يؤتى علم الغيب أو يعرف كم يطول به العمر فالأجدر به دائماً هو أن يكون منصفاً مع نفسه ومع الآخرين وأكثر فهماً لأعذار الناس وأقل تبرعاً بلومهم دون تقدير لظروفهم ودوافعهم . . لأن هذا أقرب للعدل ولأنه لايعرف ماذا ستفعل به الحياة فى قادم الأيام ولاكيف سيكون تصرفه إذا ما وضعته الأقدار فى نفس الظروف التى يغالى الآن فى انتقاد من وضعوا فيها بلا رحمة أو إنصاف .

على أية حال يا سيدتى فقد استدعت تجربتك الغريبة هذه التأملات العابرة، أما عن رأيى فى مشكلتك فلست أدرى لماذا صنعتينى بين من لايعذرون الآخرين ولايتفهمون احتياجاتهم الإنسانية والوجدانية فى مراحل العمر المختلفة ؟ وفى ذلك فإنى أقول إنك أخطأت فهمى . . فالحق أن معيارى الأول فى الحكم على تصرفات الآخرين هو ألا تتعارض بالضرورة مع الشرع والدين والقيم الأخلاقية ثم بقدر المستطاع مع التزامات الإنسان الرشيدة تجاه أبنائه وأهله ونفسه وكل ماعدا ذلك جائز ومقبول إذا توافرت له الظروف الملائمة بغير ابتذال يسىء إلى احترام الإنسان لنفسه أو ينقص من قدره عند الآخرين .

وتحريم الحلال يا سيدتى إثم لايقل شناعة عن تحليل الحرام . ولقد قلت أكثر من مرة أن المرأة إذا أنست فى نفسها رغبة ملحة فى الزواج تخشى معها الفتنة ولم تستطع تقبل الحياة بغيره فإن زواجها فى أى مرحلة

من العمر أكرم لها وأصون لحرماتها وليس من حقنا حينذاك أن نسألها لماذا تتمسكين بالزواج الآن أو لماذا لاتضحين به تجنباً لإحراج أبنائك المتزوجين ؟ . . إذ مادامت قد قدرت كل الظروف المحيطة بها ولم تطق على وحدتها صبراً . . فلها أن تفعل ما تشاء فى حدود الشرع والدين . . لكن عليها أيضاً أن تضع مصلحة أبنائها فى الاعتبار ، وألا تضحى بها وتعرضهم للضياع والمهالك جرياً وراء رغبتها وحدها ، بل وألا تتسبب فى إحراجهم إحراجاً لايطيقونه ولايصبرون عليه ، وإذا قر قرارها وكان الزواج ملائماً ولاينقص من قدرها فى عيون أبنائها وأهلها ولا من قدر أبنائها فى عيون الآخرين فلتقدم عليه غير ملومة من أحد وليمحنها أبناؤها تأييدهم ومباركتهم ، أما إذا كان غير ذلك كأن تتزوج مثلاً ممن يصغرها بثلاثين سنة أو من لا يتكافأ معها اجتماعياً وأسرياً أو من يبدو واضح الطمع فى مالها ومال أبنائها فالزواج فى مثل هذه الحالات لاتتوافر فيه شروط الكفاءة والاحترام فإنه ينذر بالعواصف والزلازل ويقترب من حدود النزوات والأهواء . . التى لايليق بجلال الأم ومكانتها ويحق للأبناء فى هذه الحالة أن يعترضوا عليه بشدة وأن يتمسكوا بموقفهم .

زواج «الأيامى» أى النساء اللاتى لا أزواج لهن سواء كن أرامل أو مطلقات أو تأخر بهن الزواج أمر مندوب إليه ومفضل فى ديننا وعند الفضلاء من الناس . فلا تقلقى إذن من تعجب والدتك من طلبك لنفسك ما أنكرتيه أنت عليها منذ عشرين سنة فلقد أنكرت عليها

موقف الابنة التى تتفهم دوافع أمها للزواج بعد الترمل كراهة للوحدة أما هى فلن تنكر عليك رغبتك من موقف الأم التى تطلب السعادة دائماً لأبنائها وترجو لهم مالم يتح لها هى فى دنياها وهذا هو دائماً موقف الأم السوية . أما الموقف المؤثر حقاً فسيكون موقف أبنائك وليس موقف أمك فعسى أن يكونوا أرفق بك مما كنت أنت بأمك فى شبابك . . وعسى أن تكونى أنت قادرة على التضحية والنزول عند رأيهم ، مراعاة لاعتباراتهم عند الضرورة كما فعلت أمك فى سابق الزمان . . وكما ينبغى أن تفعل أيضاً الأم الرؤوم مع أبنائها إذا عجزت عن إقناعهم بدوافعها وأسبابها . . وشكراً لك .



لست غريباً عليك فقد جئت إليك منذ شهور ورويت لك قصتى باختصار . . وأريد الآن أن أواصل روايتها . . لتعرف ماذا صنعت الأيام بى . وقبل أن أستطرد فيما حدث بعد مقابلتك الأخيرة أسترجع فى خيالى قصتى مع الحياة فأجدنى دائماً أبداً من البداية المبشرة بالأمل وأنا طالب بالثانوية العامة وابن لعامل بسيط مرتبه اثنا عشر جنيهاً وكلى إرادة وإصرار على التفوق لأحصل على مكافأة المتفوقين فى الثانوية العامة وكانت ٨٤ جنيهاً كاملة . . فشحذت إرادتى الصلبة ودخلت الامتحان محملاً بالآمال ودعوات الأهل فاجتزته وحصلت على مجموع ٨٩٪ من القسم العلمى . . وسعدت بى أسرتى البسيطة وتعلق أملى بالمكافأة «الكبيرة» التى سوف أستعين بها على الدراسة الجامعية طوال السنة التالية . .

وبالرغم من أن مجموعى وقتها كان يؤهلنى للالتحاق بإحدى الكليات المرموقة إلا أنى اخترت دراسة الحقوق لأنى كنت أتمنى منذ طفولتى أن أعمل كمحام كما أن ظروف أسرتى لم تكن تسمح لى بالمغالاة

فى الأحلام . فالتحقت بإحدى كليات الحقوق وأمضيت عامى الأول فيها معتمداً تقريباً على مكافأة التفوق وما أكسبه من العمل فى الأجازات القصيرة حين أعود إلى بلدتى الصغيرة ونجحت بتفوق فى العام الأول فاستحققت مكافأة من الجامعة . وواصلت دراستى بتفوق حتى لا تنقطع عنى هذه المكافأة التى أصبحت عمادى الأول فى الحياة . وحصلت على الليسانس ولم أفكر فى البحث عن وظيفة وإنما قررت أن أعمل كمحام حر وبحثت عن محام كبير يقبل تدريبى فى مكتبه فرحب بى أكثر من واحد منهم لتفوقى واستقامتى . وأمضيت فترة التدريب بجدية ، وبعد فترة قصيرة حققت أمنيتى وعلقت على بيتنا القديم لافتة خشبية تحمل اسمى وأقبلت على عملى بحماس ونشاط وحققت فيه نجاحاً غريباً بالنسبة لزملائى ، واستطعت خلال عدة سنوات أن أحقق أكبر أحلامى وأتزوج حبيبة العمر التى راقبتها وهى طفلة صغيرة تلهو وأحببتها فى داخلى وهى فى سن الصبا . . وتفاهمت عيوننا وهى فى بداية سن الشباب وكانت نظراتها الوادعة المشجعة أكبر عون لى على احتمال صعوبة الطريق فما أن استطعت توفير متطلبات الزواج حتى تقدمت لها . . وتزوجنا وسط فرحة الأهل وسعدت بالحب والحنان وتفرغت لعملى المهنى وأعطيته كل وقتى وجهدى ، ومضت أيامنا سعيدة وأنجبت طفلاً جميلاً وادعاً كأمه . . وحبا الطفل على الأرض بعد شهور ثم تعلم الوقوف والمشى والجرى وأصبح عمره عاماً ونصف عام . . واقتربت الأجازة الصيفية من نهايتها فخرجت زوجتى مع ابننا تزور أهلها وعادت

فى المساء لكى تستعد معى للعام القضائى الجديد الذى سيبدأ بعد غد بغسل ملابسى وكى قمصانى وبدلى . وفى اليوم التالى انشغلت بذلك . . بينما انشغلت أنا بمقابلة بعض المتقاضين فى غرفة المكتب بمنزلنا استعداداً لقضية ستنظر غداً . . فطرقت زوجتى الباب طرقات خفيفة وخرجت إليها فطلبت منى التليفون فى حياء لتخاطب أسرتها وأعطيته لها وعدت إلى المتقاضين وانشغلت معهم فى الحديث، فإذا بطرقات ثقيلة متوالية على باب المكتب فانزعجت وخرجت لأرى والد زوجتى ووالدتها، وتعجبت للحظة لأنى لم أشعر بمجيئهما . . ثم اشتد عجبى وانزعاجى حين أبلغانى أن زوجتى الشابة مريضة وفى غيبوبة . . متى مرضت . . ومتى راحت فى الغيبوبة لا أعرف . . وأسرعت إليها فوجدتها غائبة عن الوعى وهرولت لإحضار سيارة أحد الأصدقاء وحملت زوجتى على كتفى إلى المستشفى والتف حولها الأطباء ولاحظت وجومهم وتحفظهم فهيأت نفسى لأن أتجلد بقدر ما أستطيع إذا بلغونى أنها ستحتاج إلى جراحة عاجلة أو أن غيبوبتها ليست حالة إغماء طارئة وإنما سيطول علاجها بعض الوقت وسيضطرون لاحتجازها بالمستشفى، وبينما أنا غارق فى أفكارى فوجئت بهم يعودون إلى واجمين ويبلغوننى بأن زوجتى بين يدى الله من قبل أن تصل إلى المستشفى . . لا إله إلا الله زوجتى الشابة التى لم تكمل الثانية والعشرين من عمرها وأم طفلى الذى لايزيد عمره على عام ونصف عام والتى لم تمرض ولم تشك من شىء ؟ إذن لهذا طلبت منى التليفون لتستدعى أهلها حين أحست ببوادر الأزمة وأشفقت على

فلم تزعجنى بتعبها وأنا مشغول مع عملائى . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . أى عمل يستحق ألا تقطعه على وألا تخرجنى منه لإسعافها وإنقاذها أو حتى لتلقى ربها وهى على صدرى لقد عدنا إلى البيت مذهولين لانصدق أنفسنا ، وفى اليوم التالى خلا البيت منها للأبد . . وبعد أيام رجع طفلى الوحيد من البيت الذى أبعدناه إليه ليواجه قدره الحزين معى فلم أنس حتى الآن أن كان أول ما فعل هو أن جرى إلى المطبخ يبحث عن أمه كما اعتاد أن يفعل ، وحين لم يجدها جرى إلى غرف المنزل باحثاً عنها ثم صعد إلى السطح وعاد مرتعباً خائفاً وارتمى علىَّ ولم ينطق بكلمة ولم يبك كأنما أنزل الله عليه سكينته ونام فى حضنى وهو متشبث بى . . ومن هذا اليوم وحتى الآن أصبح لاينام إلا متشبثاً بى كأنما يخشى أن أضيع منه كما ضاعت أمه .

وبعد رحيل زوجتى بعدة شهور بدأت أحس بالإرهاق الشديد فعرضت نفسى على أطباء بلدتى فإذا بى اكتشف مرضى بالتهاب الكبد الفيروسى «س» وإذا بى أبدأ رحلة علاج استنزفت كل مابقى لى من مدخرات . . وضاعفت من همى وخوفى على طفلى الوحيد اليتيم .

وطالت رحلة العلاج ثلاث سنوات حتى الآن وعزمت على السفر إلى القاهرة لعرض نفسى على أكبر أطباء الكبد وفى هذه المرحلة منه جئت حاملاً إليك هماً يفوق قدرتى وطاقتى . . فقد قرر طبيبى المعالج أنه لا علاج لى إلا حقن «الانترفيرون» وأن على أن آخذ منها تسعين حقنة

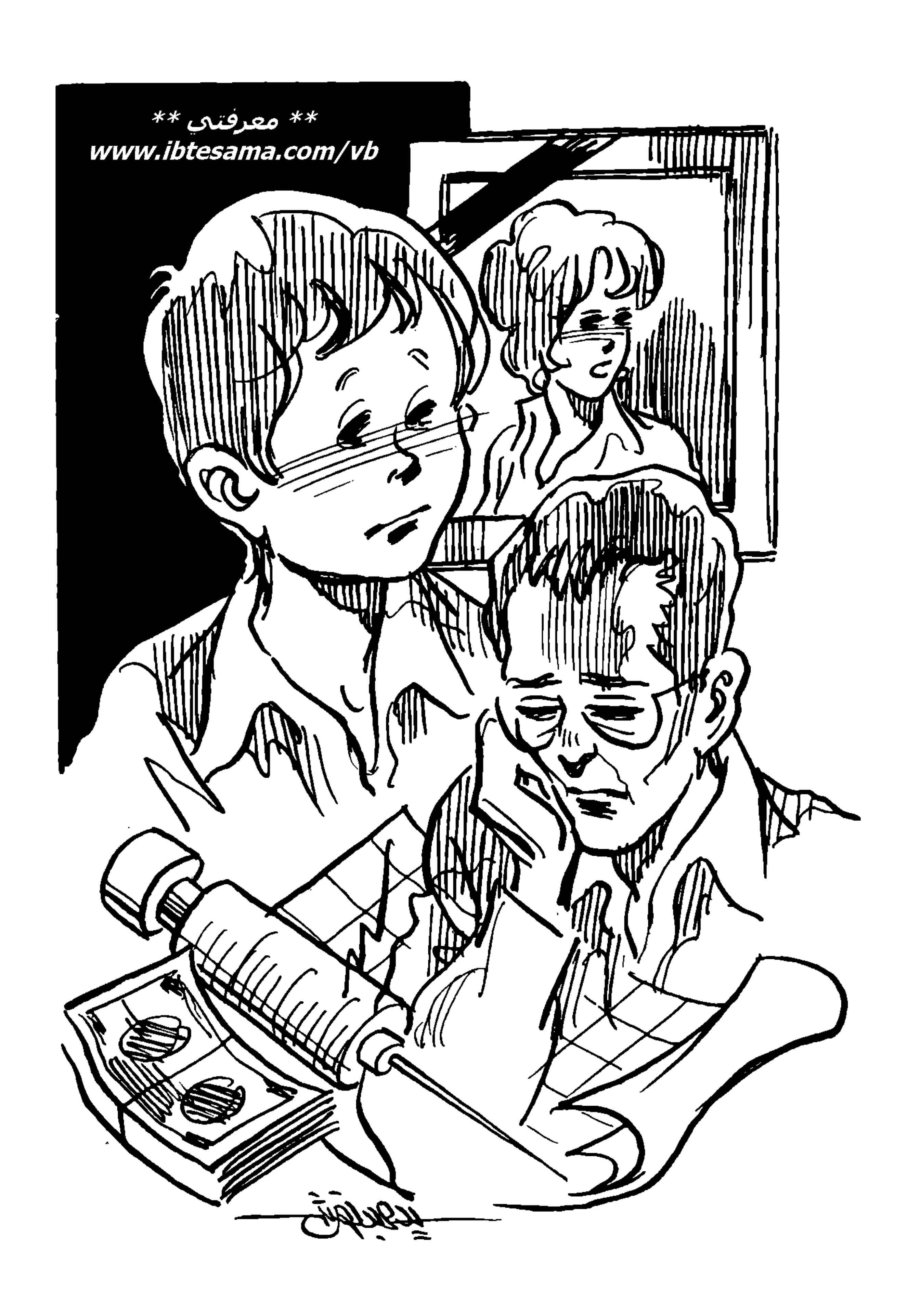
متوالية وذهبت أسأل عن هذه الحقن فإذا بثمن الواحدة منها يزيد على المائتى جنيه وأن الحقن المطلوبة تتكلف حوالى اثنى عشر ألف جنيه ووقفت عاجزاً ولجأت إلى نقابتى وإلى القومسيون الطبى . . ولا أطيل عليك فى هذه النقطة فلعلك مازلت تذكر تفاصيلها . . كما لعلك مازلت تذكر أيضاً أنك طلبت منى بعد أن استمعت إلى قصتى أن أعود لمدينتى وأنتظر اتصالاً قريباً منك إن شاء الله ، وبعد أيام قليلة فوجئت باتصال يستدعينى لمقابلتك فى القاهرة مرة أخرى وأسرعت إليك فسلمتنى خمسا وثلاثين حقنة وطلبت منى أن أذكرك بأمرى حين تقارب هذه الحقن على النفاذ بعد أربعة شهور وعدت إلى مدينتى شاكراً وممتناً وبدأت العلاج بالحقن وبعد كل ثلاث حقن منها أجرى بأمر الطبيب تحليلاً كاملاً للدم وعدًّا للصفائح الدموية وكرات الدم البيضاء حتى وصلت إلى الحقنة الخامسة عشرة فقرر الطبيب إيقاف العلاج بالحقن فوراً لأن الصفائح الدموية تقل بنسبة مخيفة وأى حقنة أخرى ستؤدى إلى النزف ، وداومت على التحليلات كل فترة عسى أن تتحسن النسبة لأعاود العلاج بالحقن فترتفع قليلاً وتعود لتنخفض وهكذا أصبح الأمل الوحيد هو عملية زرع الكبد فى الخارج التى لاأستطيع حتى تخيل تكاليفها الرهيبة .ولست بالطبع أكتب إليك لتسعى إلى تدبير هذه الجراحة الخيالية لى كما حدث عن طريق بابك لمهندس مصرى شاب فى لندن لأن الله لايكلف نفساً إلا وسعها . ولأن المعجزات لاتتكرر كثيراً وإنما أكتب إليك لأستأذنك أولاً فى الحضور مرة أخرى لأعيد ماتبقى من

الحقن وهو عشرون حقنة لعل غيرى يكون محتاجاً إليها ولايقدر على ثمنها ولأسألك أيضاً ماذا أفعل مع طفلى الوحيد المحروم الذى يبلغ من العمر أربع سنوات والذى ينام متشبثاً بى إلى أن يطلع النهار فأودعه الحضانة وأذهب إلى عملى ثم أعود فأخرجه وبلازمنى حتى الصباح التالى. إن ارتباطه بى شديد وأنا أخشى عليه من تقلبات الأيام . . وأريد أن أعوده تدريجياً على غيبتى عنه . . لهذا أفكر فى البحث عن عمل فى الخارج ليعتاد غيابى ، من ناحية خاصة إنى فى سن الشباب وأستطيع الصمود والتحمل ، ومن ناحية أخرى لكى أدبر له بعض مايعينه على الحياة فى المستقبل فما رأيك فى ذلك . . وهل تؤيدنى فى تفكيرى هذا !

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

«ويخلق مالا تعلمون» . . صدق الله العظيم لعلك تذكر أنت أيضاً أنى قد أجبتك بذلك حين رويت لى عن حيرتك ووقوفك عاجزاً أمام تكلفة الحقن المطلوبة . . فإذا بربك يهيىء لك بأيدى بعض عباده مايقرب من نصف الكمية خلال أيام قليلة وتعود بها راضياً متعجباً .

والآن أعيد تذكيرك بهذا الجزء من الآية الكريمة مرة أخرى وأطالبك بأن تردده لنفسك كثيراً كلما سيطرت عليك الهموم . فالمستقبل يا صديقى غيب لايعلمه إلا الله . . وخير مانفعله للاستعداد له هو أن نؤدى واجبنا اليوم تجاه الحياة على خير مايرام ثم ندع أمر المستقبل لمن



بيده وحده أمره . . والانجليز يقولون فى أمثالهم : لاتعبر جسراً قبل أن تصل إليه ! أى لاتبالغ فى الخوف من السقوط من فوق الجسر الضيق فى مياه النهر . . وأنت مازلت بعيداً عنه ولم تقترب منه بعد . فقد يشغلك خوفك من عبور الجسر البعيد عن الاحتراس لعثرات الطريق التى تحت قدميك . . وأنت ياصديقى لم تفقد الأمل نهائياً فى العلاج بالحقن . . وإنما توقفت فقط بناء على أمر الطبيب وقد تعود النسبة للصعود بعد وقت آخر وينجح العلاج بها بإذن الله ، وقد يهيىء لك الله أمر الجراحة التى تبدو لك الآن حلماً بعيد المنال ، ولاغرابة فى ذلك ولاعجب فعجلة الحياة سريعة الدوران . . ومايجرى حولنا الآن فى العالم يكاد يكون من قبيل المعجزات التى لو تنبأ بها أحد منذ سنوات لاتهمناه بالجنون . ومنذ أيام قليلة فقط قام طبيب مصرى عظيم مقيم فى لندن هو الدكتور ناجى حبيب بإجراء جراحة زرع الكبد هذه فى معهد الكبد بالمنوفية لأول مرة فى تاريخها وبالأجهزة المتاحة فى المعهد المصرى وبمعاونة أطباء مصريين ، وسيعود فيما علمت مرة كل شهرين لإجراء جراحات مماثلة وللإشراف على تدريب الجراحين المصريين عليها لكى يصبح لدينا خلال عامين فقط فريق منهم يقوم بهذه الجراحة الكبيرة بتكاليف لاتقارن بتكاليفها فى الخارج .

فلماذا اليأس إذن من رحمة الله . . والحياة كما قلت لك لاتتوقف ولاتثبت على حال ؟!

نعم . . لابأس بأن تفكر فى السفر إذا رأيته حلاً لبعض مشاكلك

المادية . . ولكن بدافع الأمل فى حياة جديدة تعوض فيها ابنك بعض مافقده . . وليس بهدف «تعويده» على غيبتك وافتقادك لأنك لاتدرى من أمر غدك شيئاً . . ولاتدرى ماذا تفعل غداً . . ونحن عموماً لانفر من قضاء الله إلا إلى قدره فتخلَّ إذن عن هذه النغمة اليائسة . . واعلم أن صحة النفس تساعد الجسم على مقاومة الأمراض ، فساعد نفسك على الصمود ولاتخذل طفلك الوحيد وتشبث بالحياة كما يتشبث بك هو فذلك أفضل كثيراً لك وله . . وللجميع . وشكراً .



نظـرة الانكسـار !

أنــا إعلامية أعمل بالإذاعة فى أقسام الأخبار ، تزوجت وأنجبت فاخترت العمل فى وردية الفجر لإعداد نشرة الأخبار حتى لا أغيب عن أطفالى الرضع ولأعود إليهم فى الضحى فكنت أغادر مسكنى فى العمارة التى نقيم بها قبيل الفجر وأركب سيارة الإذاعة إلى عملى وأعود إلى بيتى قبل الساعة الحادية عشرة صباحاً . وكنا كسكان للعمارة نعرف أنه فى الدور السابع من عمارتنا تقطن سيدة شابة تعمل راقصة بالملاهى وتقيم بمفردها ، ونتجنبها ونقاطعها جميعاً فلا كلام ولاتحية بيننا إذا تقابلنا صدفة فى مدخل العمارة أو على السلم ولانشركها معنا فى أى أمر من أمور السكان ، وكان من النادر أن يراها أحد لكننى كنت كثيراً ما أصادفها عائدة إلى العمارة وأنا أغادر مسكنى للذهاب للإذاعة فى الفجر فلا نتبادل التحية بالرغم مما كنت أحسه أحياناً من تشوفها إلى كسب مودة جاراتها وكلهن زوجات لرجال محترمين .

ثم حدث بعد ذلك أنى لم أعد أصادفها عائدة فى الفجر إلى العمارة . . وعرفنا أنها قد تزوجت من رئيس فرقتها الموسيقية واستقرت فى شقتها

بالدور السابع ولم تعد تغادرها إلا للذهاب للسوق وشراء احتياجات البيت كأى زوجة أخرى . وبعد أيام أخرى صادفتها إحدى جاراتنا على السلم فرأتها فى صورة جديدة تدعو للاحترام والدهشة فقد كانت محجبة حجاباً جميلاً ووجهها خال من الأصباغ ومظهرها هادىء ومحترم . . فبادرتها جارتنا بالتحية لأول مرة وأجابتها السيدة المعتزلة بحرارة وترحيب . . وأنجبت تلك السيدة الشابة واحتفلت بمولودها الأول احتفالاً عائلياً بسيطاً ووزعت الصدقات . وأرسلت علب البونبون لأطفال العمارة فتقبلتها الجارات بلا اعتراض . وبدأت زوجات العمارة يتحدثن معها إذا رأينها فى صعودهن أو هبوطهن للسلم وتجلى حرصها على علاقتها بالسكان وعلى نيل مودتهم فى المناسبات المختلفة وفى أداء واجبات التهنئة والمواساة وزيارة المرضى، أما زوجها فقد اكتسب احترام السكان بغير جهد كبير بشهامته مع الجميع وبطبيعته غير المفتعلة كإنسان خدوم يبادر بخدمة أى جار يحتاج إلى خدمة وبأدبه الجم وإغضائه البصر مع كل سيدات العمارة ، وأصارحك يا سيدى أننى أحببت سريعاً هذه السيدة المعتزلة ومنحتها ثقتى واحترامى خاصة بعد أن لاحظت عليها حرصها على أداء الفروض الدينية وعفة لسانها . واقتربت منها وعرفت قصة دخولها عالم الفن وهى قصة غير تقليدية أدت إلى تبرُّؤ أهلها منها ومقاطعتهم لها إلى الأبد وبلا أى أمل فى عودة العلاقات معها .


** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb

ومضت الأيام بهذه الأسرة الصغيرة . . ولم تكن لعائلات العمارة عليها أية ملاحظات سوى إسرافها فى الإنفاق على نفسها وعلى الآخرين كالبواب وصبيان المحلات التجارية التى تتعامل معها وشغالى العمارة ، وفسرنا ذلك بأن الزوج يكسب من عمله كموسيقى الكثير وينفق إيراده بسهولة وبلا احتياط للزمن وبأن الزوجة معتادة على الإنفاق وارتداء الملابس الثمينة وعلى المظهر الفخم من حياتها السابقة .

وفى جلسات الصباح حين تجتمع بعض الزوجات الصديقات فى شقة إحداهن لتناول القهوة وتبادل الأحاديث فى غياب الأزواج أصبحت تلك السيدة تجلس بيننا فى أدب ووداعة وثقة فى النفس وقد منحها الله قبولاً من عنده لدى الجميع كما أصبحت تدعونا من حين لآخر لمثل هذه الجلسة فى شقتها وتبالغ فى إكرامنا والحفاوة بنا فى غياب زوجها ويلفت نظر البعض منا فخامة أثاثها ونظافة شقتها المتناهية ونظافة أطفالها الصغار ونظافتها الشخصية دائماً .

ولم نكن نزورها فى شقتها فى الصباح إلا إذا كان زوجها مسافراً خارج القاهرة فى رحلة فنية ، لأنه فى الأيام العادية كان يمضى نهاره فى البيت ويخرج لعمله فى المساء . ومنذ ثلاث سنوات أرسلت فى الصباح شغالتى إلى هذه السيدة لطلب لم أعد أذكره الآن ، فصعدت إلى شقتها ووجدت «الاستاذ» قد انتهى من تناول إفطاره ويتناقش على الباب فى مرح مع محصل الكهرباء حول قيمة الفاتورة الباهظة وهو يدفعها ، وانصرف

المحصل ضاحكاً . . فتنبه الأستاذ للشغالة وداعبها ودعاها للدخول واتجه إلى البهو وهو ينادى زوجته . . فإذا به يسقط على الأرض فجأة وكنت فى شقتى فسمعت صراخاً هيستيرياً وفوجئت بالشغالة تهرول عائدة فى فزع وتقول لى إن الأستاذ فلان قد «طب ساكتاً» وأسرعت إلى شقة جارتى فوجدته ممداً على الأرض وقدرت أنها حالة إغماء مفاجئة فأسرعت أطلب سيارة الإسعاف وتجمعت سيدات العمارة فى شقة الجارة الشابة وجاءت سيارة الإسعاف فطلب الطبيب إنزال المريض إلى السيارة فى الشارع لعدم وجود مصعد . وجاء زوجى المحامى فحمل الجار الطيب الشهم على كتفه من الدور السابع إلى الدور الأرضى وتم إدخاله إلى سيارة الإسعاف . وتحركت السيارة مسرعة إلى المستشفى وقبل أن تصل إلى نهاية شارعنا فوجئنا بصوت فراملها ثم بعودتها القهقرى إلى باب العمارة ، وبالطبيب الشاب يطلب من زوجى إعادة الجار إلى مسكنه . . لأنه «إنا لله و إنا إليه راجعون» . . وصعق زوجى . . هذا الجار الخجول الشهم الذى لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره وكان يتفجر حيوية ومرحاً منذ لحظات ؟ . . نعم هذا ما حدث وانتهى كل شىء فى غمضة عين ودفع الحاضرون أجر استدعاء السيارة . . وحمل زوجى جاره مرة أخرى على كتفه إلى الدور السابع . . ووقفت الزوجة مذهولة بين جيرانها لاتدرى ماذا تفعل وهى بلا أهل وأكبر أطفالها لم يتجاوز السادسة . . وتطوع الحاضرون لعمل اللازم . . وقام زوجى بالإجراءات الضرورية

وحمل الجميع الراحل إلى بلدته بإحدى محافظات الوجه القبلى القريبة وتمت المراسم الحزينة وأقيم العزاء هناك . وعاد الجميع فى المساء وصعدت زوجات سكان العمارة لمواساة الأرملة الشابة وحاولن تشجيعها فظلت تتمتم فى هيستيرية ومن بين دموعها بعبارة واحدة هى : ان الخراب قد بدأ . . ولا حول ولاقوة إلا بالله !

وبعد أن أفاقت قليلاً لنفسها سألت عمن دفع تكاليف المراسم والإجراءات وأصرت بعناد على أن تدفع لكل ذى حق حقه ورفضت كل محاولات التأجيل أو الاعتذار . وأجابتنا حين سألناها عن أحوالها المادية باقتضاب إنها مستورة . وأنهى لها زوجى إجراءاتها القانونية اللازمة لإعلام الوراثة الخ ولاحظنا كثرة بكائها وتطلعها الحزين لأطفالها الصغار الذين أدخلتهم مدرسة لغات وكانت تحلم لهم بحياة أفضل من حياتها وأدركنا أنها تواجه أزمة مادية كبيرة لكنها تتعفف عن أن تشير إليها بعزة نفسها الكبيرة فعرضنا عليها المساعدة المادية فرفضت بإصرار . . ثم لاحظنا بعد ذلك أنها تبيع آلات زوجها الموسيقية من حين إلى آخر لتواجه نفقات أطفالها وحياتها . . فعرض عليها أحد الجيران أن يقدم لها مرتباً شهرياً يعينها على حياتها فاعتذرت شاكرة بإصرار وأبلغت زوجته بأن من يريد أن يساعدها فليوجد لها عملاً شريفاً تنفق من أجره على أطفالها .

ولمست أزمتها عن قرب وأشفقت عليها من تغير الأحوال خلال وقت قصير بعد أن كانت تنفق عن سعة ومن خلال اضطرارها لبيع آلات

زوجها الموسيقية عاد بعض أصدقاء الوسط القديم الذين حجبهم زوجها عنها للظهور فى حياتها وزيارتها من جديد ووسوس لها بعضهم وهم يلمسون تقشف حياتها ويرونها تبيع بعض أجهزتها المنزلية كالمسجلات وغيرها لتعيش أن تعود إلى «عملها» السابق خاصة وأن كل ما تحتاجه هو بعض التدريب والتمرينات الرياضية لاستعادة رشاقتها القديمة ثم تبدأ العمل وتجد كل مشاكلها حلولها بطريقة سحرية ! لكنها رفضت بشدة مجرد مناقشة الفكرة . . وقالت لى لن تخون زوجها الراحل وأطفالها بعد أن هداها الله للإيمان والاستقامة . وألحت على فى الاسراع بإيجاد عمل لها وتداولنا فى أمرها . . وتساءلنا عن نوع العمل الذى تستطيعه وهى لم تكمل تعليمها ولم تحصل على الثانوية العامة .

ولاحظت بالأسف أن عزة نفسها قد بدأت تنكسر داخلها بعض الشىء مع استمرار المحنة وتزايد صعوبة الحياة وعرضت عليها إحدى جاراتنا أن تعمل مربية وشغالة لدى إحدى الأسر وهى تتوقع أن تثور عليها وتلومها . . ففاجأتنا بالقبول قائلة إنه عمل شريف ولايسىء لأولادها بعكس عملها القديم . وأرسلتها جارتنا إلى تلك الأسرة وهى مشفقة عليها من التجربة فذهبت طائعة فإذا بالأسرة ترفضها لا لماضيها فقد شهد لها الجميع بالتدين والأخلاق الكريمة وإنما لسبب عجيب هو أن مظهرها فخم جداً وأنيق للغاية حتى فى حجابها الجميل . وعادت باكية تقول : وماذا أفعل بملابسى هل أبيعها هى الأخرى . . ومن

يشتريها . . ولماذا ينبغى على أن أرتدى الملابس الرثة لكى أحصل على عمل شريف ؟

وأرسلها بعد ذلك جار آخر إلى صديق له صاحب مصنع صغير للملابس الجاهزة لتعمل عاملة فى مصنعه وذهبت إليه واستقبلها وطلب منها الانصراف وانتظار رده عليها مع صديقه . ثم اتصل بجارنا معتذراً عن عدم تشغيلها عاملة فى مصنعه لأنها تصلح كما قال لأن يعمل هو عندها وليست هى عنده ! وبكت مرة أخرى وهى تسألنى ماذا تفعل فى مظهرها . . وكيف «تبهدله» لكى تحظى بقبول أصحاب المصانع والمشاغل الصغيرة، لقد حاولت أن تكسب رزقها بخياطة الملابس على ماكينة صغيرة أهداها لها أحد جيراننا وألح عليها فى قبولها حتى قبلت . . لكنها لم تستطع إجادة الخياطة إلى الدرجة الأولى التى تغرى جداً بالتعامل معها .

ولست فى الحقيقة أخشى عليها من أن تضعف أمام إغراءات أو نداءات وسطها القديم ، فهى شديدة التدين ولا أغالى إذا قلت إنها أكثر تزمتاً من كثيرات ممن لم يكن لهن نفس ماضيها . . لكنى فقط أشفق عليها من نفاد صبرها على صعوبات الحياة بعد أن طالت شدتها ثلاث سنوات حتى الآن بلا أمل فى الانفراج . . وأشفق عليها أكثر من نظرة الانكسار التى استقرت فى عينيها فى الفترة الأخيرة ومن أن عزة نفسها القوية قد بدأت تنكسر داخلها وهى من كانت قبل ثلاث سنوات فقط

موضع «غبطة» ولا أقول حسد أخريات بسبب ترف حياتها وكثرة إنفاقها وإنفاق زوجها . ومازالت صديقتى التى أقول على الملأ إنى أعتز بصداقتها ترفض قبول المساعدات المادية . . ولكن ليس بالغضب والاستنكاف السابقين وانما بالبكاء والاستحياء والاعتذار شاكرة . . ومازالت تطلب العمل الشريف أليس عندك حل كريم لمشكلتها ؟

●● ولكاتبة هـذه الرسالة أقول :

الحق أنى أشفق عليها أكثر وعلى غيرها من أصحاب العقول من ذلك التناقض الذى يحير الأفهام أحياناً بين «سهولة» ورود نهر الحرام الدافق لمن أراد أن يرده . . وصعوبة ورود نهر الرزق الشريف أحياناً لمن تاب وآمن وأراد أن يلقى وجه ربه مطهرا . .

هذا هو التناقض الغريب الذى أشفق عليها منه والذى يسهم بعضنا بغير وعى أحياناً فى تعميقه حين يسد عمدا أبواب الرزق على العائدين إلى الطريق الصحيح والمتمسكين به فى وجه الإغراءات والصعوبات وهو تناقض قديم أشار إليه الشافعى فى بعض أشعاره حين قال :

ومن الدليل على القضاء وحكمه

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

هذا إذا أسفنا إلى مفهوم الأحمق الذى قد يتسع رزقه من حلال أحياناً بغير جهد منه أو كفاءة مفهوم الأحمق الآخر الذى يرضى لنفسه وأهله أن

يطمعوا من حرام وهو كذلك بكل تأكيد وبالمقاييس الصحيحة .

كذلك فقد اعتبره الشاعر العربى أبو تمام من حقائق الحياة التى يخفى سرها على الإدراك ووجد تبريرها فى قوله :

لو كانت الأرزاق تجرى على الحجا

هلكـن إذن مـن جهلهن البهائـم

لايجتــمع شـرق وغـرب لقاصـد

ولا المجد فى كف امرىء والدراهم

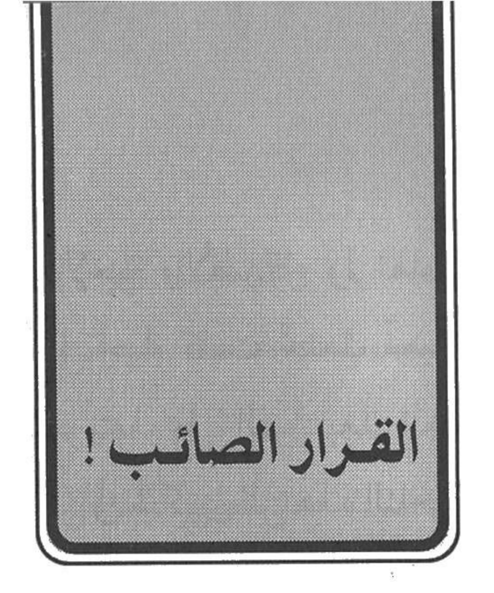
ولسنا فى الحقيقة ننتظر أن يجتمع «شرق وغرق» لقاصد . لأننا نعرف جيداً أن لكل إنسانماينقصه وما يتطلع إليه دائماً . . كما نعرف أيضاً أن لكل إنسان اختياره فى الحياة . . وأن لكل اختيار تبعاته وفاتورته التى يدفعها راضياً . . فمن اختار الانحراف والحياة اللذيذة التى لاتؤرقها مسائل الحرام والحلال . . فليهنأ بها اختار وليدفع فاتورته غير شاك فى الدنيا من احتقار الآخرين له . . وفى الآخرة من عذاب الجحيم . . وليس من حقه بعد ذلك أن يأسى على عدم احترام الناس له أو رفضهم أو نبذهم له أو جفولهم من مصاهرته أو الاحتكام إليه فى أمور الدين والدنيا . . بسبب منطقى بسيط هو «أن المرأة التى تتقاضى أجرها . . ليس من حقها أن تطالب بالزواج» . كما يقول المثل الانجليزى ! وكل منحرف يستهين بقيم دينه وحدود ربه وأعراف مجتمعه وينهل من المورد

الحرام بلا حساب هو كالمرأة التى تتقاضى أجرها ولايحق لها أن تطالب بالزواج أو بالاحترام والقبول والشرعية وبراحة القلب والنفس والضمير . . وبأجر الصالحين فى الدنيا والآخرة ، لأن ذلك كله هو جائزة «الحرمان» من اللذائذ المحرمة ، وجائزة الحرمان أحياناً من «طيب عيش الأحمق» والمنحرف والسارق والمختلس وتاجر السموم وناهب الأموال وسارق الأعراض . . الخ ولن يجتمع مرة أخرى شرق وغرب لقاصد على ظهر الأرض إلا لمن رحم ربك وهداه إلى الطريق القويم وأجزل له العطاء فى الدنيا . . وفى الآخرة . . ليكون مثالاً للناظرين، وإن لم تخل حياته غالباً من أشجانها التى لايعرفها غيره .

وقصة صديقتك يا سيدتى ترجمة مؤلمة لهذا التناقض القديم ، ولست ألوم الأسرة التى رفضتها شغالة ومربية لأطفالها حتى وإن اختلفت معها فى الرأى لأن لكل إنسان تقديره الخاص فيما يتعلق بتربية الأطفال . لكنى ألوم بشدة صاحب المصنع الذى ضن عليها بهذا العمل البسيط لمجرد أن مظهرها محترم ولايتفق مع مظهر العاملات عنده . فليس هكذا نعين من اختار الرزق الشريف على شحه وفضله على النبع الغزير ، ولا هكذا ينبغى أن نعين من اختار العمل الشريف راضياً بعائده البسيط . . وهناك على الضفة الأخرى من النهر من يناديه أن هلم لترد نبعنا وتجد كل ما تحتاج إليه بلا حساب ولا عناء ! «وبئس الورد المورود » صدق الله العظيم .

إننى مثلك لا أخشى عليها من أن تضعف أمام صعوبات الحياة أو تتنازل عن قيمها لأن من عرف الطريق الصحيح واختاره بملء إرادته يتعذر عليه غالباً أن يرتد عنه لكننا لايصح أن نعتمد على ذلك وحده فنعين صعوبات الحياة على أمثالها بدلاً من أن نعينهم على صعوبات الطريق .

ولاشك أن صديقتك أحق بإعانتها على أمرها ، ليس فقط لحاجتها وحاجة أطفالها إلى ما يحفظ عليهم الحياة الكريمة . . وإنما أيضاً لكى نثبت لها ولغيرها بالدليل أنها لم «تضل» الطريق حين اختارت حياتها الجادة المستقيمة . . وإنما «عرفت» طريقها الصحيح إلى ربها وصلاح أمرها وأمر أطفالها حين اختارته رغم صعوبات الحياة وعثراتها ولتتفضل إذن بالاتصال بى مساء الاثنين القادم والله المستعان على مايصفون .



سأعرض عليك قصتى راجياً أن تساعدنى فى اتخاذ القرار الصائب .

أنا موظف بإحدى الهيئات الإقليمية فى الخامسة والأربعين من عمرى . تخرجت فى الجامعة منذ ثلاثة وعشرين عاماً وتزوجت بعد تخرجى مباشرة وأنجبت طفلة . . ثم فشل زواجى سريعاً وانتهى بالطلاق . . ولم أشعر وقتها بمرارة الطلاق أو فراق الأبناء لأنى كنت صغير السن وفى مطلع الشباب . . وكان حولى إخوتى وأمى فخففوا عنى ما حدث ونسيته سريعاً .

وبعد ثلاث عشرة سنة من تجربتى الأولى الفاشلة تزوجت وأنا ناضج فى سن السابعة والثلاثين من زميلة لى بالعمل . ولم يعرف أهلها أو أى إنسان آخر بتجربتى الفاشلة الأولى .

وبعد زواجى سعيت للانتقال إلى عمل آخر تجنباً للمشاكل التى قد تحدث نتيجة لوجودنا معاً فى عمل واحد ، وانتقلت إلى الهيئة التى أعمل بها الآن . ومضت الأيام بنا فأنجبت من زوجتى ولداً وبنتاً . ورحلت

أمى عن الدنيا وتفرق الإخوة والأصدقاء ولم تعد لى دنيا خارج حدود أسرتى الصغيرة . وككل حياة كانت تحدث أحياناً بينى وبين زوجتى خلافات عابرة تتم تسويتها على الفور بعد العتاب أو بعد خصام لايستمر عدة أيام ولم تكن لى شكوى من هذه الناحية .

وفى صيف العام الماضى استأجر أحد زملاء زوجتى فى العمل وهو زميل سابق لى وصديق ، شقة مفروشة بأحد المصايف لقضاء الأجازة فيها وعرض على زوجتى أن نسافر معه لقضاء العطلة فى هذه الشقة لأنه لن يستفيد منها سوى بغرفة واحدة . وفاتحتنى زوجتى فاعترضت لأنه أعزب أولاً ولأن نصيبنا فى إيجار الشقة سوف يرهقنا مادياً فضلاً عن نفقات المصيف . لكنها ألحت على فى القبول بحجة أنها فرصة لاتعوض لقضاء أجازة قليلة النفقات . . وطالبتنى بأن أدعه يتحمل هو إيجار الشقة لأنه كان سيتحمله سواء ذهبنا معه أم لم نذهب على أن أعطيه بطانية جديدة هدية فلا يكون له كما قالت «فضل عليك» ووافقت على مضض بسبب إلحاحها وإصرارها، وسافرنا وقضينا الأجازة وعدنا من المصيف . وبدأ هذا الصديق يتردد علينا كثيراً . ثم جاء عيد ميلاد ولدى ففوجئت به يفتح دولابى الخاص ويخرج منه هدايا كان قد أعدها قبل ذلك لأطفالى وأخفاها فيه بدون أن أسمح له بذلك . . وبدأت ألاحظ أشياء غريبة وأتوقف . . وأراقب وكلما طلبت من زوجتى أن تطلب منه الإقلال من زيارتنا تجنبا للمتاعب أجابتنى بأنه «وحيد

وغلبان» وكثرت هداياه لها . . وكلما لفت نظرها إلى عدم جواز ذلك تقول وماذا فى ذلك . . إنه يجد راحته عندنا . . وأنت ليس لك أصدقاء وفى حاجة إلى صديق مثله ! ثم بدأت تخرج معه أحياناً من الساعة السابعة صباحاً ولاتعود إلا فى الثالثة بعد الظهر وأسألها فتجيبنى : «باخطب له . . أصله غلبان!» . مع أن هذا «الغلبان الوحيد» له أربعة أشقاء وأخت يستطيعون أن يخطبوا له نصف بنات البلد إذا أراد بالإضافة إلى انشغالها المستمر بشراء كل لوازمه الخارجية والداخلية واهتمامها بذلك على حساب شئونى الخاصة فإذا عاتبتها شقيقتى استنكرت منها ذلك وذكرتها بأن زوجها الأهم ردت فى ثبات : ماذا يعيب زميلى . . ولماذا تكرهونه ؟ وأكثر من ذلك فكانت تفرض على أو تورطنى فى دعوته من حين لآخر لقضاء ليلة الأجازة معنا ليبيت فى غرفة الأولاد وتظل تسامره طول الليل وأنا جالس أغالب النعاس، وكلما دعوتها للنهوض للنوم تجيبنى بأنى أستطيع أن أنام أنا فى أى وقت . . أما هى فسوف تسامره لأنه عيب أن يتركه كلانا وحده ! فأضطر لمواصلة الجلوس وأنا أتطوح من تأثير الرغبة فى النوم حتى تطلق سراحى بعد الفجر . . وكثير وكثير من المواقف المخزية . . ثم أخيراً سافر هذا الصديق للعمل فى الخارج وتنفست الصعداء لكنى فوجئت بها بعد سفره بثلاثة أيام تهجر البيت وترفض العودة وتزعم أنى قد ألقيت عليها اليمين ثلاث مرات خلال فترة زواجنا التى لم تكمل تسع سنوات وتطلب الطلاق لأنها صارت بذلك محرمة على .



وتجادلنا فى ذلك وسألتها كيف قبلت عشرتى بعد اليمين الثالثة التى تزعمين أنى ألقيتها عليك منذ شهور فتقول لى إنها لم تكن تعرف أنها قد أصبحت لاتحل لى وتدخل الأهل وقررنا أن نستفتى شيوخ الأزهر وقبلت ذلك لثقتى فى سلامة موقفى واصطحبنا إلى هناك وقابلنا أحد الشيوخ الأجلاء وروى كل منا القصة من وجهة نظره فإذا بالشيخ الفاضل يقول لى إنها فعلاً محرمة على . . وإنها صادقة وإنى كاذب . . مع أنى متأكد أنى لم ألق عليها اليمين خلال تلك المشاحنات الأخيرة بسبب هذا «الصديق» وقد فشلت كل الجهود فى إقناعها بالعودة ومازالت ترفض بإصرار .

فماذا أفعل ياسيدى . . هل أطلقها غير مأسوف عليها وأترك أولادى . . وأواجه مرارة فراق الأبناء وأنا فى هذه السن . وبعد هذه المرحلة من العمر أم أصبر عليها لعلها تفيق من غواية الشيطان وأهوائه ؟ إننى أكاد أجن لعدم قدرتى على اتخاذ قرار صائب علماً بأنى لم أكن في يوم من الأيام متردداً فى اتخاذ أى قرار هام فى حياتى ولو كان فيه ضرر لى . فأرجوك أرشدنى لمافيه خيرى ولاتنشر اسمى تجنباً للفضيحة ومن أجل ابنتها الصغيرة التى ستحمل وزر أمها وكذلك ابنى .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لن أطيل فى ردى عليك حرصاً على المشاعر إذا لولا أن رسالتك قد تفيد البعض فى إثراء معرفتهم بالحياة وببعض مايجرى بها أحياناً من

«أحوال» خارقة للمألوف لما نشرتها ولاكتفيت بالرد عليها فى باب الردود الخاصة ، كما أفعل كثيراً مع مثيلاتها .

يا سيدى إن المشكلة الأساسية فى قصتك ليست فى حقيقة عدد المرات التى ألقيت عليها فيها اليمين وهل هى ثلاث كما تتمسك زوجتك أم اثنتان كما ترى أنت ، وإنما المشكلة الحقيقة هى أن زوجتك قد اختارت غيرك منذ فترة ليست قصيرة وحسمت أمرها نهائياً وهجرت بيتك وتطلب الطلاق وتصر عليه لتبدأ حياة جديدة بعيداً عنك فماذا تريد أن تفعل بنفسك أكثر مما فعلت حتى الآن ؟ وماذا تحتاج من دليل جديد على أن الحياة قد فسدت بينكما تماماً ولم تعد تجدى فيها محاولات الإصلاح إن محنتنا الحقيقية تبدأ حين نرفض الاعتراف بالأمر الواقع الذى يلمسه الجميع ماعدانا نحن ثم نحاول تجاهله ومواصلة حياتنا كما نراها بدلاً من أن نسلم بما حدث ونتحرك لمواجهة نتائجه ونتحمل تبعاته بشجاعة كما ينبغى للإنسان الرشيد أن يفعل .

وماجرى خلال العام الأخير يعكس هذه الحقيقة وينطبق عليه قول الشاعر :

وكيف يصح فى الأذهان شىء

إذا احتاج النهار إلى دليل ؟

إننى لا أريد إيلامك . . بل أقدر آلامك وأفهم دوافع إشفاقك على

أبنائك . . وعلى نفسك من مرارة مفارقتهم ومعاناة محنة الانفصال فى سن الهدوء والاطمئنان . . لكن ماذا نستطيع أن نفعل إذا فرضت علينا المحنة لأسباب خارجية ولاحيلة لنا فيها سوى أن نتحمل اختبارات الحياة القاسية وننهض لنبدأ من جديد ؟

إن الإنسان العظيم هو الإنسان القادر على نفسه دائماً قبل أن يكون قادراً على الآخرين والأكرم لمن فرضت عليه هذه المحنة ألا يتوقف ليسأل أو يجادل فى عدد مرات الطلاق . . وإنما أن يتقبل الهزيمة بشجاعة الألم . . موقنا تماماً بأنه لايعيب المرء أبداً أن يغدر به الغادرون . . وإنما يعيبه فقط أن يرضى لنفسه بالهوان وفى مقدوره أن يتخلص منه .

ولقد حدث ماحدث ولم تلتفت للأسف لمقدماته الطويلة وحان الآن وقت تصحيح الأوضاع مهما كان ذلك قاسياً عليك فدعها لنفسها وما اختارت فذلك أفضل كثيراً من محاولة إرغامها على مواصلة الحياة معك . . وليرع الله طفليك إلى أن تستطيع ضمهما إليك أو التوصل لصيغة كريمة للإشراف عليهما معها الآن . . ولتبدأ حياتك من جديد مع سيدة ملائمة لك فى العمر ولا رغبة لها فى الإنجاب . . والإنسان يستطيع دائماً أن يبدأ حياته من جديد فى أى مرحلة من مراحله مستفيداً من دروس الألم وعثرات الطريق فاحزم أمرك يا صديقى سريعاً . . وسرحها بهدوء حرصاً على كرامتك وكرامة أبنائك واستجابة لرغبة من لاتريد الحياة معك ولاتكشف ما أراد الله ستره لصالح أبنائك وليس لصالح أحد

آخـر. ودع لربك أن يقتص لك ممن ظلمك ويعوضك عما لقيت خيراً مؤجلاً .

وتأكد أنى لا أنصح أباً أو أماً لأطفال صغار باتخاذ هذا القرار البغيض أبداً إلا إذا كان فى استمرار حياتهما معاً ، ماهو أشد بغضاً وحرمة عند ربهما من انتهائها .

وفى حالات قليلة أجدنى مرغماً على الإيمان بصدق هذه العبارة التى جاءت على لسان إحدى شخصيات الأديب الفرنسى جان أنوى فى مسرحية مسافر بلا متاع ، فأرددها معه قائلاً : «لاخير فى الأسرة إذا انعدمت الروابط بين أفرادها . . أو إذا فسدت الحياة نهائياً بينهم » .

والمؤكد أن الحياة بينك وبين زوجتك قد فسدت نهائياً ولم يعد يرجى لها صلاح ولم يبق إلا اتخاذ القرار الصائب بإسدال الستار عليها للأسف . وشكراً لك .

الفهرس

صدر للمؤلف

١ ـ أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٦ (نفد)
٢ ـ يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧ (نفد)
٣ ـ هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٨٨ (نفد)
٤ ـ صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٠ (نفد)
		الطبعة الثانية ١٩٩١ (نفد)
		الطبعة الثالثة ١٩٩٣
٥ ـ نهـر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٠
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٦ ـ العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩١
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٧ ـ صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩١
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٨ ـ العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
		الطبعة الثانية ١٩٩٣
٩ ـ افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
١٠ ـ اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٢
١١ ـ أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
١٢ ـ أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
١٣ ـ رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
١٤ ـ وقت للسعادة . . وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٣
١٥ ـ شـركـاء فى الحيـاة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٣

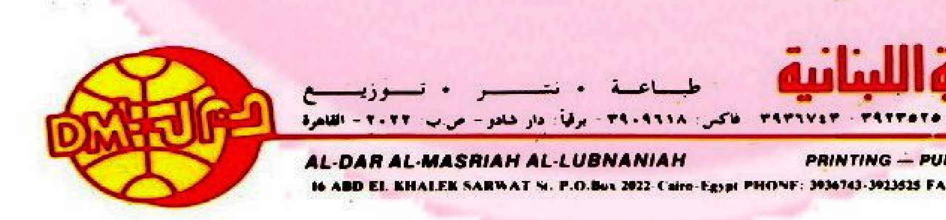
شركاء فى الحياة

نادرون هم من وهبهم الله القدرة على حل مشاكل الناس وارشادهم إلى نور الهداية والراحة ، وتخفيف همومهم وما تنوء به كواهلهم من أثقال .

والأستاذ عبد الوهاب مطاوع غنى عن التعريف فى هذا المجال ، ويشهد على ذلك بابه الأسبوعى «بريد الجمعة» فى جريدة الأهرام . . حيث جعل هذا الباب منتجعاً للنفوس التى أضنتها متاعب الحياة . . وملجأ لكل من ينشد اللطف والتخفيف والرحمة إذا ألمت به الهموم أو حاقت به الملمات .

وقد حاز الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ثقة قرائه بشكل لم يسبق له مثيل فى الكتابة الصحفية عن المشاكل الإنسانية والاجتماعية ، سواء فى الصحف المصرية أو صحف العالم العربى بأسره . . وذلك بما تميز به من قدرة فائقة على عرض جوانب «المشكلة» بأسلوب سهل وعميق فى الوقت نفسه ، وعرض «الحل» الذى يقترحه بأسلوب أكثر سهولة وعمقاً . . مستعيناً على هذا الحل بكل الوسائل والأساليب . . ويؤيد حلوله بما يناسبها من آيات القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الفلاسفة والحكماء والشعراء ، بالإضاف إلى التحليل فى ضوء أحدث النظريات فى علم النفس وعلم الاجتماع .

« الناشر »




Exclusive
For
www.ibtesama.com